السلم
في العلاقات العباسيّة البيزنطية في العصر العباسي الأول

(دراسة تحليلية لعهد الخليفة الواثق بالله)

تأليف
الدكتورة نادية حسني صقر
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بجامعة أم القرى

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م

السلم
في العلاقات العباسية البيزنطية
في العصر العباسي الأول

توزيع
دار الندوة الجديدة
ص.ب : ٥١٧٤
بيروت ـ لبنان

السلم في العلاقات العباسية البيزنطية في العصر العباسي الأول

(دراسة تحليلية لعهد الخليفة الواثق بالله)

تأليف

الدكتورة نادية حسني صقر

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
بجامعة أم القرى

الفيصلية

مكة المكرمة ـ العابدية ـ س . ت : ١٣٢٧٦
ص . ب : ٢٧٠٣ ـ برقياً : فرهود ـ ت : ٥٧٤٦٦٧٩

الطبعة الأولى
١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م

الاهداء :

الى كل شهيد بذل روحه ودمه من أجل الاسلام

الى كل مجاهد وقف حياته وقلمه لخدمة الاسلام

الى المناضلين بدمائهم وأموالهم وعقولهم

للذود عن حياض الاسلام

. . . أهدى هذا الكتاب .

دكتوره ناديه حسني صقر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

في حركة الفتوحات الاسلامية تمكن المسلمون من فتح بلاد فارس بسقوط المدائن ثم قتل يزدرجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان، وبذلك تحولت فارس إلى جزء من دار الإسلام . أما على الجبهة البيزنطية فكان الأمر غير ذلك فقد ظلت القسطنطينية قائمة وإن تم فتح الشام ومصر وشمال افريقيا .

قامت العلاقات الاسلامية البيزنطية على العداء المتبادل بين الطرفين . ففي العصر الأموي قامت ثلاث محاولات في عهد معاوية ومحاولة رابعة في عهد سليمان لاسقاط القسطنطينية وفتح البلاد لتصير جزءاً من العالم الاسلامي . وفشلت تلك المحاولات لاسباب مختلفة ، وظلت القسطنطينية قائمة والكيان البيزنطي قائماً .

ثم قامت الدولة العباسية وتغيرت استراتيجيتها مع البيزنطيين عن استراتيجية الامويين . فبينما كان الأمويون يعتمدون سياسة الفتح وزيادة رقعة الدولة الاسلامية اكتفى العباسيون بتحصين خط الحدود البيزنطية وشحن منطقة الثغور بالمقاتلة . بدأ المنصور تلك السياسة فكانت سنة استنها خلفاء العصر العباسي الأول بعد ذلك ولم يحيدوا عنها . وسياسة تحصين الحدود انما تعني تثبيت تلك الحدود والتخلي عن سياسة الفتح . بمعنى آخر أصبحت استراتيجية العباسيين دفاعية وليست هجومية .

ولا يعني ذلك أن الحرب بين الطرفين قد توقفت بل اشتعلت الجبهة في العصر العباسي الاول اشتعالاً . فكان للبيزنطيين هجماتهم وغاراتهم على الثغور الاسلامية . كما قام معظم خلفاء هذا العصر بالهجوم على الأراضي البيزنطية

والتوغل فيها مخربين مدمرين . فحملات المهدي والرشيد والمأمون والمعتصم أسهب في وصفها المؤ رخون .

وصلت الجيوش الاسلامية حتى مشارف القسطنطينية ولكنها كانت تترك الأرض بعد اذلال البيزنطيين مكتفية بأخذ الجزية والغنائم والأسرى واستشهد الالاف من ابناء الدولة الاسلامية وارتوت بدمائهم منطقة الحدود البيزنطية طوال العصر العباسي الاول . وتزايد عدد الجيش الاسلامي الى حد بعيد فقد بلغ جيش الرشيد في خلافة أبيه المهدي قرابة ستة وتسعين ألفاً توغل هارون بهذا الجيش في آسيا الصغرى ودمر حصن ماجدة وواصل سيره حتى أشرف على خليج البحر الذي على القسطنطينية ، وقتل من الروم أثناء المعارك أربعة وخمسين الفاً ، وقتل من الأسارى صبراً اكثر من ألفين ، وغنم الرشيد من الدواب عشرين الف دابة ونظمت الصوائف على الحدود البيزنطية حتى أن الطبري يقرن الصوائف بالحج الذي هو شعيرة تتم كل عام ، فنجده في ذيل احداث كل عام يقول : « وغزا الصائفة فلان وحج بالناس فلان » .

وفي عهد الواثق تغيرت صورة العلاقات مع البيزنطيين اذ توقف الصراع العسكري الرهيب على الحدود والذي استمر نحو تسعين سنة ، وتم تبادل الأسرى وركن الطرفان الى السلم ونعمت منطقة الحدود بشيء من الهدوء والاستقرار . فلِمَ كان السلم في هذه المرحلة بالذات ؟ وما هي العوامل التي أدت اليه ؟ وما هي النتائج التي ترتبت عليه ؟

الواقع ان عهد الواثق لم ينل حظه من الدراسة الوافية بعد ، وكل ما كتب عنه لا يعدو ان يكون اجزاء متناثرة ضمن موضوعات اخرى . فلم يجد المؤ رخون المحدثون في عهده ما يستحق الدراسة .

وتلك دراسة موضوعية متواضعة لعهد الخليفة المفترى عليه الواثق بالله حاولت فيها القاء الضوء على جوانب عهده السياسية والحضارية . فالواثق بالله بذل كل ما في وسعه ، وما كان يمكنه ان يفعل اكثر مما فعل فقد تولى الخلافة وفي الدولة تيارات جارفة لم يكن باستطاعته أو غيره ايقافها أو تغيير اتجاهها .

وطبيعة الموضوع هي التي فرضت تبويبه . فقد جاءت تلك الدراسة في خمس فصول ، بدأناها بتمهيد بوضح أسباب الصراع بين الدولتين الاسلامية والبيزنطية ،

وتناول الفصل الاول العلاقات الاسلامية البيزنطية خلال العصر العباسي الأول .
بينما تناول الفصل الثاني العوامل المتعلقة بالدولة الاسلامية والتي أدت الى السلم . ودرس الفصل الثالث العوامل المتعلقة بالجانب البيزنطي والتي أدت الى السلم أما الفصل الرابع فقد تناول كيفية تبادل الأسرى وتحقيق السلم . ودرس الفصل الخامس النتائج التي ترتبت على هذا السلم . ثم ذيلنا الدراسة بتقييم لعهد الواثق .

لم نسرف في تقسيم البحث الى موضوعات فرعية ولم نسرف أيضاً في العناوين الجانبية حفاظاً على المنهج العلمي وتحاشياً لتفتيت المادة العلمية . كما اهتممنا بمنهج الربط بين جوانب البحث تحقيقاً للتكامل الفكري والوحدة الموضوعية والتاريخية .

أرجو ان اكون قد وفقت الى ما قصدت ، وان لمس القارىء أو الباحث في التاريخ الاسلامي بعضاً من القصور فلعل ذلك يكون حافزاً لغيري من الباحثين على استكمال جوانب الموضوع والله الهادي الى سواء السبيل .

د . نادية حسني صقر

مكة المكرمة
في ١٦ ذو الحجة ١٤٠٤ هـ
١١ سبتمبر ١٩٨٤ م

تمهيد

أسباب الصراع بين الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية

لم تنقطع الحرب بين المسلمين والبيزنطيين منذ قيام الدولة الاسلامية التي اخذت في النمو والاتساع باقتطاع اجزاء من امبراطورية الروم . وظلت العلاقات عدائية والنزاع قائماً بين الطرفين تذكيه عوامل مختلفة ، فالحدود المشتركة والتي تتكون من سلسلتي جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية والاستراتيجية الممتازة لوقوعها على الممرات التي تخترق تلك السلسلة الجبلية وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على تلك الحصون والممرات للدفاع عن ارضه والهجوم على الطرف الآخر . فالمسلمون يدفعهم الجهاد تحقيقاً لعالمية الاسلام [1] الى محاولة اسقاط القسطنطينية كما اسقطوا المدائن من قبل ، والبيزنطيون يطمعون في استرداد الشام . ولا يمكن ان نغفل الرغبة في السيطرة على الطرق التجارية التي تصل بين شرق العالم وغربه ، فقد كان هناك طريقان بين الهند والصين وآسيا الوسطى من جهة وبين شرق اوروبا من جهة اخرى ، الاول منهما طريق بري يمر عبر ايران ، والثاني بحري في الجنوب ماراً بالبصرة وبغداد والموصل حيث يتفرع إما الى شواطىء الشام فالبحر المتوسط ، واما عبر الاناضول الى القسطنطينية . وبعد الفتوحات الاسلامية اصبح الجزء الاكبر من تلك الطرق التجارية في حوزة الدولة الاسلامية فكانت تجبي العشور والضرائب من التجار المارين بها .

وكان البيزنطيون من قبل الاسلام يطمعون في السيطرة على بلاد العرب

---

(١) الشيخ محمد الخضري : اتمام الوفاء ص ٥ ، ٦ قال الله تعالى ﴿ وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ﴾ سورة الانبياء آية ١٠٧ وقال تعالى : ﴿ وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ سورة سبأ آية ٢٨ .

للتحكم في طرق التجارة المارة بها والتضييق على منافسيهم الساسانيين ورأت الدولتان اتخاذ الدين كتمهيد لبسط النفوذ السياسي ، واصبح اليهود في اليمن عملاء سياسيين للفرس والمسيحيون عملاء سياسيين للروم ، وانتهزت الدولة البيزنطية فرصة اضطهاد الملك العربي ذي نواس الحميري للمسيحيين في اليمن ـ حين خدّهم الاخدود كما ذكر القرآن [1] لتطلب من حليفتها دولة الحبشة المسيحية ارسال حملة تأديبية نجحت في القضاء على الدولة الحميرية وبدأت فترة من الاستعمار الحبشي الروماني لليمن [2] وبدأ بتنفيذ المخطط البيزنطي وهو نشر المسيحية في الجزيرة العربية لربط العرب بالولاء السياسي للبيزنطيين وتحقيقاً لهذه السياسة قام ابرهه الحبشي ببناء كنيسة القليس [3] في صنعاء وحاول عبثاً جذب الحجلج العرب اليها فكانت حملة الفيل على مكة لهدم الكعبة والتي جاء ذكرها في القرآن الكريم [4] ، ولذا غضبت الدولة البيزنطية لقيام الدولة العربية الاسلامية في عهد الرسول ﷺ فقد كانت الوحدة الدينية والسياسية التي قامت تقضي على الاطماع البيزنطية في الجزيرة العربية . واصطدمت الدولتان الاسلامية والبيزنطية عسكرياً فكانت موقعة مؤته كما قاد النبي ﷺ بنفسه غزوة تبوك ضد الدولة البيزنطية [5] .

ثم كانت الفتوحات الاسلامية في عهدي ابي بكر وعمر بن الخطاب وفتح المسلمون بلاد الشام ومصر ، ثم افريقية (تونس) في عهد عثمان بن عفان .

وفي العصر الاموي استمر الصراع قائماً بين الدولتين براً وبحراً بغرض الفتح واسقاط القسطنطينية . والدولة الاموية اهتمت كثيراً بالفتوحات في وسط آسيا وشمال افريقية وجنوب اوروبا وكان للامويين جيوش برية عظيمة واساطيل بحرية ضخمة ابدت تفوقها خلال صراعاتها مع البيزنطيين ، ففي خلافة معاوية كانت هناك محاولتان للاستيلاء على القسطنطينية احداها في عام ٤٨ هـ والاخرى في عام ٥٤

---

(١) سورة البروج : الايات ٤ ـ ٩ .

(٢) تفاصيل الاحداث في سيرة ابن هشام حـ ١ ص ٤٠ وما بعدها ، تاريخ الطبري حـ ٢ ص ١٠٨ وما بعدها الكامل لابن الاثير حـ ١ ص ٢٥٠ وما بعدها .

(٣) ماخوذة عن اليونانية ومعناها الكنيسة . عبدالعزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ص ١٦٥ .

(٤) سورة الفيل .

(٥) ابن الاثير : الكامل حـ ٢ ص ١٨٩ وما بعدها . الخربوطلي : الرسول في المدينة ص ٢٣٢ وما بعدها .

هـ [1] . وشهد عهد سليان حملة عظيمة برية وبحرية بقيادة مسلمة بن عبد الملك استمرت تحاصر القسطنطينية اكثر من عام وتمكن الامبراطور ليو الثالث الايسوري من الصمود والمقاومة كما استعان بالبلغار ضد جيش المسلمين [2] واستعمل النار الاغريقية . ولو اضفنا الى ذلك حصانة موقع القسطنطينية وشدة برد الشتاء وقسوته ندرك في النهاية اسباب عدم سقوط القسطنطينية في أيدي المسلمين الذين أرسل عمر ابن عبد العزيز في استدعائهم لما بلغه من شدة معاناتهم ، فور توليه الخلافة .

---

(١) الطيب النجار : الدولة الاموية في الشرق ص ١٢٠ . حسن الباشا : دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص ٦٠ .

(٢) عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية . سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ص ١٤٨ .

الفصل الأول

العلاقات الاسلامية البيزنطية
في العصر العباسي الأول

الفصل الأول

العلاقات الاسلامية البيزنطية في العصر العباسي الاول

لم يهتم العباسيون بالفتوحات الاسلامية وضم اراضي جديدة للدولة ، وان لم يتوقف الصدام العسكري بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية الا أن العباسيين لم يخططوا لاسقاط الدولة البيزنطية كما خطط اسلافهم الامويون واتخذ الصدام العسكري بين الدولتين صورة غارات انتقامية تخريبيه ، الهدف منها انزال كل فريق بالأخر اكبر قدر من الخسائر في الارواح والعمران والاموال . وكانت كل من الدولتين العباسية والبيزنطية تنتهز فرصة الاضطرابات الداخلية في اي منهما للقيام بمثل هذه الاغارات التخريبية ولم نجد في المصادر التاريخية ما يدل على ان العباسيين خططوا لفتح القسطنطينية [1] فسياسة العباسيين انما قامت على اساس الدفاع عن الحدود ، لا ضم اراضي جديدة ، ثم الانتقام لكل عدوان يقع على اراضيهم ، فغزواتهم كانت وقائية دفاعية تهدف الى تأكيد قوة المسلمين بدليل انهم في حالات انتصاراتهم وتوغلهم في الاراضي البيزنطية ووصولهم اسوار القسطنطينية عادوا وتركوا الارض واكتفوا باخذ الجزية كما فعل الرشيد [2] . في عام ١٦٥ هـ في خلافة ابيه المهدي .

صور الاستاذ الدكتور ابراهيم العدوي العلاقات بين الدولة الاسلامية والدولة البيزنطية خلال العصر العباسي فقال : « كانت الاغارات التي شنها الطرفان عندما سمحت لهما الظروف تهدف الى السلب والنهب وتخريب ما تستطيع تخريبه من المدن والحصون دون ان تترامى بها الامال الى القيام بمشروعات حربية واسعة ، شبيهة بما اعدته الخلافة الاموية [3] .

---

(١) اليعقوبي والطبري : والمسعودي وابن الاثير وغيرهم .

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك جـ ٩ ص ٣٤٧ ، ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ١٠ .

(٣) العدوي : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٨٨ .

كما يعبر الدكتور فاروق عمر عن هذه الحقيقة قائلاً : « استمرت الحرب العباسية البيزنطية بين المد والجزر على انها بصفة عامة كانت غزوات للتخريب والسلب والسبي ولارهاب العدو . ولا يمكن ان نسميها فتوحات لانها لم تكن تهدف او لم تستطع ان توسع حدود الدولة الاسلامية »[1] .

لذلك يمكننا القول بان حملات العباسيين على الاراضي البيزنطية لم يكن لها تأثير كبير على كيان الدولة البيزنطية ، كما يمكننا القول بأن دور العباسيين في العلاقات الاسلامية البيزنطية كان دور الدفاع فقط للحفاظ على سلامة الحدود وحتى لو قامت الدولة العباسية بهجوم على الاراضي البيزنطية فقد كان الغرض منه الانتقام والردع لا الاستيلاء والفتح . وهذا ما يفسر اهتمام العباسيين منذ مطلع خلافتهم بتحصين الحدود والنظام الثغري الذي اخذ يتدرج في التحسن والرقي .

ومنذ اواخر العصر الاموي والدولة الاسلامية مشغولة بامورها الداخلية كما انشغل العباسيون بثورتهم واحداثها وتدعيم الكيان العباسي ومواجهة مشاكل تلك المرحلة . مما شجع[2] قسطنطين الخامس في عام ١٣٣ هـ/ ٧٥٠ ـ ٧٥١ م . على استغلال تلك الفرصة فأغار على الحدود ودمر خط حصون الفرات وهدد كل الثغور الاسلامية بشكل خطير ، رغم مشاكله الداخلية في توطيد اللاأيقونية . فقد حاصر الامبراطور ملطية واستسلم اهلها الذين اجبروا على اخلائها فخربها وهدم حصن قلوذيه[3]. وامر ابو العباس السفاح ، عمه وواليه على الشام عبد الله بن علي العباسي بالمسير الى الروم وتجهز الجيش وخرج وفي شمال حلب وصلت انباء وفاة السفاح واستخلاف المنصور ولما كان عبد الله يطمح في الخلافة صارت احداث العراق ومصير الخلافة اكثر اهمية في نظره من الثغور الاسلامية ، فعاد[4] وقد بايع لنفسه . وقد اورد ابن الاثير ذلك الخبر في تاريخه .

كان على المنصور ان يواجه المشكلة البيزنطية خاصة ان البيزنطيين عاودوا الهجوم على ملطيه في عام ١٣٨ هـ كما يقول الطبري . وتبلورت جهوده كلها

---

(١) فاروق عمر : العباسيون الاوائل حـ ٢ ص ٢٥٢ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٢ .
(٣) المصدر السابق ، ابن الاثير : الكامل حـ ٤ ص ٣٤١ .
(٤) مجهول العيون والحدائق حـ ٣ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ ، فاروق عمر : العباسيون الاوائل حـ ٢ ص ٢٣٧ .

وتركزت في تحصين الحدود القائمة فأمر عمه صالح بن علي باعادة بناء ملطية وتحصينها وعهد الى الجيش العباسي من الخراسانية بمهمة التحصين فقد خرج الحسن ابن قحطبه في سبعين الفاً وجمع العمال من كل بلد حتى استطاع الجند الخراسانية ان يعيدوا بناء ملطيه ومسجدها في ستة اشهر [1] كما أمر ببناء المصيصه [2] . ويعطينا البلاذري معلومات وافية عن الجهود الكبيرة التي بذلها المنصور والامكانيات الهائلة التي سخرها من اجل وضع اساس جديد لاقليم الثغور . واستعمل المنصور كل الوسائل لاغراء الجند والناس على العمل في الثغور ، شحن المنطقة بالمرابطين واسكن ملطيه اربعة الاف مقاتل من اهل الجزيرة . وزاد العطاء لكل مقاتل عشرة دنانير اضافية كما خصص معونة قدرها مائة دينار لكل واحد منهم واقطع الاراضي للمقاتلة كي يزرعونها في اوقات السلم [3] كما بنى حصن قلوذيه وشحن المنطقة بالسلاح . وولى عبد الوهاب بن ابراهيم الامام على الجزيرة والثغور ويرى الدكتور حسن محمود ان المنصور اول من جعل لمنطقة الجزيرة كياناً ادارياً مستقلاً [4] كما ان المنصور بنى قاليقلا وعمّرها في عام ١٣٩ هـ وشحنها بالجند لحمايتها [5] وعمرت المصيصه في نفس العام وسميت المعمورة [6] ، وفرض فيها لالف رجل . كما بنى صالح بن علي العباسي - بأمر المنصور - مرعش وحصنها [7] وشحنها بالمقاتله .واهتم بتحصين أذنه عام ١٤١ هـ وعسكر بها مقاتلة من اهل خراسان والشام .

ويتضح من نصوص البلاذري ان المنصور حدد اسلوب القتال وتقاليده وقد نظمت في عهده الصوائف والشواتي . أورد الطبري في احداث عام ١٣٩ هـ ان المنصور أغزا عمه صالح بن على الصائفة من درب الحدث وخرجت معه اختاه أم عيسى ولبابه ابنتا علي اللتين كانتا قد نذرتا ان تجاهدا في سبيل الله ان زال ملك بني اميه [8] . كما غزا المنصور الاراضي البيزنطية في صيف ١٤٦ هـ ونقرأ في المصادر عن

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٣ .
(٢) خليفة بن خياط : تاريخ ابن خياط ص ٤١٨ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٣ .
(٤) حسن محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٥٦ .
(٥) ابن الاثير : الكامل جـ ٤ ص ٣٦٠ .
(٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٣٦٥ .
(٧) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٥ .
(٨) الطبري : تاريخ الامم والملوك جـ ٩ ص ١٧١ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٤ ص ٣٥٩ .

الصوائف في سنوات ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ هـ.

وتابع المهدي نفس السياسة التي اتبعها سلفه المنصور من بناء الحصون وحشدها بالجند [١] . وهذه السياسة إن دلت على شيء فانما تدل على ان العباسيين لم يضعوا في اعتبارهم الفتح وضم الاراضي . فتحصين العواصم يعني تثبيت الحدود القائمة والمحافظة عليها ، حتى الجيش العباسي نفسه كان يقوم بمهمة بناء الحصون لتحصين منطقة الثغور وهذه مهمة جديدة تضاف الى مهام الجيش .

والواقع ان الفترة من خلافة المهدي وحتى قبيل خلافة الواثق شهدت جهاداً اسلامياً رائعاً ضد البيزنطيين وتعتبر هذه الفترة بحق انشط مراحل الصراع العباسي ضد البيزنطيين فمنذ خلافة الواثق سنرى ملامح جديدة لصورة العلاقات العباسية البيزنطية .

بدأ تصعيد العمليات الحربية مع بدء خلافة المهدي [٢] بعد ان بلغت الخلافة العباسية ذروة قوتها ، وسادها الاستقرار والامن الداخلي ، وبعد ان وطد المنصور دعائم الدولة بقضائه على معظم الاخطار والمشاكل التي كانت تهددها ، الى جانب انه ترك للمهدي اقتصاداً منتعشاً وخزانه مليئة ، كما ان المهدي رأى في جهاد البيزنطيين تأكيداً على الصبغة الدينية للخلافة العباسية ، وربما رأى في ارسال البعوث ضد البيزنطيين اظهاره كمهدي منتظر لهذه الامة ببعثه روح الجهاد ونجد الطبري وغيره من مؤرخي الحوليات يكررون كلمة « غزا » أو « اغزى » في اغلب سني حكم المهدي في حين انهم في حديثهم عن ايام المنصور كانوا يكررون عبارات مثل « لم يكن غزو» أو «لم يكن للمسلمين صائفه »أو « لم يُدْربوا »ويتحدث الدكتور حسن محمود عن المهدي قائلاً : « كان احساسه بالمشكلة البيزنطية لم يقل عن احساس معاوية او عبد الملك بن مروان فتصدى للامبراطور البيزنطي ليو الرابع والحملات التي قام بها على منطقة الثغور [٣] . فغزا بنفسه بالناس[٤] في عام ١٥٩هـ

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٣٩٦ ، خليفة بن خياط : تاريخ ابن خياط ص ٤٣٩ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٣٩٦ ، الطبري : تاريخ الامم والملوك حـ ٩ ص ٣٢٦ وما بعدها ، ابي الفدا : المختصر حـ ٢ ص ٨ وما بعدها .

(٣) حسن محمود : العالم الاسلامي ، ص ١٥٨ .

(٤) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٤٠٢ ، الطبري : تاريخ الامم والملوك : حـ ٩ ص ٣٢٦ .

ووصل البردان وعسكر به ، ثم ما كان من حملات ١٦٣ ، ١٦٥ وبلوغ ابنه هارون مشارف القسطنطينية وما حقق من نصر استحق به اسم « الرشيد » ورغم ذلك فان المهدي سار على نفس السياسة التي وضعها المنصور من بناء الحصون [١] . وحشد منطقة الثغور بالجند ، فبنى الثغر المعروف بالحدث (المهدية) ويعبر اليعقوبي عن اهمية ذلك الثغر قائلاً : « عظم ارتفاق اهل الثغور به » .

وتستمر فترة النشاط الحربي في خلافة الرشيد الذي يردد المؤرخون عنه انه كان يغزو سنة ويحج سنه . فاجتاحت جيوشه الاراضي البيزنطية مما دفع ايرين الوصية على ابنها قنسطنتين السادس[٢] الى الاستمرار في دفع الجزيه ، وما أن اعتلى نقفور الاول عرش الامبراطورية حتى نقض الصلح فكانت حمله هرقله[٣] الشهيرة بقيادة الرشيد وما حققته من نصر مؤزر . ورغم تلك الانتصارات الباهرة نجد الرشيد يسير على نفس المنهج والسياسة التي سار عليها كل من المنصور والمهدي من قبل وهي الاستمرار في تحصين منطقة الثغور . امر الرشيد ببناء الحدث بعدما تعرضت له من تخريب البيزنطيين ، وكذلك امر ببناء زبطره [٤] ، كما عمّر طرسوس على يدي أبي سليم فرج الخادم[٥] . وبنى كلا من عين زربه ، والهارونية[٦] . كما أقام منطقة جديدة أسماها منطقة العواصم ، أورد ذلك الطبري قائلاً :«عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسميت العواصم »[٧] . خلاصة ذلك ان الرشيد يثبت بنفسه الحدود القائمة بمعنى ان سياسته مع البيزنطيين قامت على الدفاع عن الحدود وتحصينها والانتقام لكل عدوان يقع عليها فحملاته بذلك كانت حملات وقائية ورغم كثرة غزواته وانتصاراته [٨] ، ورغم قوة جيشه

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٦ ، اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٩٦ .
(٢) عاشور : اوروبا في العصور الوسطى جـ ١ ص ١٣٦ ، عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٢١ .
(٣) الدينوري : الاخبار الطوال ص ٣٩١ ، ابن العمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء ص ٩٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٩٤ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .
(٥) الطبري : الامم والملوك جـ ١٠ ص ٥٠ .
(٦) حسن محمود : العالم الاسلامي ص ١٦٠ .
(٧) الطبري : الامم والملوك جـ ١٠ ص ٥٠ ، في احداث سنه ١٧٠ .
(٨) وصل هارون بجيوشه الى مشارف القسطنطينية وهذه اول مرة يصل فيها المسلمون الى القسطنطينية ، بعد حصار مسلمة بن عبد الملك في خلافة سليمان بن عبد الملك .

المائلة عدداً وعدة حسب وصف الطبري [1] . ورغم مساعيه الدبلوماسية بتقاربه من الامبراطور شارلمان عدو البيزنطيين ورغم وجود قوة بحرية وان لم تكن على نفس مستوى القوات البرية ، رغم كل ذلك لم يحدث اي تغيير يذكر على خط الحدود فلم تتسع ، اذ لم يكن الفتح وضم اراضي جديدة من سياسته ، فهو يصل القسطنطينية أو هرقله ثم يعود مكتفياً باخذ الجزية منهم في وقت يعلم فيه مدى ما يحيط البيزنطيين من اخطار ومشاكل [2] . فالصراع اللأيقوني قائم الى جانب خطر البلغار ، ومع ذلك لم يحاول استغلال تلك الفرصة باقتطاع جزء من الاراضي البيزنطية وضمه للدولة الاسلامية .

وفي خلافة المأمون يعود النشاط الحربي من جديد بعد توقفه زمن الامين نظراً لظروف الخلافة الداخلية . ونرى تطوراً جديداً في الصراع العباسي البيزنطي زمن المأمون ، فهو يستغل ظروف الامبراطورية الداخلية بمساعداته التي يقدمها لتوماس الصقلبي الثائر الذي عمل على خلع الامبراطور فحالفه المأمون على ان يمده بقوات تساعده على فتح القسطنطينيه .

وكذلك ميخائيل الثاني لعب نفس الدور فقام بتشجيع بابك الخرمي وتعاون معه ضد الخليفة المأمون اي ان كلا منهما يحاول تقويض ملك الاخر باثارة المشاكل الداخلية وتشجيع الثوار .

كان المأمون يقود بنفسه حملات الصوائف مثل ما حدث عام ٢١٥ هـ حيث يقول الدينوري : « غزا الروم وفتح فتوحاً كثيرة وابلى بلاء حسناً » [3] ويكفي ان المأمون مات قرب طرسوس سنة ٢١٨ ، وكان على رأس حملة على الدولة البيزنطية . الا أن المأمون كذلك سار على سياسة اسلافه في الاهتمام بمنطقة الثغور وشحنها بالمقاتلة وبناء الحصون [4] فقد امر المأمون ابنه العباس ببناء حصن الطوانه [5] وفرض لها من اجناد الشام اربعة الاف رجل .

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك حـ ١٠ ص ٩٨ .
(٢) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٢٢ وما بعدها .
(٣) احمد بن طاهر الكاتب : بغداد ص ١٤٣ وما بعدها ، الدينوري : الاخبار الطوال ص ٤٠١ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٨ ، ابن العمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء ص ١٠٢ .
(٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حـ ٥ ص ٢٣١ .

أما المعتصم فبعد قضائه على بابك ارهب جبهة الروم . سأل المعتصم أي بلاد الروم امنع ؟ فقيل له عموريه فتوجه اليها واوقع بها ضربة قاصمة أسهب المؤرخون [1] في وصفها ، حتى اضطر ثيوفيل الى الاستنجاد بملوك اوروبا فطلب العون من صاحب البندقية ، وملك الفرنجة بل طلب العون من الامويين بالاندلس ، ولم يرجع المعتصم الا بسبب الاضطرابات التي وقعت في صفوف جيشه ، ومحاولات التآمر ضده ، وقد ساهم المعتصم في سياسة العباسيين التقليدية من تحصين الحدود فأمر ببناء زبطرة وحصنها وشحنها ، فرامها الروم بعد ذلك فلم يقدروا عليها [2] .

هكذا نجد الفترة من خلافة المهدي الى المعتصم أنشط فترات الصراع العباسي البيزنطي ، حفلت حوليات المؤرخين باحداثها الحربية البطولية ، وما احرزه فيها المسلمون من انتصارات على البيزنطيين وان لم يكن لها تأثير كبير على الكيان البيزنطي [3] . الا انها مرحلة المجد العسكري ، مرحلة الجيوش العباسية الجرارة والخلفاء القادة فلن تطالعنا صورة الخلفاء يقودون الجيوش متوغلين في الاراضي البيزنطية بعد ذلك وحتى سقوط دولة بني العباس . فالمرحلة من خلافة المهدي الى آخر خلافة المعتصم كان النشاط الحربي ضد البيزنطيين فيها يكاد يكون متصلاً حتى هابهم ملوك العالم .

---

(1) الطبري حـ ١٠ ص ٣٣٥ وما بعدها . المسعودي: التنبيه والاشراف ص ٣٢٢ ، ابن الاثير : الكامل حـ ٥ ص ٢٤٧ وما بعدها ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ ، ابن طباطبا : الفخري ص ٢٢٩ .

(2) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٨ .

(3) ستظل القسطنطينية قائمة وان تعرضت لخطر سلاجقه الروم مما سيدفع الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين الى الاستنجاد بالبابا اوربان الثاني ، الذي يدعو لحرب مقدسه ضد المسلمين في مجمع كليرمونت فتكون الحروب الصليبية ولن تسقط القسطنطينيه الا عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م على يد العثمانيين .

خلافة الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ [1] / ٨٤٢ - ٨٤٧ م)
السلم في العلاقات العباسية البيزنطية

تولى الواثق بالله الخلافة يوم وفاة ابيه المعتصم في اليوم الثامن عشر من ربيع الاول عام ٢٢٧ هـ ، ومنذ بداية خلافة الواثق لم نجد في مصادرنا القديمة ما يفيد استمرار العمليات الحربية بين المسلمين والبيزنطيين . بل ان منطقة الثغور والعواصم شهدت مرحلة من السلام تعايش خلالها الناس في شيء من الهدوء فحوليات المؤرخين التي أسهبت في وصف حلقات الصراع الدامي في عهود الخلفاء السابقين وامجاد انتصاراتهم ، نجدها في عهد الواثق تخلو تماماً من سرد او من وصف تلك المعارك [2] .

لم يكن للواثق اي دور عسكري على الحدود البيزنطية ولم يشن حملات ولم يتوغل في اراضي البيزنطيين، الذين توقفوا هم ايضاً عن شن حملاتهم التخريبية الهجومية على الثغور الاسلامية . فقد شهدت هذه الفترة تغيراً جذرياً واضحاً في العلاقات العباسية البيزنطية . بل هي مرحلة تحول خطير في المشكلة البيزنطية اذ توقف ذلك الصراع العسكري الحاد بين الطرفين والذي اشتد وحمي وطيسه منذ خلافة المهدي الى آخر خلافة المعتصم .

اختفت تماماً كلمات « غزا » او « اغزى » من المصادر خلال سنوات خلافة الواثق فلم نجد اخباراً عن صوائف في تلك المرحلة . كل ما نعثر عليه في المصادر فيما يتعلق بالعلاقات بين المسلمين والبيزنطيين زمن الواثق هو أخبار الفداء [3] الذي

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ص ١٦ .

(٢) اليعقوبي ، الطبري ، المسعودي ، ابن الاثير .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ .

حدث في عام ٢٣١ هـ فقد استهل الطبري أخبار ذلك العام بالفداء قائلاً: «فمن ذلك ما كان من أمر الفداء الذي جرى على يد خاقان الخادم بين المسلمين والروم في المحرم منها فبلغت عدة المسلمين فيما قيل اربعة الاف وثلاثمائة واثنين وستين انساناً»[1] وقد ذكر خليفة بن خياط المتوفي حوالى ٢٤٠ هـ[2]، ان عدد من شملهم الفداء كان اكثر من ذلك بكثير فقال: «فدى من المسلمين نحوا من اربعة الاف رجل وستماية ونحوها من النساء والصبيان»[3] وهذا مما يضفي على ذلك الفداء اهمية كبيرة.

ويتناول ابن طباطبا ذلك الجانب من خلافة الواثق فيقول: «ولم يقع في ايامه من الفتوح الكبار والحوادث المشهورة ما يؤثر»[4].

ونتساءل الان لماذا ساد السلم وتوقف الصدام العسكري بين المسلمين والبيزنطيين في تلك المرحلة، لا بد وان لذلك اسباب وعوامل أدت اليه. والواقع ان ذلك السلم الذي تحقق في خلافة الواثق، انما جاء نتيجة للاحداث الداخلية في كلا المعسكرين الاسلامي والبيزنطي اي انعكاساً لتلك الاحداث التي جرت في كل من العاصمتين معاً. فالصراع على الحدود العباسية البيزنطية انما تأثر لحد بعيد بالاحداث الداخلية في كل منهما اي ان هناك عوامل تتعلق بالجانب الاسلامي وعوامل تتعلق بالجانب البيزنطي.

---

(١) الطبري: تاريخ الامم والملوك لحداث عام ٢٣١ هـ.

(٢) ذكر ابن خلكان وفاته سنة ٢٣٠ ولكن كتابه يغطي الاحداث حتى سنة ٢٣٦. وقد ذكر ابن عساكر وابن كثير انه توفي سنة ٢٤٠ هـ

(٣) تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٨٠.

(٤) ابن طباطبا: الفخري ص ٢٣٦.

الفصل الثاني

العوامل المتعلقة بالجانب الاسلامي
والتي أدت الى السلم

الفصل الثاني

العوامل المتعلقة بالجانب الاسلامي والتي ادت الى السلم

تميز العصر العباسي بعدة عوامل كان لها دورها الواضح في التأثير على الجهاد ضد البيزنطيين فالدولة الاسلامية كانت قد اتسعت اتساعاً عظيماً مما استلزم جهداً كبيراً لبسط سلطان الخلافة عليها والمحافظة على حدودها ، ويكفي ان العباسيين قد فقدوا الاندلس فلذا كانت تعوزهم قوة وطاقة اكثر للسيطرة على الحدود الحالية فكيف يمكنهم التوسع بضم اراضي جديدة ، مما اوجد اتجاهاً مفاده ان الحفاظ على ما بأيديهم من الاراضي خير من ضم اراضي جديدة .

كما أن الدولة الاسلامية في العصر العباسي اتجهت نحو الشرق الاسيوي [1] اكثر مما اتجهت نحو الغرب . والمعروف ان الدولة العباسية قامت على اكتاف المشارقة فقد استفاد العباسيون من انتشار الاسلام في الاراضي الفارسية ، واستطاع دعاتهم ان يجتذبوا جماهير المسلمين هناك للدعوة العباسية ومبادئها التي اعطتهم الامل في التخلص من مظالم العصر الاموي اذ تطلع الموالي للمساواة بالعرب . وقد انضم الى ابو مسلم اهل ستين قرية في يوم واحد [2] . يقول الدكتور حسن محمود : « قاد أبو مسلم أنصاره الجدد من الخراسانية والاتراك الغربيين في زحفه الكبير عبر ايران حتى سقطت الدولة الاموية » [3] .

ولا يمكن اغفال اثر نقل عاصمة الخلافة من دمشق الى بغداد او سامرا ، فدمشق قريبة من الاراضي البيزنطية بعكس بغداد وسامرا في العراق اللتين تبعدان عن القسطنطينية .

---

(١) حسن محمود : الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى ، ص ١٣١ - ١٣٧ .

(٢) الطبري : الامم والملوك احداث عام ١٢٩ هـ .

(٣) حسن محمود : الاسلام والحضارة العربية ص ١٣١ .

ويذكر الدكتور حسن ابراهيم [1] عاملين آخرين اولهما مناوأة اهالي بلاد الشام للعباسيين لانهم كانوا لا يزالون على ولائهم للامويين ، والعامل الثاني هو عدم اهتمام العباسيين بانشاء اسطول قوي في البحر المتوسط يضارع الاسطول الأموي ، واعتماد العباسيين على الجيوش البرية دون القوات البحرية . ويؤكد احد الباحثين المحدثين هذه الحقيقة قائلاً : « لم يكن للاسطول العباسي باع طويل في البحر المتوسط وقد شجع ضعفه الاسطول البيزنطي على مهاجمة المواني الاسلامية في الشام ومصر » ويستطرد قائلاً : « أما الاسطول العباسي فلم يكن ذا أثر وكل ما استطاع عمله هو مراقبة الاسطول البيزنطي والاغارة المفاجئة على شواطئه » [2] ومن المؤكد انه كان هناك شيء من النشاط البحري الاسلامي خاصة زمن الرشيد [3] ولكنه في الواقع لم يكن على المستوى المطلوب .

لم تحظ خلافة الواثق بشيء من اهتمام المؤرخين المحدثين فهم ينظرون اليه على انه عهد ركود واسترخاء ، ولا يجدون فيه ما يستحق ان تفرد له دراسة خاصة وكل ما كتب عنه الباحثون في العصر الحديث لا يعدو ان يكون اجزاء متناثرة ضمن موضوعات اخرى . حتى ان مؤلف « حماة الاسلام » [4] تناول بالدراسة المعتصم ثم المتوكل ، واسقط الواثق من بينهما فلم يعتبره ممن قام بدور هام في تاريخ الاسلام والدولة العباسية . ويرى الدكتور شاكر مصطفى أن الواثق نكرة من نكرات السياسة والادارة فيقول : « الواثق نكرة من نكرات السياسة والادارة كان حكمه فترة اهمال سياسي ، سمحت لتلك العناصر التركية الغريبة التي جمعها ابوه في الجيش ان تشعر بشأنها وتتدخل في سياسة الدولة » [5] .

ويبدو ان الحكم على الواثق بهذه الطريقة فيه شيء من الاجحاف ، فالواثق ورث تركة مثقلة بالمشاكل فقد كانت هناك تراكمات الماضي واتجاهاته التي تبلورت واتضحت في خلافته . قد يكون الواثق اسهم بقدر ما ، ولكن الحقيقة أن قوة

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي جـ ٢ ، ص ١٨٥ .

(٢) فاروق عمر : العباسيون الاوائل جـ ٢ ص ٢٥٢ .

(٣) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية جـ ١ ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٤) مصطفى نجيب : حماة الاسلام جـ ٢ .

(٥) شاكر مصطفى : دولة بني العباس جـ ٢ ص ٤١٨ .

الدولة العباسية كانت قد اخذت في الانحسار تدريجياً ، فكانت هناك تيارات تسير وفق اتجاهات معينة ، وسواء كان الواثق ام غيره فلم يكن من السهل ايقاف تلك التيارات تماماً . وعلى ذلك فلا يمكن ان نلقي على الواثق وحده مسئولية توقف الجهاد او الصدام العسكري بين المسلمين والبيزنطيين .

كما أن الحكم على الواثق بالله من خلال الزاوية السياسية او الجانب السياسي فقط فيه ايضاً شيء من الظلم فقد كان للواثق دور حضاري ثقافي اقتصادي يتحدث ابن طباطبا عن الواثق فيقول : « كان الواثق من أفاضل خلفائهم ، وكان فاضلاً لبيبا . فطناً فصيحاً شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته »[1] ويقول عنه الصولي[2] : « كان الواثق يسمى المأمون الاصغر لأدبه وفضله وكان المأمون يعظمه ويقدمه على ولده . وكان الواثق أعلم الناس بكل شيء »[3] والحقيقة ان هناك عوامل تتعلق بالمرحلة العباسية السابقة كانت نتائجها حتمية على مرحلة الواثق .

حينما سقطت الخلافة الاموية كانت الدولة الاسلامية من الناحية السياسية دولة عظمى تضم كافة العالم الاسلامي ، ولكن عند تولي الواثق الخلافة كانت هناك خلافة عباسية في سامرا ، وامارة اموية في الاندلس[4] . ودولة علوية ادريسيه في المغرب ١٧٢ - ٣٤٣ هـ . ودولة خوارجيه رستمية وكل ذلك كان خارجاً تماماً عن نفوذ بني العباس . علاوة على مناطق اخرى لها استقلالها الداخلي وان تبعت العباسيين تبعية اسمية فهناك الاغالبة في افريقية ١٨٤ - ٢٩٦ هـ[5] ، والدولة الطاهرية في خراسان[6] ٢٠٥ - ٢٨٦ هـ ، فسلطة سامرا المركزية لم تعد لها نفس القوة التي كانت لبغداد اوائل العصر العباسي بظهور اتجاه واضح نحو اللامركزية . فصورة الدولة الكبرى العظمى تلاشت وبهتت في القرن الثالث الهجري لتبرز وتتضح معالم صورة جديدة هي صورة الدويلات الاسلامية المتعددة التي تواصل

(١) ابن طباطبا : الفخري ص ٢٣٦ .
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٥٢٢ .
(٥) الطبري : الامم والملوك احداث سنة ١٨٤ هـ .
(٦) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٥٦ - ٤٥٧ ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

السير داخل الاطار الاسلامي .

ورغم أننا ننظر الى عصر الرشيد وما تميز به من مظاهر القوة السياسية والاقتصادية على أنه عصر ازدهار ، الا أنه في الواقع كان يحمل في طياته بذور التدهور الاداري والانقسام السياسي ، وانتشار التشيع في ايران وكيف استغله الفرس الذين شكلوا مصدر خطر على الخلافة العباسية وعلى النفوذ العربي منذ البداية حتى اضطر خلفاء العصر العباسي الاول الى نكبتهم والتنكيل بهم [1] . ويعبر احد الباحثين المحدثين عن ذلك قائلاً : « عز جانب الفرس في عهد العباسيين وقوي تأثيرهم وتسلطهم فبلغوا في ذلك غاية الغايات على عهد المأمون بخاصة . ولما رجحت كفة الفرس شالت كفة العرب » [2] . وفي التعبير عن تلك الحال اشتهرت قولة رجل من العامة تعرض للمأمون بالشام قائلاً له : « يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت الى عجم خراسان » [3] ولقد جاءت من جهة الفرس فتن كثيرة طوال العصر العباسي الاول فكان ذلك من عوامل اضعاف الدولة . ولا يتسع المجال لتناول تلك الحركات ولكن تكفينا الاشارة الى سبناذ والراوندية والمقنع الخراساني ، وحركات الشعوبية والزندقة ثم بابك الخرمي الذي اجهد الدولة اكثر من عشرين عاماً ، والمازيار بن قارن وما اكتشف من تآمر الافشين وما كان بينهم من تحالف [4] . والدور الذي قام به الفرس زمن المأمون ومحاولة نقل عاصمة الخلافة الى خراسان ، وربما كان ذلك رد فعل للسخط الذي عم خراسان بعد نكبة البرامكة .

دب النزاع بين ابناء البيت العباسي نفسه بسبب التنافس على الخلافة . وقد بدأ ذلك الصراع الحاد الدامي منذ اوائل العصر العباسي حين نشب الصراع بين المنصور وعمه عبد الله ابن علي العباسي وكيف ارسل المنصور له جيشاً بقيادة أبو مسلم الخراساني ، ثم موقف المهدي من ولي عهده عيسى بن موسى وكيف خلعه من ولاية العهد ليضمنها المهدي لابنه موسى الهادي ثم من بعده لابنه الثاني هارون

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ١ ص ٣٥ ـ ٣٧ .
(٢) حسين مجيب المصري : صلات بين العرب والفرس والترك ص ٢٨٧ .
(٣) شاكر مصطفى : دولة بني العباس جـ ١ ص ٦٠٨ .
(٤) مجهول : العيون والحدائق جـ ٣ ص ٥٠٢ ـ ٥٢٤ .

الرشيد [1] . ثم محاولة الهادي خلع الرشيد وما تلا ذلك من احداث . كذلك ما حدث بين الأمين والمأمون [2] . من صراع استمر نحو خمس سنوات وانتهى بمصرع الامين ومصرع النفوذ العربي كما أن تلك الحرب الاهلية تركت الدولة العباسية في حالة تنذر بتحول خطير نحو الانقسام والتمزق كما حدثت ثورات منشقه في سائر انحاء الدولة ، مثل ثورة ابي السرايا سنة ١٩٩ هـ وفي مكة دعا محمد الديباج لنفسه بالخلافة . وقامت ثورة في يكسوم شمال حلب بقيادة نصر بن شبث حمية للعرب وخرج ابراهيم بن موسى بن جعفر باليمن . ثم نجد اعمال الزط في طريق البصرة ثم ثورة في مصر بقيادة عبيد الله بن السري . ولا ننسى ما حدث بين المعتصم والعباس ابن المأمون والاضطرابات التي وقعت بعد كشف التآمر .

كل تلك الصراعات وما ترتب عليها من احداث جسام كان من عوامل اضعاف الدولة واستنفاذ طاقتها .

وقام العلويون بحركات [3] ثورية ضد الخلافة العباسية منذ سنواتها الاولى اذ تصور العلويون ان العباسيين خدعوهم واغتصبوا منهم الخلافة وتكررت تلك الحركات في عهود خلفاء العصر الاول ، واستغرقت تلك الحركات الشيء الكثير من جهد الدولة ووحدة جبهتها الداخلية وقد أورد الاصفهاني في كتابة «مقاتل الطالبين» تفاصيل ذلك حتى نجح العلويون في اقامة دولة الادارسة عام ١٧٢ هـ .

ثم هناك ايضاً حركات الخوارج وما قاموا به ضد العباسيين منذ عهد المنصور [4] فشغلوا الخلفاء وكانوا جزءاً من مشكلات الدولة مثل ما قاموا به في العراق من ثورات زمن الرشيد وعلى رأس تلك الحركات ثورة الوليد بن طريف الشاري الشيباني في نصيبين وارمينية والجزيرة وتصدى لهم يزيد بن مزيد الشيباني . من ذلك يتضح أن كل تلك المشاكل الداخلية اخذت جانباً كبيراً من جهود الدولة والخلفاء فاستغرقتهم ، وربما شغلتهم احياناً عن المشكلة البيزنطية ، كما أن تلك

---

(١) الشيخ محمد الخضري : تاريخ الامم الاسلامية (الدولة العباسية) ص ٩٥ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٤٣٦ ـ ٤٤١ ، الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٨٩ ـ ٣٠٤ ، الطبري : تاريخ الامم والملوك حـ ١٠ ص ١٣٠ وما بعدها .

(٣) احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية حـ ٣ ص ١٥٢ .

(٤) احمد شلبي : التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية حـ ٣ ص ١٩٣ .

المشاكل نالت من قوة الدولة ومن وحدة الجبهة الداخلية .

ويتضح ايضاً ان الجيش العباسي لم يكن جيشاً يدافع عن العقيدة الاسلامية وانتشارها والجهاد الديني بقدر ما كان حرساً خاصاً مهمته حماية الخلافة العباسية ذاتها وتأمين شخص الخليفة واهل بيته والنظام القائم . فالجهود التي بذلها الجيش العباسي زمن الرشيد للقضاء على الادارسه المنشقين على الخلافة كانت اكثر مما بذل في كفاح البيزنطيين .

هذا من جهة ومن جهة اخرى فان جيش الدولة الاسلامية اواخر العصر العباسي الاول كان قد اخذ في الضعف . ويبدو أن هناك صلة ما بين اتجاه خراسان نحو الانفصال على يد الطاهريين وبين اتجاه المأمون وتطلعه الى العناصر التركية في بلاد ما وراء النهر ، ثم اعتماد المعتصم على تلك العناصر كسياسة ثابتة أدت الى ضعف الجيش ، فهي نقطة تحول خطيرة في تاريخ الجيش في الدولة الاسلامية .

فبعد ان كان الجيش الاسلامي في بداية العصر العباسي الاول يعتمد على جند نظامي من العرب او الخراسانية قامت الدولة على اكتافهم منذ البداية ، يفهمون اهدافها ويرتبطون بها فكرياً ، اصبح الجيش بمقتضى ذلك التحول يعتمد على جند من المرتزقة والرقيق الذين لا يرتبطون بالدولة أي ارتباط فكري وكل ما يربطهم بها هو ما يعود عليهم من نفع مادي يؤكد ذلك اضطرار المعتصم الى نقلهم الى سامرا [1] . وشتان بين هذا الجيش اواخر العصر العباسي الاول وبين جيش الشام في العصر الاموي الذي استطاع ان يفرض سيادة الدولة واذا كان الجيش قد اخذ في الضعف فلا بد أن ينعكس ذلك على العلاقات الاسلامية البيزنطية في تلك المرحلة .

هكذا يتبين اثر تلك المشاكل على الدولة العباسية . والحق ان الواثق ورث تركة مثقلة بالمشاكل التي ستتضخم وتكثر في عهده حتى يتعذر عليه ان يتغاضى عنها وتطورت الاوضاع واتضح فتور - ان لم يكن فقدان - روح الجهاد ضد البيزنطيين لينتهي الامر بثبات مناطق الثغور ، وبقاء خط الحدود دون توسع .

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٣٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٣٣٦ .

اهم المشكلات التي استغرقت عهد الواثق وأثرت على العلاقات البيزنطية :

١ - ثورة القيسيه بدمشق عام ٢٢٧ هـ :

الواثق بالله - أبو جعفر وقيل أبو القاسم - بن المعتصم بن الرشيد . أمه أم ولد روميه تدعى قراطيس . تولى الخلافة بعهد من أبيه المعتصم [١] وتمت البيعة له في ربيع أول من عام ٢٢٧ هـ .

قبيل وفاة المعتصم خرج تميم اللخمي المعروف بابي حرب المبرقع اليماني وخالف على المعتصم [٢] لاسباب لا مجال لذكرها الان [٣] ، وكثر اتباعه بالاردن وعلى رأسهم اليمانية بزعامة ابن(بيهس)[٤] ووصلت تلك الانباء الى المعتصم في مرضه الذي مات فيه فأرسل اليه رجاء بن أيوب الحضاري في نحو الف رجل [٥] من الجند . وتهيب رجاء من قتال المبرقع لكثرة من معه من الزراع والحراثين ، فعسكر ينتظر بداية الموسم الزراعي وانصراف الناس عنه لبدء زراعاتهم واعمالهم ، وهنا جاءت الانباء بوفاة المعتصم وتولي الواثق .

حين مات المعتصم ثارت القيسية بدمشق بزعامة ابن بيهس الكلابي [٦] وعاثوا وافسدوا وحصروا اميرهم بدمشق . فسارع الواثق وأرسل اليهم رجاء بن ايوب الحضاري [٧] الذي كان في الرملة لقتال ابي حرب المبرقع اليماني [٨] ، فدعاهم الى الطاعة فلم يستجيبوا وكانوا معسكرين بمرج راهط فقاتلهم وهزمهم وقتل منهم نحو الف وخمسمائة واسر ابن بيهس وقضى على ثورة القيسية بدمشق ثم رجع رجاء بن ايوب الى قتال المبرقع حتى جاء به اسيراً ووضع هو وابن بيهس في المطبق [٩] .

---

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٣٠ .
(٢) ابن الاثير : الكامل حـ ٥ ص ٢٦٤ .
(٣) مجهول : العيون والحدائق حـ ٣ ص ٥٢٦ ، الطبري : تاريخ الامم والملوك لحداث عام ٢٢٧ هـ .
(٤) الطبري : الامم والملوك لحداث عام ٢٢٧ هـ .
(٥) المصدر السابق : ابن خلدون : العبر حـ ٣ ص ٢٧٠ .
(٦) تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٤٨٠ .
القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة جـ ٢ ص ٢٢٦ .
(٧) ابن الاثير : الكامل في التاريخ حـ ٥ ص ٢٦٧ ، ابي الفدا : المختصر حـ ٢ ص ٣٥ .
(٨) تاريخ ابن خلدون حـ ٣ ص ٢٧٠ .
(٩) الطبري : الامم والملوك ، لحداث عام ٢٢٧ هـ .

ثم توجه رجاء بعد ذلك الى برقه حيث كان قوم من البربر قد خلعوا الطاعة وقاموا بحركة ثورية انضم لهم فيها قوم من قريش من بنى أسد بن العيص ، ووثبوا بعاملهم محمد بن عبدويه بن جبله . فتفرقوا امام رجاء وعاد الهدوء الى برقه [1] .

ولا يمكن اغفال العلاقة بين تلك الحركات الثورية وبين ازدياد نفوذ الاتراك فقد انتشرت ثورات العرب بعد اسقاطهم من الديوان وحرمانهم من العطاء . هكذا انقضى العام الأول من خلافة الواثق في محاولة القضاء على تلك الحركات في كل من الشام وشمال افريقية ، فلم تكن الظروف مواتية لحرب خارجية .

٢ ـ ازدياد نفوذ الاتراك عام ٢٢٨ :

ودخل عام ٢٢٨ ولم تكن ظروفه أفضل من العام الذي سبقه واهم ما يطالعنا في هذا العام هو ازدياد نفوذ الاتراك الذين اصبحت لهم السيطرة المطلقة . يستهل الطبري احداث عام ٢٢٨ قائلاً : « فمن ذلك ما كان من الواثق الى أشناس ان توّجه وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان » [2] وهذا النص يوضح الدور الذي قام به الواثق في تدعيم النفوذ التركي . اعتاد المؤرخون المحدثون على وصم الواثق بالضعف الذي ادى الى تدعيم الكيان والنفوذ التركي وافساح المجال له ، ولعل ما قام به الواثق من تتويجه لاشناس وما جاء في نص الطبري يؤكد ذلك ولكن قضية الاتراك اعمق من ذلك بكثير .

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ على اكتاف الفرس واصطبغ العصر العباسي الاول (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ) بصبغه فارسية في مجالات السياسة والادارة والحضارة . واختلفت في ذلك عن الدولة الاموية (٤٠ ـ ١٣٢ هـ) والتي كانت عربية الطابع . فقد وقفت العناصر الفارسية في خراسان وراء الدعوة العباسية (١٠٠ ـ ١٣٢ هـ) وكانت من عوامل قيام خلافة بني العباس .

قال المسعودي : « وكانوا يسمون باب خراسان في بغداد باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان » وقال الجاحظ [3] عن الدولة العباسية « دولة بني العباس اعجمية خراسانية ودولة بني مروان عربية عرابية » .

---

(١) تاريخ اليعقوبي حـ ٢ ص ٤٨٠ .

(٢) تاريخ الامم والملوك : احداث عام ٢٢٨ هـ

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين حـ ص .

وكافأ العباسيون ـ فعلاً ـ العناصر الفارسية على ما كان منهم من تأييد ومناصرة للدعوة العباسية في فترة كفاحها ونضالها ضد الدولة الاموية . فقد أوصى الخليفة المنصور ابنه وولي عهده محمد المهدي فقال : « اوصيك بأهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم في دولتك ، ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن اليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في اهله وولده »[1] .

واشار فان فلوتن[2] الى السيادة الفارسية في الدولة العباسية وذكر ان العباسيين منذ قيام دولتهم والخراسانيون اشد الناس ولاء لهم وبين كيف رفع الموالي المضطهدون رؤ وسهم في العصر العباسي بعد ان اسندت اليهم المناصب الهامة في الدولة .

وشعر الفرس باهميتهم ومنزلتهم في الدولة مما أثار فيهم روح الشعوبية والعصبية الجنسية والاعتزاز القومي والتمسك بالحضارة والعقائد الفارسية القديمة وكانت عامة الفرس اكثر شعوبية وتعصبا من اشراف الفرس . ولكن قيام حركات الزنادقة اثر في هذا الانحياز الواضح للعناصر الفارسية ، فقد كان الفرس هم عدة وعمد حركات الزنادقة وكانت خراسان هي الارض الخصبة التي نبتت فيها افكار وتيارات الزندقة مما جعل الخلفاء العباسيين يعيدون النظر في سياستهم نحو كل من العناصر العربية والفارسية وعملوا على التوازن بين العصبيتين فاذا كان للفرس في العصر العباسي الاول نفوذ كبير فليس معنى هذا انعدام نفوذ العرب[3] .

وتحدث الدكتور الدوري عن سياسة المحافظة على التوازن بين العرب والفرس واكد ان الخلفاء العباسيين قامت سياستهم على التوازن فاذا كانت الخلافة في العرب فالوزارة في الموالي[4] الفرس .

وكان الصراع بين الاخوين الامين والمأمون هو في الحقيقة صراع بين العرب

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك حـ ٦ ص ٣١٩ .
(٢) السيادة العربية ص ٣٤ .
(٣) احمد امين : ضحى الاسلام حـ ١ ص ٣٥ ـ ٣٧ .
(٤) عبد العزيز الدوري : الجذور التاريخية للشعوبية ص ٣٨ ـ ٣٩ .

والفرس . فقد ناصر العرب الخليفة الامين لان امه زبيدة العربية ، بينما ناصر الفرس المأمون بن مراجل الفارسية [1] . ورجحت كفة الفرس الذين وقفوا خلف المأمون في صراعه ضد الامين ذلك الصراع الذي انتهى بمصرعه ومصرع الحزب العربي ، وعاش المأمون عدة سنوات في مرو بخراسان كالمحجور عليه ، بينما السلطة الحقيقية للوزير الفارسي الفضل بن سهل ، حتى ادرك المأمون خطورة هذه السياسة فعاد الى بغداد .

وكان المأمون اول من استخدم الاتراك في الجيش العباسي . ويروي الطبري ان الاتراك قد اشتركوا في الجيش الذي قاتل به اخاه الامين [2] . ورأى المأمون ان يكبح جماح العرب والفرس على السواء وقد وضحت آثار عدائهم خلال صراعه لاخيه الامين فرأى في استخدام الاتراك تخفيفاً لحدة النزاع العربي الفارسي . وكان المأمون قد خبر الاتراك وعرفهم خلال اقامته في خراسان فاستقدم منهم عدداً الحقهم بجيشه [3] .

ويرى الدكتور حسن محمود أن دخول الترك في الجيش العباسي اقدم من ذلك فقد ذكر ان الفضل بن يحيى البرمكي انشأ فرقة كبيرة في خراسان من الاتراك الغربيين بلغ عدد افرادها نحواً من خمسين الف مقاتل بعث منهم الى بغداد عشرين الف واطلق عليهم اسم الفرقة العباسية معتمداً في تلك الرواية على بارتولد [4] .

واحدث المعتصم انقلاباً سياسياً خطيراً في الدولة العباسية حين تحول عن السياسة العباسية التقليدية في الاعتماد على العناصر الفارسية الى الاعتماد على الاتراك ، وبدأ في عهده التوسع في الاعتماد على الاتراك ، بدأ المعتصم هذه السياسة في عهد اخيه المأمون فقد كان يبعث رسله الى سمرقند في كل سنة لشراء الاتراك حتى اجتمع له نحو ثلاثة الاف تركي استخدمهم في قتال الروم . وتوسع المعتصم في هذه السياسة بعد توليه الخلافة حتى صار معظم جنود جيشه من أهالي بلاد ما وراء

---

(1) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ١٣٤ - ١٦٥ .

(2) تاريخ الامم والملوك . حسن محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٧٨ .

(3) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٧٧ ، حسن محمود : الاسلام والحضارة العربية ص ١٣٨ .

(4) حسن محمود : الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى ص ١٣٧ وما بعدها .

النهر . من الصغد والفراغنة والاشروسنه والشاش . يقول عنه المسعودي : « آثر من استحدث من غلمانه الاتراك على المتقدمين من اوليائه ونصحاء آبائه »[1] .

علل المؤرخون سياسة المعتصم في الاعتماد على الاتراك بعدة اسباب منها ان أم المعتصم تركيه اسمها ماردة وكان في طباعه كثير من طباع هؤلاء الاتراك من القوة والشجاعة . كما أن كثيراً من الجند الفرس لما مات المأمون كان هواهم مع ابنه العباس[2] ونميل الى الاعتقاد بأن المعتصم انما اتخذ تلك السياسة التركية لعاملين اكثر اهمية وان كنا لا ننكر تأثير العوامل السابقة . أما العامل الاول فهو انتشار تعاليم الزندقة بين العناصر الفارسية وترويج الفرس للتعاليم المانويه والمزدكيه ومحاولتهم احياء الافكار المجوسيه البائدة وبعث الدولة الساسانيه القديمة ، ولذا نظر العباسيون الى الزنادقة الفرس على انهم اعداء سياسيون للدولة فضلاً عن عدائهم للعروبة والاسلام . أما العامل الثاني فهو اعتناق معظم الفرس لتعاليم الشيعة وتكرار محاولات تحويل الخلافة من البيت العباسي الى البيت العلوي . وشعر المعتصم بالملل من الصراع الشعوبي المستمر بين العرب والفرس فرأى الاعتماد على عنصر ثالث بعيد عن الزندقة والتشيع والشعوبية فاختار الاتراك . هكذا اصبح العباسيون بعد ان تركوا سياسة الاعتماد على العرب والفرس ، مضطرين الى الاعتماد على الترك .

ويرى الدكتور الدوري[3] ان سياسة المعتصم هذه انما كانت نتيجة اختلال التوازن بين العرب والفرس واستحالة التوفيق بينهما فالتجأ الى الاتراك وجعل منهم قوة عيسكرية يعتمد عليها .

وهكذا كان تمزق الجيش العباسي خلال الفتنة في بغداد وردود الفعل العربية لتسلط الفرس في بداية حكم المأمون علاوة على نشاط الدعوة العلوية بين العرب وتهديد الخلافة بالثورات وخاصة ثورة بابك الخرمي وما عرف عن الترك من شجاعة في القتال وراء تكوين جند جديد من الاتراك . وهذا الاتجاه بدأ به المأمون نفسه[4]

---

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٢٣ .

(٢) احمد امين : ظهر الاسلام جـ ١ ص ٤ .

(٣) عبد العزيز الدوري : العصر العباسي الاول ص ٢٣٠ .

(٤) الطبري : تاريخ الامم والملوك جـ ٧ ص ١١٤ . محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٤٧ .

وان كان على نطاق محدود ثم جاء المعتصم ليعتمد على الترك تماماً [١] فكان بذلك أول من اتاح لهم الفرصة ليستحوذوا على السلطة واسقط المعتصم العرب من الديوان [٢] واصبح الاعتماد على الاتراك سياسة ثابتة مستقرة . فهو اول خليفة ادخلهم الديوان . وبلغت غلمانه من الاتراك بضعة عشر الفاً . وقيل ان عدد الاتراك وصل في عهده الى اكثر من ٧٠,٠٠٠ (سبعين الف) جلبهم من سمرقند ، واشروسنه ، وفرغانة[٣] وتجمع المصادر على أن المعتصم أول من مكنهم من السيطرة في الدولة واعتمد عليهم تماماً في الشئون الحربية فلا يمكن إغفال دورهم في حروب المعتصم[٤] .

مضى المعتصم في سياسة الاعتماد على العناصر التركية فيقول المسعودي « وكان المعتصم يحب جمع الاتراك وشراءهم من ايدي مواليهم فاجتمع له منهم اربعة الاف ، البسهم انواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وابانهم بالزي عن سائر جنوده » [٥] وابرز الاتراك في عهد المعتصم اشناس الذي اشترك في قتال البيزنطيين [٦] . واتياخ الذي تولى مهام ادارية منوعة منها معونة سامرا [٧] . ثم ولاه حكم اليمن . وبغا الكبير الذي اشترك في قتال بابك الخرمي والزنادقة [٩] كما اشترك مع المعتصم في موقعة عمورية ، وازداد نفوذ تلك العناصر التركية في الدولة وطغى على العناصر العربية حتى اننا نرى الأفشين القائد الفارسي بعد انتصاره على بابك ، يتنكر لابي دلف القاسم بن عيسى العجلي القائد العربي فأرسل اليه من جاءه به ليقتله ودخل عليه احمد بن ابي دؤاد فرآه « مقيداً بالحديد بين يديه في نطع وهو يقرعه » واضطر احمد بن ابي دؤاد ان يدعي ان المعتصم ارسله لاستخلاص ابي دلف ولولا ذلك لقتله الافشين[١٠] ولم

---

(١) الخربوطلي : الاسلام والخلافة ص ١٤٠ .
(٢) خطط للقريزي : جـ ١ ص ٣١١ .
(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٣٦ .
(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ .
(٥) للسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٣ .
(٦) الطبري : تاريخ الامم والملوك جـ ٧ ص ٣٣٠ .
(٧) للصدر السابق : ص ٣٣٣ .
(٨) ابن كثير جـ ١٠ ص ٢٩٢ .
(٩) مجهول العيون والحدائق ج ٣ ص ٣٨٥ .
(١٠) البيهقي : تاريخ البيهقي ص ١٨٣ ـ ١٨٩ . التنوخي : الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٦٦ ـ ٧٥ .

تمر هذه السياسة دون معارضة فقد غضب القائد العربي عجيف بن عنبسة على تفضيل المعتصم للقادة الاتراك كاشناس والافشين في غزوة عمورية ، على القواد العرب حتى انه حاول ان يثير مشاعر العباس بن المأمون ضد عمه المعتصم ، ولكن العباس رأى ارجاء الامر حتى ينتهي القتال مع البيزنطيين [1] . ثم دبر عجيف بن عنبسه والعباس بن المأمون مؤامرة لاغتيال المعتصم والافشين واشناس ، واخفقت المؤامرة ولقي المتآمران حتفهما [2] . وزاد اعتماد المعتصم على الاتراك بعد مؤامرة عجيف بن عنبسة والعباس بن المأمون ، وترتب على ذلك ازدياد طموح الاتراك في الاستئثار بشئون الحكم في الدولة . وبدأ الافشين يرسل الهدايا وما يتجمع لديه من أموال الى أشروسنه (موطنه الاصلي) كما اخذ يتصل بذوي الطموح الراغبين في الخروج على الدولة وسلطانها ليخطط معهم .

وخان الافشين الامانة ، وتنكر للاسلام وللخليفة وللدولة مما جعل المعتصم يقبض عليه ويحاكمه ويسجنه [3] ويبطش به .

وادرك المعتصم خطورة سياسة الاعتماد على العناصر التركية ، وندم على سياسته ولكن لم يكن يستطيع التراجع عنها فقد اصبحت سياسة مقررة ، كما تكاثر عدد الاتراك وتغلغلوا في الجيش والحكومة . وعبر المعتصم عن ندمه لاسحاق بن ابراهيم فقال : « في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة . نظرت الى اخي المأمون وقد اصطنع أربعة انجبوا ،واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم . . .طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذي لم يرمثله ، وأنت فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك ابداً ، وأخوك محمد بن ابراهيم واين مثل محمد ؟ وانا فاصطنعت الافشين فقد رأيت الى ما صار أمره وأشناس ، ففشل آية ، وايتاخ فلا شيء ، ووصيف فلا مغنى فيه » ، فقال اسحق بن ابراهيم للمعتصم « نظر اخوك الى الاصول فاستعملها ، فانجبت فروعها ، واستعمل امير المؤمنين فروعاً ، فلم تنجب اذ لا اصول لها » فقال المعتصم : « يا اسحاق ، لمقاساة ما مر بي في طول هذه المدة أسهل عليّ من هذا الجواب » [4] .

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك جـ ٧ ص ٢٣٨ .

(٢) مسكويه : تجارب الامم .

(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٧٧ ، الطبري : الامم والملوك ، الدينوري : الاخبار الطوال ص ٤٠١ .

(٤) الطبري : الامم والملوك ، احداث عام ٢٢٧ هـ .

لقد استطاع الاتراك ان يكونوا اصحاب السلطان المطلق المستبد في فترة امتدت نحو قرن ، كما انه من المؤكد ان الظروف التي وجدوا فيها والصفات العنصرية التي اتصفوا بها مكنت لهم ووضعتهم في مكان الصدارة . وهذه الصفات العنصرية نفسها هي التي جعلتهم يوسعون شقة الخلاف الذي ظهر بين طوائفهم المختلفة حين ظهر بدلاً من ان يتعاونوا على رأب الصدع وجمع الكلمة (١) .

وبلغ من نفوذ هؤلاء الاتراك ان اخذ الخلفاء يقطعونهم الولايات الاسلامية على ان يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً معيناً من المال على نحو ما كان متبعاً في نظام الاقطاع تقريباً ، ذلك النظام الذي ذاع في اوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين (٢) .

وعلق المستشرق « ستانلي لينبول » (٣) على سياسة الدولة العباسية في الاعتماد على الاتراك فقال : ان هذا الانقلاب الى الحكم التركي كان مظهراً من مظاهر الثورة التي شعرت بها معظم ولايات الخلافة ، وأدت الى تدهور سلطة الخلافة ، ثم زوالها في النهاية .

موقف الواثق من الاتراك :

تولى الواثق بالله الخلافة (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ) في العاصمة التركية سامراء التي بناها ابوه المعتصم ورغم ان المعتصم كان قد بنى بها عدة قصور كانت مثالاً احتذاه المهندسون في بناء القصور في العالم الاسلامي ، مثل قصر الجوسق الذي كشفت عنه الحفائر الحديثة (٤) الا ان الواثق شيد لنفسه قصراً في سامرا على شاطىء دجله اطلق عليه « الهاروني » (٥) كان من احسن القصور . وكان الاتراك قد بلغوا ما وصفناه من نفوذ في الدولة ، ووصلوا الى اعلى مراتبها من الاندماج في سلك البلاط الى تقلد اكبر الولايات ، وثبتوا اقدامهم مما جعل الواثق يسير في نفس الخط السياسي الذي سار عليه أبوه ، فتكاثر عدد الاتراك وتولوا المناصب الرئيسية في الجيش

(١) محمد حلمي : الخلافة والدولة في العصر العباسي ص ٨٠ .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ .

(٣) Lane-Pool: S: Hist. of Egypt in the Middle Ages P. 29 .

(٤) حسن الباشا : مدخل الى الاثار الاسلامية ص ٨٧ .

(٥) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٣ ، حسن الباشا : مدخل الى الاثار الاسلامية ص ٨٩ .

والحكو ... مبح اشناس التركي صاحب السلطة الحقيقة ، وتلقب بلقب سلطان ، وخلع عليه الخليفة تاجاً مرصعاً بالجواهر (١) . ويتحدث السيوطي عن (٢) الواثق قائلاً : « وفي سنة ثمان وعشرين استخلف على السلطنة أشناس التركي ، والبسه وشاحين مجوهرين وتاجاً مجوهراً ، وأظن انه أول خليفة استخلف سلطاناً فان الترك انما كثروا في عهد أبيه » .

كما افتتح الطبري احداث عام ثمان وعشرين ومائتين بذكر ذلك الخبر فذكر ان الواثق توج اشناس وألبسه وشاحين بالجوهر في شهر رمضان (٣) وتولى اشناس اعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب ، فولى عليها ولاة وظل مقيماً في العاصمة سامرا .

وكذلك تولى ايتاخ الحجابة ثم ادارة خراسان والسند وكور دجلة (٤) وكانت السند قد اضطربت وقتل عمران بن موسى بن يحيى بن خالد عامل السند ، فوجه ايتاخ الى السند عنبسه بن اسحاق الضبي ، فقدم البلد وقد تغلب عليه عدة ملوك ، فلما قدمها عنبسه سمعوا واطاعوا (٥) .

وبرز ايضاً وصيف التركي واصبح من كبار قواد الخليفة الواثق ، وقاتل الاكراد الثائرين في اصبهان والجبال ، واجيز وصيف بخمسة وسبعين ألف دينار وقلد سيفا وكسي (٦) .

وتذمر العرب من وضع الترك فكانت ثورتهم في الحجاز والشام ولكنها فشلت وأذل بغا الكبير القائد التركي ، الاسرى العرب فضربهم بالسياط وقيدهم بالاغلال (٧) .

واشتهر الاتراك بالصفات العسكرية وقد كتب الجاحظ رسالة في مدحهم فوصفهم بأنهم اشجع من الخوارج لأن الخصال التي فضل بها الخارجي على جميع

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٦٩ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٩٩ .
(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٠ .
(٣) تاريخ الامم والملوك .
(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٧٩ .
(٥) المصدر السابق ص ٤٧٩ - ٤٨٠ .
(٦) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام واحد وثلاثين ومائتين .
(٧) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٦ ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٨ .

المقاتلة غير تامة في الخارجي وتامة في التركي ، والتركي يرى مدبراً ومقبلا وجلوسه على ظهر دابته اكثر من جلوسه على الأرض . والترك اعراب العجم . لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ولا الطب ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصبر وركوب الخيل ومقارعة الابطال وتدويخ الولدان [1] .

اشتهر الاتراك بقوة البأس والجرأة والشجاعة والاقدام [2] وقال عنهم القاضي صاعد الاندلسي انهم من الامم التي لم تُعن بالعلوم ، كثيرة العدد فخمة الممالك وفضيلتهم التي برعوا فيها واحرزوا خصلتها معاناة الحروب فهم احذق الناس بالفروسية وابصرهم بالطعن والضرب والرماية .

هكذا يتضح تماماً كيف زاد نفوذ الاتراك في عهد الواثق بالله وكيف صارت لهم السيطرة المطلقة في الدولة ، وان كانت المصادر القديمة قد اجمعت على ان المعتصم هو أول من مكن للترك في الدولة ، الا انه اعتمد عليهم في الامور العسكرية [3] وقصر فعاليتهم ونفوذهم عليها ، بينما نرى ان الواثق لم يقم بأي دور عسكري يذكر وان فترة خلافته كانت فترة سلم في العلاقات الاسلامية البيزنطية . بل اننا نرى تطوراً هاماً طرأ على مركز الاتراك في الدولة حين فتح الواثق بالله لهم الطريق الى جهاز الحكم بتعيين كبار القادة الترك في المناصب الادارية الكبرى . ففي وقت كانت الادارة يعوزها الرجال الاكفاء والتخطيط السليم الواعي ، يقسم الواثق بالله الدولة الاسلامية بين اثنين من الترك فقد ولى اشناس من بابه الى آخر عمل المغرب [4] كما ولى ايتاخ الجانب الشرقي من الدولة حين ولاه خراسان والسند وكور دجله [5] . هل أراد الواثق بذلك ابعاد اكبر زعماء الاتراك عن العاصمة ؟ وبالتالي ابعاد نفوذهم او دسائسهم عن مقر الحكم وعاصمة الدولة ليتمكن من بسط نفوذ الخلافة ؟ ربما أراد الواثق ذلك . ولكننا نرى هذين الزعيمين التركيين يحكمان قبضتهما على الخلافة وعاصمتها ولم يرغب واحد منهما في الابتعاد عن سامرا حتى يضمن الاستمرار في

---

(١) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية جـ ١ ص ٢٣١ .

(٢) الاصطخري : مسالك الممالك ص ١٢٧ .

(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٣٦ ، السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ .

(٤) تاريخ اليعقوبي : جـ ٢ ص ٤٧٩ .

(٥) المصدر السابق .

الاحتفاظ بالنفوذ والسيطرة . وحتى يظل قريباً من الاحداث يراقبها ويشارك في توجيهها وتحديد مسارها حسب مآربه الشخصية . وبدلاً من ان يذهب كل منهما الى ولايته ارسل من قبله عاملا ينوب عنه فأناب اشناس في غرب الدولة محمد بن ابراهيم ابن الاغلب واناب ايتاخ عنه في المشرق عنبسه بن اسحاق الضبي [1] فكانت سياسة جديدة استنّها من جاء بعدهم وكانت لها عواقبها الوخيمة على الدولة . فقد كان طبيعياً ان يستقل نواب الولاة بالولايات فيما بعد .

ولقي الواثق من الرأي العام استهجاناً واستهانة صورها الشاعر دعبل الخزاعي في هذين البيتين :

لقد ضاع امر الناس حيث يسوسهم وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركي عليه مهابة فأنت له ام وانت له أب

ويبدو أن الواثق كان يعتقد ان أية محاولة للحد من نفوذ الاتراك في الدولة مصيرها الى الفشل ، لذلك لم يقم بأية محاولة لابعادهم عن السلطة حتى انه لم يعهد بالخلافة الى احد ، وكان تولي المتوكل الخلافة في عام ٢٣٢ هـ قد تم على يد القادة الاتراك وباختيارهم [2] وان كانت سياسة المتوكل ازاء الاتراك ستأتي مغايرة تماماً لسياسة الواثق بالله .

ان الواثق الذي يصفه ابن طباطبا بأنه كان « لبيبا فطناً » والذي وصفه المؤرخون بانه كان ذا حظ وافر من الثقافة حتى سمي « المأمون الاصغر » والذي كان يعقد مجالس المناظرة في قصره [3] نرجح انه حين افسح المجال للترك في المناصب الادارية كان إما مجبراً على ذلك لا خيار له في الامر أو لعله تصور انه بذلك انما يبعدهم تدريجياً عن الامور العسكرية والحربية التي كانت مصدر قوتهم مما يضعف نفوذهم بعد ذلك في المستقبل تمهيداً للقضاء على نفوذهم وسيطرتهم . فزعماء الترك وقادتهم بتوليهم الشئون الادارية انما تنقطع صلتهم بالجند الترك وربما لو امتد الاجل بالواثق لاتضح هدف سياسته إن صح انهم اتخذوا القوة العسكرية وسيلة

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٧٩ .
(٢) مسكويه : تجارب الامم جـ ٦ ص ٥٣٦ .
(٣) للمسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٧ .

للسيطرة على الدولة .

وان كان المعتصم ذو القوة والشكيمة قد ضجر من الاتراك واشتكى منهم [1] وعبر عن ندمه على اصطناعهم والاعتماد عليهم رغم انهم كانوا يرهبونه ويخشون بأسه وكيف لا وهو الذي بطش بالافشين ، فلا شك ان الواثق الذي لم تكن سيطرته على الاتراك مثل سيطرة ابيه عليهم ، لا شك انه قد شعر بالسأم والملل نتيجة استبداد الاتراك بالسلطة مما كان له اثره على العلاقات الاسلامية البيزنطية فسيطرة الاتراك على الدولة وطغيان سلطانهم على الخلافة شغله عن الحرب . فبعد ان كان الاتراك في عصر المعتصم قوة عسكرية تعتمد عليها الدولة ، اصبح هؤلاء الاتراك في عصر الواثق قوة على الدولة لا قوة لها .

٣ ـ فساد الادارة ومصادرة الكتاب عام ٢٢٩ هـ

ودخل عام ٢٢٩ فهل كانت ظروفه تساعد الواثق على حرب البيزنطيين ؟ يفتتح الطبري حوادث عام تسع وعشرين ومائتين ، بخبر نكبة الكتاب في عهد الواثق قائلاً : « فمن ذلك ما كان من حبس الواثق بالله الكتاب والزامهم اموالاً » [2] وأجمعت المصادر القديمة [3] على ان الواثق قام بحبس الكتاب وضرب البعض منهم وصادر اموالهم .

واستطردت المصادر في ذكر السبب الذي دفع الواثق الى فعله هذا بالكتاب ان الواثق جلس في احدى الليالي في الرواق الاوسط من الهاروني [4] ومعه جلساؤه وسماره عامة الليل يتحدثون في عدة موضوعات حتى تطرق الحديث بهم الى الرشيد والبرامكة . فسألهم الواثق من منهم يعلم السبب الذي من اجله وثب الرشيد على البرامكة فنكبهم [5] وقضى عليهم فأجابه احد الجالسين موضحاً سبب غضب الرشيد على البرامكة وازالة نعمتهم بأن الرشيد اراد شراء جارية كانت راقت في نظره

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام سبع وعشرين ومائتين للهجرة .
(٢) المصدر السابق : حوادث عام ٢٢٩ هـ .
(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨١ . مسكويه . تجارب الامم ص ٥٢٧ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٦٩ ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ، ص ٣٠١ . تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧٠ .
(٤) الطبري : الامم والملوك حوادث عام تسع وعشرين ومائتين .
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ، ص ٣٠١ .

ولما سأل عن ثمنها اصر صاحبها عون الخياط على ان لا يقل عن مائة الف دينار . فوافق الرشيد على هذا الثمن لاعجابه بالجارية وأرسل الى يحيى بن خالد البرمكي يأمره ان يبعث اليه بهذا المبلغ لشراء الجارية . فأرسل يحيى بن خالد الذي استكثر هذا المبلغ الى الرشيد يخبره بانه لا يقدر على ذلك مما أثار غضب الرشيد عليه [1] . فأرسل اليه مرة ثانية بوجوب ارسال المبلغ المطلوب . ولما وجد يحيى بن خالد انه لا بد من ارسال المبلغ للرشيد لشراء الجارية رأى ان يرسله دراهم لعل الرشيد يراها فيستكثرها فيردها [2] . وفعلاً أرسل بالمبلغ كله دراهم ووضعت للرشيد في الرواق الذي يمر فيه اذا أراد الوضوء لصلاة الظهر . وكان ما أراد يحيى بن خالد فوقع بصر الرشيد على جبل من بدر ولما سأل عنه قيل له هذا ثمن الجارية فاستكثرها وامتنع من شراء الجارية . ولكنه على حد تعبير الطبري « اخذ في التفتيش عن المال فوجد البرامكة قد استهلكوه [3] فأقبل يهم بهم ويمسك » .

وكان من سماره رجل يدعى ابو العود ، واعجب الرشيد أدبه فأمر له بثلاثين الف درهم ، فلما ذهب ابو العود الى يحيى بن خالد ليسلمه المبلغ كما امر الرشيد ، ماطل يحيى بن خالد مدعياً عدم توافر المال وأرجأه الى حين توافر المال ، وطالت الايام واخذ ابو العود يتحين الفرص ليحرّض الرشيد على البرامكة حتى واتته الفرصة فردد على سمع الرشيد قول عمر بن ابي ربيعة [4] .

وعدت هند وما كانت تعد ليت هندا أنجزتنا ما تعد
واستبدت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

وفطن الرشيد الى المغزى ووعاه وقال « اجل والله انما العاجز من لا يستبد » [5] وجد الرشيد في امرهم حتى قتل جعفر بن يحيى وصنع ما صنع .

فلما سمع الواثق تلك القصة قال صدق والله جدي انما العاجز من لا .

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك حوادث عام ٢٢٩ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ، ص ٢٠١ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٦٩ .
(٥) الطبري : الامم والملوك حوادث عام تسع وعشرين ومائتين .

واخذ في ذكر الخيانة وما يستحق اهلها . قال عزون ـ الذي كان يروي للواثق قصة الرشيد ـ أحسبه سيوقع بالكتاب فلم ينقضي اسبوع حتى اوقع بكتابه[1] .

تلك هي خلاصة القصة التي اوردها الطبري باسهاب وتناولتها بعض المصادر الاخرى. والقصة ذات مغزى ومعنى عميق وان كان الرشيد والبرامكة ليست في موضوعنا الا انه من الضروري الاشارة الى نقطة هامة وهي ان القضية ليست قضية الجارية اطلاقاً فلا يمكن لاي عقل ان يتصور ان الرشيد نكب البرامكة بسبب شراء جارية أياً كانت ، فنكبة البرامكة لها اسبابها الكثيرة والعميقة . ولكن من هذه القصة نلمس سبباً واحداً منها وهو الجانب الاقتصادي يعبر ابن الاثير عن ذلك قائلاً : « واخذ في التفتيش عن الاموال فوجد البرامكة قد فرطوا فيها »[2] ويعبر مسكويه عن ذلك بقوله : « فوجد البرامكة قد اتلفوا كل ما في بيوت امواله »[3] . ويقول الطبري : « اخذ في التفتيش عن المال فوجد البرامكة قد استهلكوه »[4] بينما يقول ابن كثير « شرع في تتبع اموال بيت المال فاذا البرامكة قد استهلكوها »[5] ويزيد ابن خلدون الموقف ايضاحاً بقوله : « استبدادهم على الرشيد واحتجابهم الاموال »[6] أي ان الرشيد حين نكب البرامكة كان من وراء ذلك اسباباً اقتصادية تنطوي على استهلاكهم للاموال واستنفادهم اياها او تفريطهم فيها مع استبدادهم على الرشيد واحتجابهم للاموال . فهنا خيانة تنطوي على نقطتين استهلاك واستنفاذ الأموال ثم الاستبداد بالامر دون الخليفة وهذا هو لب الموضوع .

ولا يمكن ان نصدق ان الواثق نكب الكتاب وحبسهم وضربهم وصادر اموالهم بعد ان سمع من احد سماره قصة جده الرشيد السابقة الذكر ما لم تكن هناك أسباب اقتصادية كبيرة دفعته الى ذلك ،اسباب كان يعرفها وصورة عن الاوضاع يدركها وعلى يقين منها . ثم كيف يتنبأ عزون حسب رواية الطبري ويتصور ان الواثق سوف يوقع بالكتاب فلا يمض على هذا التنبوء اسبوع حتى تتحقق النبوءة ويوقع الواثق بالكتاب

---

(١) المصدر السابق .
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ، ص ٢٦٩ .
(٣) مسكويه تجارب الامم ص ٥٢٨ .
(٤) الطبري : الامم والملوك حوادث عام تسع وعشرين ومائتين .
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ، ص ٣٠١ .
(٦) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧٠ .

فعلاً ؟ ثم لم كان تنبؤ عزون وتصوره عن الايقاع بالكتاب بالذات ؟ لِمَ لم تكن فئة أخرى ؟

من الواضح انه كانت شبهات تحوم حول الكتاب على الاقل جعلت عزون هذا يتصور ويتنبأ بنكبة الكتاب قبل وقوعها . ثم لم سأل الواثق سماره عن سبب نكبة جده الرشيد للبرامكة ؟ لم كان هذا السؤال بالذات ؟ الا يعني هذا ان الواثق كان يعمل فكره في تلك القضية ويشعر بفساد الادارة من حوله وسوء سمعتها بالرشوة ؟ .

من الواضح ان الواثق كان يدرك تماماً ان هناك اخطاء وقع فيها الكتاب وبعض العاملين في الجهاز الاداري - وان موقفهم ينطوي على خيانة للدولة وللخلافة ، كما يبدو أنه كان يراهم مستغلين لمناصبهم يقتطعون من اموال الدولة مستهلكين مستنفذين لها لمصالحهم الشخصية على حساب مصالح الرعية والامة ككل . يتضح هذا المعنى من قول الواثق : « صدق والله جدي انما العاجز من لا يستبد واخذ في ذكر الخيانة وما يستحق أهلها »[1] .

ويبدو ايضاً ان الواثق رأى في الكتاب وكبار رجال ادارته انهم يستبدون بامور الدولة دون الخلافة اي انهم يتخطون اختصاصاتهم وهذا مما يشكل فساداً في الجهاز الاداري للدولة . ويتضح هذا من نص ابن خلدون « حتى اخبروه عن شأن البرامكة واستبدادهم على الرشيد »[2] فالمعروف ان الاتراك كانوا قد تسللوا الى المناصب القيادية واستأثروا بالولايات واصبح لهم السلطان الحقيقي على البلاد على حساب سلطان الخليفة .

ولا شك ان الجهاز الاداري في الدولة اواخر العصر العباسي الاول لم يكن له نفس القوة التي كانت له زمن الخلفاء الاول . اذ اصابه الخلل وفساد الادارة وجاء هذا الانحطاط نتيجة شراهة نفوس العمال والوزراء والسحت والرشوة والسرقات واخذ الاموال بغير حق ورفعت الى الواثق[3] أنباء ذلك مما كان سبباً في سخط الواثق على الكتاب .

---

(١) الطبري : الامم والملوك حوادث عام تسع وعشرين ومائتين ، ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٠ .
(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧٠ .
(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨١ .

ويصور الاستاذ كرد علي الاوضاع الادارية في تلك المرحلة قائلاً : للوزراء ومن يلونهم طرق ابليسية في السلب . والارجح ان اهم موارد الوزراء والولاة كان من نهب جباية الدولة او بيت مالها ومن الهدايا التي يضطرون صغار عمالهم الى تقديمها في كل فرصة ، ومن رشاوى يتناولونها ممن يحاولون أن يستخلموا في أعمال الدولة ، الى غير ذلك من وجوه انتهاب الأموال واعنات الناس . وكانت هذه الطبقة من الوزراء والكبراء تصوم وتصلي وتتعبد وتتصدق وتغار على الاسلام والدولة ، ثم تجوز الاحتيال لاخذ الاموال لان الابهة تقتضي التوسع في الانفاق [1] .

كما جاء هذا الانحطاط في الجهاز الاداري ايضاً نتيجة اهمال بعض كبار رجال الدواوين وانشغالهم باللهو وتوافه الامور وعدم تقديرهم للمسؤولية وتفويضهم امور الدولة لكتابهم مما اثار الواثق [2] . لشعوره بعدم قيام كبار رجال الادارة بدورهم على الوجه الاكمل ، وما يترتب على ذلك من انهيار الأوضاع وترديها . وبعد ان مضى العصر الذهبي الذي كان الخلفاء الاول يتخيرون فيه للوزارات والولايات والمناصب الكبرى اعلم الرجال وأفقههم اتى منذ عهد المعتصم الى تلك المناصب رجال لا يحسنون العربية . ويكفي وصف المعتصم نفسه لوزيره احمد بن عمار بن شاذى بقوله : « خليفة أميّ ووزير عامي » [3] .

فقد ورد على المعتصم كتاب من بعض عماله يذكر فيه خصب الناحية وكثرة الكلأ . فسأل المعتصم وزيره احمد بن عمار عن الكلاء فلم يعرف ، فدعا محمد بن عبد الملك الزيات وكان من خواصه وسأله عن الكلأ فاجابه . لذلك استوزر المعتصم ابن الزيات وصرف ابن عمار صرفاً جيلاً [4] . وعهد اليه ببعض الدواوين . وأول وزراء المعتصم ، الفضل بن مروان كان عامياً لا علم عنده ولا معرفة ويعتبر محمد بن عبد الملك الزيات آخر الوزراء الاكفاء .

ويعتبره الدكتور الدوري خاتمة تلك السلسلة الذهبية فلن نرى لهم مثيلاً في رجال الادارة في العصر العباسي الثاني مما ترتب عليه تدهور الجهاز الاداري وعلى

---

(١) كرد علي : الادارة الاسلامية ص ١٦٧ .

(٢) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨١ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الاعيان . كردعلي : الادارة الاسلامية ص ١٦٩ .

(٤) ابن طباطبا : الفخري ص ٢٣٣ .

رأسه نظام الوزارة وذلك منذ دخول الترك هذا المجال وسيطرتهم على ادارة الدولة . فهناك فرق شاسع بين رجالات الوزارة والادارة في اوائل العصر العباسي وبين رجال الادارة والوزارة في نهاية العصر العباسي الاول .

ولم تقتصر حركة المصادرات التي قام بها الواثق على الكتاب فقط بل شملت العاملين بسلك القضاء [1] فوجهت اليهم الاتهامات واجريت معهم التحقيقات العلنية وحبسوا واختص بالتحقيق معهم اسحاق بن ابراهيم [2] وتشدد معهم حتى لقوا كل جهد وعناء .

كما أمر الواثق ايضاً بعقوبة العمال والقائمين على امور الدواوين وضربهم وتعذيبهم حتى استخلص الاموال منهم وما ذلك الا ليقينه من خيانتهم [3] وتعديهم على مخصصات الدولة واستحواذهم على الاموال بغير حق ونراه استخدم كلمة « عقوبة » مما يؤكد ارتكابهم اخطاء .

لقد توسع الكتاب في نهب الرزق بكل سبيل زمن المعتصم والواثق وتكشف تلك الارقام الضخمة التي صادرها الواثق في سامراء عن مدى تفشي الفساد المالي في هذه الطبقة .

واتهم ايضاً في هذه الحركة سائر ولاة الشرطة [4] حبسوا وتمت معهم التحقيقات بعد أن اتهموا وافتضح امرهم بين الناس فضيحة بليغة وبلغت المعاملة معهم حد العسف ولقوا شراً عظيماً وجهداً جهيدا [5] .

ووقف مع الواثق في حركة المصادرات هذه وزيره ، محمد بن عبد الملك الزيات الذي عرف بالتجبر والذي كان وزير ابيه من قبل ولم يستوزر الواثق وزيراً غيره [6] . قام محمد بن عبد الملك الزيات بمساعدة الواثق ومعاونته في تلك الاجراءات . كما عاون الواثق ايضاً اسحاق بن ابراهيم [7] الذي جلس للتحقيقات

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام تسع وعشرين ومائتين .
(٢) المصدر السابق : مسكويه : تجارب الامم ص ٥٢٨ .
(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠١ .
(٤) ابن كثير : المرجع السابق .
(٥) المصدر السابق .
(٦) ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٣٦ .
(٧) الطبري : الامم والملوك حوادث عام تسع وعشرين ومائتين .

والنظر في الامر .

وكان هدف الواثق من تلك الحركة هو اصلاح الاوضاع الادارية ووضع الامور في نصابها الصحيح واقرار العدل واستتباب الامن ففي ذلك يقول الذهبي في كتابه دول الاسلام « حشم الامراء عن الظلم » وبلغ من حرص الواثق الشديد على تصحيح الاوضاع واهتمامه البالغ بالنهوض بالجهاز الاداري في الدولة انه كان يجلس بنفسه لحساب العاملين بالدواوين [١] .

واهتمام الواثق بامر الجهاز الاداري للدولة وانتباهه له ومحاولة اصلاحه نقطة تحسب له لا عليه ، فان كان هناك فساد في الجهاز الاداري فهو من تراكمات الماضي وليست وليدة عهد الواثق خاصة انه جاء بعد المعتصم الذي اسقط العرب من الديوان وبعد ان تخلى العباسيون تماماً عن الاعتماد على العرب والفرس والتجائهم الى الترك والمعارضة القوية التي قوبلت بها تلك السياسة في انحاء الدولة وما صحب ذلك من فوضى ، خاصة ان المعتصم كان عسكرياً بطبعه وميله وهواه . فانشغل في ما قام به من حروب وما حقق من انتصارات عسكرية عما سواها من الامور الداخلية فكان الاهمال الاداري . وجاء الواثق والجهاز الاداري في الدولة في حاجة الى الاهتمام والجهد عقب فترة ضعفت فيها الرقابة المركزية على النواحي المختلفة وقابل ذلك تزايد السلطات المطلقة للكتاب والعاملين في الجهاز الاداري وامر طبيعي ان يضطرب هذا الجهاز ويقوى ويضعف تبعاً لاحوال السلطة في المركز وكان الجهاز الاداري قوياً حتى زمن الرشيد ولكنه يضعف ويضطرب وتظهر الخيانة اواخر العصر العباسي الاول والحق يقال ان الفضل في تطهير الجهاز الاداري في الدولة يرجع الى الواثق وحتى لو كان الدور الاول في ذلك لمحمد بن عبد الملك الزيات ، علماً بأننا لم نجد بين المصادر القديمة ما يؤكد ذلك الا أن المسعودي اكد ان محمد بن عبد الملك الزيات غلب على الواثق [٢] وكان له عليه تأثير كبير ويبدو ان محمد بن عبد الملك الزيات كان داهية فقد أورد المسعودي وصف احد الاعراب لابن الزيات قائلاً : « وسع الداني شره ، ووصل الى البعيد ضره ، له في كل يوم صريع لا يُرى فيه اثر ناب ولا ظفر ولا مخلب » [٣] .

---

(١) كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب ص ١٧٠ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٦٦ .
(٣) المصدر السابق .

والواقع ان ابن الزيات نشأ في اسرة موسرة الحال فتأدب وقرأ وفهم وكان ذكياً فبرع في كل شيء حتى صار نادرة وقته فهماً وعلماً وعقلاً وذكاء كما اجاد في الشعر والادب والكتابة وآداب الرياسة وقواعد الملوك (١) .

وسواء كان محمد بن عبد الملك الزيات هو الذي حفز الواثق على حركة المصادرات ام انه تأثر في ذلك ببعض العلماء الذين كانوا يؤمون مجالسه (٢) وقد ذكر اليعقوبي انه رفعت الى الواثق (٣) انباء عن بعض الكتاب وان كان لم يحدد من الذي رفع اليه تلك الانباء . سواء هذا ام ذاك فان الجهاز الاداري في الدولة كان بحاجة الى وقفة للعمل على انضباطه ، وتناول الدكتور احمد شلبي (٤) نكبة الواثق للكتاب فقال : « نكب الكتاب ظناً منه او ايماناً منه بانهم يرتشون » .

ومصادرة الواثق للكتاب ورجال الادارة والزامهم الاموال ليست سابقة جديدة في الدولة العباسية . فقد سبقه المعتصم الى ما يشبه ذلك حين صادر اول وزرائه الفضل بن مروان ، وكان كاتبه قبل تولي الخلافة وارتفعت منزلة الفضل بن مروان لدى المعتصم وحاز على ثقته حتى حسده الناس على منزلته عند المعتصم . ولكنه كان جاهلاً بامور الوزارة تغلب عليه العامية سيء السيرة ويبدو أنه اغتر بما وصل اليه من حظوة لدى المعتصم مما جعله يطغى ويتجبر مما اضطر المعتصم الى نكبته ومصادرة امواله (٥) . كما بطش المعتصم بجماعة من اصحاب الفضل واستصفى أموالهم لسخطه عليهم (٦) . وكذلك صادر الرشيد علي بن عيسى والي خراسان الذي بلغت امواله ثمانين مليون درهم خلال عشر سنوات من الولاية بالعسف .

وكذلك المنصور صادر وزيره ابو ايوب لما سخط عليه كما قتل معه جماعة واستصفى اموالهم (٧) .

---

(١) ابن طباطبا : الفخري ص ٢٣٤ .
(٢) للسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٧ وما بعدها .
(٣) تاريخ اليعقوبي : جـ ٢ ص ٤٨١ ، التنوخي : الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٦٤ .
(٤) موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٣ ص ١٢٤ .
(٥) ابن طباطبا : الفخري ص ٢٣٢ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٥٨ .
(٦) تاريخ اليعقوبي : جـ ٢ ص ٤٧٢ .
(٧) تاريخ اليعقوبي : جـ ٢ ص ٣٨٩ ، ابن طباطبا : الفخري ص ١٧٦ .

لم تكن مصادرة الواثق بالله للكتاب آخر مصادرة في العصر العباسي فقد بدأ المتوكل عهده بمصادرة اموال وممتلكات وزيره محمد بن عبد الملك الزيات وفي ذلك يقول المسعودي : « وقد كان سخط المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات بعد خلافته باشهر ، فقبض امواله وجميع ما كان له »[1] وسوف تعم المصادرات بعد ذلك وتشمل سائر العاملين بالجهاز الاداري للدولة حتى الرعية ، واصبحت بتوالي الايام مصدراً من مصادر الدخل وتحصيل المال ، فالعامل يصادر الرعية ، والوزير يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ، واصبح غالبية الناس معرضين للمصادرة حتى انهم انشأوا ديواناً للمصادرة مثل سائر دواوين الحكومة ، فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة[2] . ويتطور الامر وتزداد المصادرات في الدولة العباسية فيما بعد حتى تصبح رائجة زمن المقتدر بالله لتبلغ قمة عنفها في فترة امرة الامراء[3] .

وقد تكون المصادرة احياناً وسيلة ارهاب وتخويف ثم يتم الصلح والتراضي بعد ذلك فيعفو الخليفة عمن وقعت عليه المصادرة ويطلقه من حبسه[4] .

وتكرار المصادرات في عهد الواثق ثم عهد المتوكل تجعلنا نتساءل هل يمكن ان تنهض تلك المصادرات الضخمة التي قام بها الواثق دليلاً على ازمة مالية أو بوادر لأزمة مالية مستقبله ؟ هل كانت تلك المصادرات وسيلة لتوفير مورد لبيت المال ؟ مما لا شك فيه ان قمة الرخاء الاقتصادي كانت في عهد الرشيد ثم بدأت في العد التنازلي بعد ذلك اذ لم تستمر قمة جباية الخراج من انحاء الدولة الى بغداد بعد الرشيد كثيراً بسبب عدة عوامل بدأت بفتنة الامين والمأمون والانفاق للتجهيز للحرب. ثم ما كان من نتائج هذه الحرب وما ابتليت به بغداد اثناء الحصار من هدم واخراب واحزاب وحرائق خاصة حرائق الدواوين ، ثم استقدام الجند الجديد من الترك وحروب المعتصم كلها فلم يكن المعتصم ينفق على شيء اكثر من الحرب[5] والنفقات الطارئة الباهظة كبناء سامراء وتحكم الجند وطلباته

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ، جـ ٤ ص ٨٨ .

(٢) كرد علي : الادارة الاسلامية ، ص ١٦٩ .

(٣) السامرائي : المؤسسات الادارية ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ١٣٥ تاريخ ابن خلدون : جـ ٣ ، ص ٢٧٠ .

(٥) الطبري : الامم والملوك حوادث سنة ٢٢٧ هـ .

من الارزاق والمخصصات التي لا تقف عند حد ، ثم الاقطاعات التي كانوا يطلبونها والتي لم تعد تقتصر على ارض الصوافي بل تعدتها احياناً الى ارض الخراج فاستتبع ذلك تقلص ملحوظ في موارد بيت المال .

وانعكست المشكلة الاقتصادية على الرعية فقد شغل الناس بشؤون معاشهم وتوفير نفقات اسرهم وابنائهم وبعد عهد الواثق ستصبح المصادرات وسيلة للحصول على المال بتسلط الدولة على كبار الافراد الذين يعرف عنهم الثراء . والى جانب ما في هذا العمل التعسفي من المجافاة للعدل ، فانه في ذاته دليل على الارتباك المالي ، الذي وقعت فيه الدولة [1] وقد أورد التنوخي في كتابه « الفرج بعد الشدة » جملة على لسان محمد بن عبد الملك الزيات في رده على ايتاخ متمسكاً بحبس الكتاب ومصادرتهم قائلاً : « اذا اطلقت هؤلاء فمن اين أنفق الاموال واقيم الانزال » [2] ، فكأنما اصبحت المصادرة مورداً من موارد بيت المال ، وهذا يدل على مدى تفشي الرشوة والاختلاس في الجهاز الاداري للدولة ، ووصوله للحد الذي لا يمكن التغاضي عنه ،والذي يفرض نكبة الكتاب ويتطلبها . وتكرار المصادرات بعد ذلك يوضح مدى ضرورتها في تلك المرحلة .

وكما دلت تلك المصادرات التي قام بها الواثق على الازمة المالية دلت كذلك على ان الدولة فقدت الثقة في عمالها وكتابها العاملين بالجهاز الاداري ولم تعد تأمنهم على اموالها نتيجة لما قاموا به من انتهاب فلم تجد امامها من سبيل الا تلك المصادرة . وهذا في حد ذاته دليل قاطع على فساد الادارة واضطراب الاحوال ، واضطرت الدولة الى ان تلجأ الى التعذيب والحبس حتى تسترد ما انتهب من اموالها بل اضطرتهم الاحوال الى تعذيب بعض الاهالي كنوع من الضغط على الكتاب ليسلموا الاموال فقد ذكر اليعقوبي ان التعذيب شمل احمد بن الخصيب واخيه وامهما [3] . لعلها هي التي كانت تخفي الاموال .

وقد صادر الواثق من احمد بن اسرائيل ثمانين الف دينار [4] ، ومن سليمان بن

---

(١) الريس : الخراج والنظم المالية ص ٤٥٩ .

(٢) التنوخي : الفرج بعد الشدة جـ ٢ ص ٦٤ النزل (بفتح النون والزاى) وجمعه انزال : الارزاق ، والاعطية .

(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨١ .

(٤) الطبري : الامم والملوك حوادث عام ٢٢٨ هـ .

وهب كاتب يتالخ اربعمائه الف دينار [1] ، ومن الحسن بن وهب اربعة عشر الف دينار [2] ومن احمد بن الخصيب وكتابه الف دينار [3] ، ومن ابراهيم بن رباح وكتابه مائة الف دينار [4] ، ومن نجاح ستين الف دينار [5] ، وكل هؤلاء ضربوا وعذبوا حتى سلموا الاموال . كما دفع ابو الوزير صلحاً مائة واربعين الف دينار . هذا سوى ما اخذ من العمال بسبب عمالاتهم [6] .

ونتساءل هل جاءت تلك المصادرات التي قام بها الواثق استيفاء عادلاً لما انتهب من اموال الدولة ؟ ام اقل أم اكثر ؟ هل استردت الدولة حقوقها المغتصبه ام ان المصادرين هم الذين تحملوا الظلم الواقع ؟ لا يوجد دليل قاطع باجابة شافية لتلك التساؤلات ولكنها كانت عملية تقريبية لم تجد الدولة امامها من سبيل غيرها لاسترداد ما سلبه الموظفون من اموال الدولة بغير حق .

أثر تلك المشكلة على العلاقات الاسلامية البيزنطية

وسواء كانت تلك المصادرات نتيجة خيانة العاملين بالجهاز الاداري في الدولة أو أنها جاءت لسد حاجات الدولة المالية ، فلا شك ان لتلك القضية تأثيرها الكبير على الحدود وعلى العلاقات الاسلامية البيزنطية . فاذا كان الخلل قد اصاب الجهاز الاداري في الدولة فسدت الادارة وساءت سمعتها بالرشوة وانتهاب الأمـوال ، فكيف تقدم الدولة وتتخذ قراراً بالحرب وهي على مثل تلك الحال في الداخل . واذا اقدمت على حرب فما هي فرصتها في تحقيق النصر ؟

هذا من جهة ومن جهة اخرى لو كانت تلك المصادرات التي قام بها الواثق جاءت تعبيراً عن العجز المالي ومحاولة لايجاد مصدر يمد بيت المال بما يحتاج اليه فان المشكلة تكون هنا اكبر واضخم فالحرب بحاجة الى المال واذا كانت الدولة في تلك المرحلة تعاني من الارتباك المالي فكيف يتسنى لها الاقدام على الحرب ومن اين لها

(١) الطبري : الامم والملوك .
(٢) الطبري : الامم والملوك .
(٣) الطبري : الامم تاريخ الامم والملوك حوادث عام ٢٢٩ هـ .
(٤) الطبري : الامم والملوك .
(٥) الطبري : الامم والملوك .
(٦) المصدر السابق .

توفير النفقات اللازمة لاعداد جيوش تحرز النصر . ففي ظل هذه الازمة المالية لم يكن لدى الواثق قدرة على حرب البيزنطيين واحراز النصر عليهم ، بل لم يكن لديه فراغ للتفكير في مشكلة الحدود . هكذا يتضح ان مشكلات الواثق بالله الداخلية كانت اكبر همه في تلك المرحلة وان موضوع الجهاد ضد البيزنطيين كان آخر همومه في عام ٢٢٩ هـ فكان عليه حل المشكلة المالية وتوفير المال اللازم . كما كان عليه ان يصلح الاوضاع الادارية ويطمئن الى سلامة الجهاز الحكومي قبل ان يفتح جبهة حرب على الحدود الاسلامية البيزنطية . وهذا هو المنطق السليم .

وخلاصة القول ان مصادرة الكتاب وما تنطوي عليه من ازمة مالية استغرقت عام ٢٢٩ هـ وكانت عقبة حالت بين الواثق وبين الجهاد ضد البيزنطيين ولم يكن بامكانه اكثر مما فعل اي انها كانت من اكبر العوامل التي اثرت على العلاقات الاسلامية البيزنطية في عهد الواثق . فلم يكن الواثق مقصراً ولا متراخياً ولكن كانت ظروفه اقوى منه فرضت عليه سلماً على الحدود البيزنطية .

٤ ـ ثورة الاعراب في الحجاز واليمامة سنة ٢٣٠ هـ

في جمادى الاخرة من عام ثلاثين ومائتين جاءت الانباء للواثق بأن بني سليم بزعامة عزيزة بن قطاب [1] عاثوا في الارض فساداً حول المدينة وخرجوا على السلطان وقاموا باعمال فوضوية فكانوا يهاجمون اسواق الحجاز ويأخذون منها ما شاؤ وا وبأي سعر أرادوا [2] حسب تقديرهم كيف شاؤ وا . ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تطاولوا وازدادوا فساداً فاغاروا على بعض بني كنانة وباهله [3] .

ويضيف اليعقوبي ذلك قائلاً : « وكانت بطون قيس قد عاثت في طريق الحجاز ، وقطعوا الطريق حتى تخلف الناس عن الحج ، ونصبوا رجلاً من سليم يقال له عزيزة الخفافي ، وسلموا عليه بالخلافة » [4] .

وكان عامل المدينة في ذلك الوقت هو محمد بن صالح بن العباس الهاشمي وكان عليه ان يوقف تلك الاعمال فهي في نطاق عمله ، لذلك ارسل اليهم حماد بن

(١) الطبري : الامم والملوك حوادث عام ثلاثين ومائتين .
(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٧٠ .
(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٠ .
(٤) تاريخ اليعقوبي : جـ ٢ ص ٤٨٠ .

جرير الطبري والذي كان مسلحة لاهل المدينة . فذهب حماد ومعه مائتي فارس وجنداً بعضها متطوعة من قريش ، والانصار ومواليهم وبعض أهل المدينة والتقى الفريقان في موضع يقال له « الرويثة » [1] يبعد عن المدينة بثلاث مراحل ، فقاتلهم حماد بمن معه واستمات الفريقان كل يريد الغلبة والنصر فكان قتالاً شديداً [2] واثناء القتال وصلت امدادات من البدو من موضع يسمى « أعلى الرويثه » ويبعد عن ميدان القتال بمسافة أربعة اميال مما ترتب عليه تغيير موازين القوى بين الطرفين فقد ازدادت قوات بني سليم عدداً عن قوات اهل المدينة الذين يقودهم حماد بن جرير الطبري وانتهى الامر بهزيمة أهل المدينة وثبت حماد ومن معه من قريش والانصار واستمر يقاتل حتى قتل كما قتل عامة اصحابه . وغنمت بنو سليم [3] كل ما كان في معسكر اهل المدينة . كما استشهد ايضاً عامل المدينة [4] وترتب على ذلك استفحال أمر بني سليم . يصف الطبري الموقف قائلاً : « وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب وغلظ امر بني سليم فاستباحت القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن احد أن يسلك ذلك الطريق وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب » [5] بينما يقول ابن الاثير « فطمعوا ونهبوا القرى والمناهل ما بين مكة والمدينة وانقطع الطريق » [6] .

لما وصلت تلك الانباء الى الخليفة الواثق بالله في سامرا ، كان عليه أن يرسل قائداً كبيراً يقود قوات الخلافة كي يقضي على حركة التمرد ويعيد الامور الى نصابها الصحيح وحتى يسود الامن ويستتب وتبسط الدولة سيادتها على اطرافها . ولما كان العنصر التركي هو الغالب في ذلك الوقت ، كان امراً طبيعياً ان تسند القيادة الى أحد القادة الاتراك .

أرسل الواثق بالله قائده بغا الكبير أبا موسى [7] ومعه الشاكرية والاتراك

---

(١) الطبري : الامم والملوك حوادث عام ثلاثين ومائتين .
(٢) المصدر السابق ، ابن الاثير ، الكامل جـ ٥ ص ٢٧٠ .
(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ، ص ٢٧٠ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .
(٤) مسكويه : تجارب الامم ص ٥٣٣ .
(٥) الطبري : الامم والملوك حوادث عام ثلاثين ومائتين .
(٦) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٧٠ .
(٧) الطبري : الامم والملوك حوادث عام ثلاثين ومائتين ومسكويه : تجارب الامم ص ٥٣٣ .

والمغاربة ، فوصل المدينة في شعبان من عام ٢٣٠ هـ [١] فاسرع الى حرة بني سليم اواخر شعبان يعاونه في قيادة العمليات الحربية طردوش التركي . فالتقى بغا بهم قرب مياه الحرة خلف السوراقية [٢] وكان بالسوارقية حصون كثيرة وكان يقود المتمردين عزيزة بن قطلب والأشهب . فقتل بغا منهم حوالي خمسين فارساً [٣] وأسر مثل ذلك [٤] وفر الباقون . ويقول اليعقوبي : « قتل منهم خلقاً عظيماً وصلبهم على الشجر » [٥]

وبعد انتهاء المعركة دعاهم بغا الى الخضوع والامان على شروط امير المؤمنين ودخل بغا السوراقية فاجتمعوا اليه متفرقين . فاستبقى عنده من اتصف بالشر والفساد وكانوا نحو الف رجل ، بينما اطلق الباقين . ثم غادر السوراقية متجهاً نحو المدينة بمن معه من الاسرى والمستأمنين في ذي القعدة فحبسهم في دار يزيد بن معاوية [٦] . ثم غادر المدينة متجهاً نحو مكة لتأدية مناسك الحج .

وبعد انتهاء مناسك الحج غادر بغا مكة نحو ذات عرق وأرسل الى بني هلال من يعرض عليهم ما عرضه على بني سليم فقبلوا ذلك فأخذ من المفسدين منهم نحواً من ثلاثمائه رجل وخلى سبيل الباقين ورجع الى المدينة حيث حبسهم ، مع من حبس من بني هلال في دار يزيد بن معاوية ، مقيدين بالاغلال [٧] وكانوا نحوا من الف وثلاثمائة . ثم سار ليتم مهمته التي جاء من اجلها وهي اخضاع الاعراب المتمردين فتوجه الى بني مرة وكان ذلك في المحرم من عام واحد وثلاثين ومائتين . وكانت بني مرة وبني فزارة قد تغلبت على فدك .

وبينما كان بغا غائباً لاخضاع بني مرة [٨] ، حاول الاسرى الذين حبسهم بغا في دار يزيد بن معاوية بالمدينة ، من بني سليم وبني هلال ان يفروا من حبسهم

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٠ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٢ .

(٢) الطبري : الامم والملوك (والسوراقيه هي قرية بني سليم) .

(٣) المصدر السابق . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ،ظ ص ٣٠٢ .

(٤) الطبري : الامم والملوك ، ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٠ .

(٥) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٠ .

(٦) الطبري : الامم والملوك .

(٧) الطبري : الامم والملوك .

(٨) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٣ تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .

فنقبوا الدار ليخرجوا منها كما قتلوا الموكلين بحراستهم [1] ورأت امرأة من أهل المدينة النقب فصرخت فكشف أمرهم . فاجتمع أهل المدينة عليهم فمنعوهم من الخروج ، وباتوا محاصرين لهم وتمكن أهل المدينة من قتل هؤلاء الاسرى جميعاً [2] كما قتلوا كل من وجدوه من الاعراب بالمدينة [3] ، وكان عزيزة بن قطاب زعيم بني سليم حين قتل اصحابه قد ذهب الى بئر فدخلها واقتحم عليه رجل من أهل المدينة فقتله ، والقيت جثث القتلى بعضها فوق بعض على باب مروان بن الحكم ، وكان ذلك في عام واحد وثلاثين ومائتين .

لما توجه بغا الى فدك للتصدي للمتمردين هناك من بني مرة وبني فزاره ، وجه اليهم رجلا من قواده [4] وكان من فزاره ، ارسله الى الاعراب المتمردين يعرض عليهم الامان ويستطلع اخبارهم [5] . فلما قدم عليهم ذلك القائد الفزاري الاصل حذرهم سطوة بغا وجبروته وأشار عليهم بالهرب . مما جعلهم يتركون فدك الا قليلاً منهم ويفرون الى الشام فقصدوا خيبر وجنفاء وما حولها ، تتبعهم بغا الى مشارف الشام ، واقام في جنفاء أربعين ليله [6] فظفر ببعضهم كما طلب آخرون الامان ، ثم رجع الى المدينة بمن ظفر به من الثائرين من بني مرة وبني فزاره [7] .

وبعد ذلك سارت الى بغا جماعات من بطون غطفان ، وأشجع ، وبني ثعلبة [8] كما جاءته جماعات من غفار [9] وكان قد ارسل اليهم ، فلما جاءوه قدموا اليه طاعتهم ، واستحلفهم محمد بن يوسف الجعفري على الطاعة فأقسموا [10] بالايمان المؤكدة الا يتخلفوا عنه إذا دعاهم وأظهروا كل فروض الولاء والطاعة للخلافة ، وكان بغا هو الذي أمر محمد بن يوسف الجعفري بذلك .

---

(1) الطبري : الامم والملوك حوادث عام واحد وثلاثين ومائتين .

(2) الطبري : تاريخ الامم والملوك .

(3) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٣ . تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .

(4) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .

(5) الطبري : تاريخ الامم والملوك حوادث عام ٢٣١ هـ .

(6) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ، ص ٢٧٣ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .

(7) الطبري : تاريخ الامم والملوك حوادث عام ٢٣١ هـ ، تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .

(8) الطبري : الامم والملوك ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٧٣ .

(9) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .

(10) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام واحد وثلاثين ومائتين .

واستمر بغا في تأدية رسالته التي ارسله الواثق بالله من أجلها وهي اخضاع الاعراب والقضاء على حركتهم الثورية في الحجاز . توجه بغا بعد ذلك الى فريق آخر من المتمردين وهم بني كلاب[1] فبعث اليهم رسلاً فسارعوا وأجابوا واجتمع اليه منهم نحو ثلاثة الاف رجل ، فاستبقى منهم من رآهم أهل الشر والفساد[2] واثارة الشغب اكثر من الف رجل وخلى سبيل الاخرين . ثم رجع بغا الى المدينة بمن في يده من اسرى بني كلاب فوصلها في رمضان[3] فحبسهم في دار يزيد بن معاوية وبعد ذلك غادر المدينة متوجهاً نحو مكة وبقي هناك حتى انتهى موسم الحج فرجع الى المدينة[4] وكانت هذه هي المرة الثانية التي يؤدي فيها بغا فريضة الحج أثناء تواجده بالحجاز للقضاء على الحركات التي قامت هناك فقد جاء في جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ هـ ولا زال يتنقل بين النواحي للقضاء على الفتن وبسط سلطان الخلافة .

وردت كتب الواثق بالله على بغا الكبير بالمدينة يأمره بالتوجه لحرب بني نمير باليمامه ، وذلك لان الشاعر عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفي امتدح الواثق بالله بقصيدة اعجبته ، فلما انشده اياها امر له بثلاثين الف درهم واشياء اخرى وقربه منه فكلم عمارة الواثق بالله وشكا له من عبث بني نمير وفسادهم في الارض واغارتهم على الناس في اليمامه[5] وما حولها فكتب الواثق الى بغا في المدينة يأمره بالمسير اليهم فلما عزم على الخروج اخذ معه محمد بن يوسف الجعفري دليلاً له على الطريق وسار الى بني نمير في اليمامه ، وفي موضع يقال له « الشريف » التقى بغا بجماعة منهم فحاربوه[6] وقتل بغا منهم اكثر من خمسين رجلاً ، كما اسر نحو أربعين منهم ثم تابع سيره حتى اصبح قريباً منهم ، فأرسل اليهم يعرض عليهم الامان ويدعوهم للسمع والطاعة لسلطان الخلافة في سامرا فلم يقبلوا رغم تتابع رسله ، فجمعوا له واتجهوا الى الجبال خلف اليمامه . فوجه بغا اليهم بالسرايا التي تمكنت من ان تصيب وتأسر منهم ، ثم اتبعهم بجماعة ممن معه وكانوا نحواً من الف رجل ،

---

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك حوادث عام واحد وثلاثين ومائتين .

(٤) المصدر السابق . ابن الاثير ، الكامل جـ ٥ ص ٢٧٣ .

(٥) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام اثنين وثلاثين ومائتين .

(٦) مسكويه : تجارب الامم ص ٥٣٣ .

فالتقوا بحشود بني نمير الذين كانوا نحواً من ثلاثة آلاف رجل [1] في موضع يقال له « روضة الأبان او بطن السر » وتمكنت حشود بني نمير من التغلب على قوات الخلافة بقيادة بغا . فقتلوا من اصحابه اكثر من مائة وعشرين رجلاً [2] واستولوا على اكثر من سبعمائة بعير من معسكر بغا فنحروها وانتهبوا كثيراً مما كان في معسكر بغا من الاموال والاثقال وصمد بغا بمن معه يقاتل فدخل الليل [3] .

أخذ بغا يدعوهم ويكرر دعوته لهم للرجوع الى طاعة امير المؤمنين فشتموه وهددوه وتوعدوه . ويبدو من الحوار الذي دار بينهم وبين محمد بن يوسف الجعفري - دليل بغا - كيف اخذتهم الحمية العربية وكيف أنفوا من الخضوع لجيش بغا فكانوا يطلقون عليهم كلمات « العبيد » العلوج [4] . وكذلك كلمات السباب والوعيد .

واشار محمد بن يوسف على بغا بمباغتتهم ليلا قبل الصباح ولكن بغا لم يقبل ذلك الرأي ولم يقتنع به ويبدو أن قواته كانت بحاجة الى الراحة إذ أنه كان ينتظر عودة فرقة كان قد أرسلها لتتبع بعض المتمردين فتكون مداداً له . وفي الصباح عادت القوات الى الاشتباك وجاءت بنو نمير ، المشاة في المقدمة ومن خلفهم فرسانهم ومن خلفهم مواشيهم ونعمهم[5] ورأت بنو نمير قلة عدد أصحاب بغا مما رفع من معنوياتهم وشد أزرهم فتمكنوا من هزيمة جيش بغا مما جعله يوقن بالهلاك ولم ينقذ الموقف سوى عودة فرقة الفرسان التي كان قد أرسلها بغا في مهمة تتبع بعض الخيل[6] فلما رجعت تلك الفرقة وكانوا نحو المائتي فارس بصفاراتهم وضجيجهم فلما رأتهم بنو نمير ظنوهم مدداً فانقلب انتصارهم هزيمة وولوا الأدبار هاربين[7] وتخلى فرسانهم عن مشاتهم وفروا بخيلهم ووقعت المشاة كلها في يد قوات بغا فقتلوهم عن آخرهم . وثابت الى بغا كل فلوله واستعاد تنظيمهم وكر على بني نمير فهزمهم . وقتل بغا منهم

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٧٦ .
(٢) الطبري : الامم والملوك .
(٣) مسكويه : تجارب الامم ص ٥٣٤ .
(٤) الطبري : تاريخ الامم والملوك .
(٥) ابن الاثير : الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٧٦ .
(٦) مسكويه : تجارب الامم ص ٥٣٤
(٧) الطبري : الامم والملوك لحداث عام اثنين وثلاثين ومائتين .

نحو الف وخمسمائة رجل [1] . وكان ذلك في جمادى الاخرة عام ٢٣٢ هـ .

اقام بغا في موضع الوقعة « بطن السر » ثلاثة ايام استراح فيها بقراته وجمعت له رؤوس القتلى . ولم يجد فرسان بني نمير الذين فروا بدا من الخضوع بالطاعة لامير المؤمنين فارسلوا الى بغا يطلبون منه الأمان فاعطاهم الامان فساروا اليه فقيدهم بالاغلال وحملهم معه [2] . واثناء الطريق اثاروا الشغب وحاولوا كسر قيودهم للهرب فامر باحضارهم واحداً بعد الاخر وكان يضربهم ضرباً شديداً بلغ الخمسمائة جلدة فاظهروا ثباتاً وصبراً وجلداً منقطع النظير [3] . فحملهم معه عائداً الى البصرة . فوصلوها في ذي القعدة من سنة ٢٣٢ هـ فحبسهم هناك .

وكتب بغا الى عامل المدينة صالح العباسي بأن يغادر المدينة بمن عنده من بني كلاب، وفزاره، ومرة، وثعلبة من اسرى العرب فوافاه ببغداد [4] وفي المحرم من عام ٢٣٣ هـ ساروا جميعاً الى سامرا . وقد أجمعت المصادر على أن مجموع من قدم به القائد التركي بغا الكبير وصالح العباسي من الاسرى العرب كان اكثر من الفي رجل . هذا سوى من قتل في المعارك ومن مات منهم في الطريق [5] ومن هرب .

هكذا قضى بغا الكبير اكثر من عامين متنقلاً بين أرجاء الجزيرة العربية للقضاء على ثورة الاعراب من الحجاز الى مشارف الشام الى اليمامة واستغرقت منه هذه المهمة وقتاً طويلاً من جمادى الاخرة [6] عام ٢٣٠ هـ ولم يرجع الى سامرا الا في المحرم من عام ٢٣٣ [7] هـ . كما استنفذت من الخلافة جهداً كبيراً . قد رأينا كيف استمات بنو نمير في القتال وكيف تعرضت قوات الدولة للهزيمة امامهم وما كان يمكن أن يترتب على ذلك من فقدان الدولة لسيطرتها على تلك النواحي .

« أثر تلك الحركات الثورية على العلاقات الاسلامية البيزنطية »

ولقد جاءت تلك الثورات العربية تعبيراً عن رفض العرب لسيادة

(١) المصدر السابق .
(٢) مسكويه : تجارب الامم ص ٥٣٥ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) تاريخ ابن خلدون جـ ٣ ص ٢٧١ .
(٥) الطبري : تاريخ الامم والملوك حوادث عام ٢٣٢ هـ ابن الاثير الكامل جـ ٥ ص ٢٧٦ .
(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٦ .
(٧) الطبري الامم والملوك احداث ٢٣٣ هـ .

العنصر التـركي واعتماد الخلفـاء عليه. والمركز المرمـوق الـذي وصلـوا اليه في الدولـة الاسلامية. جـاءت تلك الثـورات تعلن تذمـر العـرب من استئثـار التـرك بالمناصـب الكبـرى في الدولـة سواء في الجيش أو الادارة. وقـد فشلـت تلك الحـركات اذ تمـكن القائـد التـركي بغـا الكبـير من اذلالهم بالقتل والاسر والضرب والقيد بالاغلال. وهذه الحركات توضح وتؤ كد الفجـوة الموجودة بين الخلافة من جهة وبين ابناء الأمة من جهة اخرى، فهي ثورات على الوضع القائم تحاول تغييره. ولا شك ان الواثق بالله كان يدرك ذلك تمام الادراك ويشعر أن جبهته الداخلية غير متماسكة. ولا شك ان هذا الوضـع كان له تأثيره المباشر على الجبهة الاسلامية البيزنطية. وتحديد العلاقـات سلماً ام حربـاً. ومـن الواضح ان تلك الظروف لم تكن تسمح بشن الحرب. فكيف يفتح الواثق بالله جبهة مع البيزنطيين وهو لا يأمن الجبهة الداخلية التـي كان من الممـكن أن تزداد اشتعالاً في أي وقت، خاصة انه في نفس الوقت الذي كان فيه بغا بالحجاز كانت هناك قلاقل في نواحي اخرى من الدولة.

ففي عام ٢٣١ هـ [1] خرج محمد بن عبد الله من بني زيد بن تغلب في ثلاثة عشر نفر في ديار ربيعة، فخرج اليه غانم بن ابي مسلم بن حميد الطوسي والذي كان عاملاً على حرب الموصل. فأسرع بالقضاء على الحركة في بدئها وتصدى لها قبل ان تستفحل ويشتد أمرها. وقتل غانم أربعة من الخوارج واخذ زعيم الحركة اسيراً فبعث به الى سامرا فبعثوا به الى مطبق بغداد كما نصبت رؤ وس اصحابه واعلامه عند خشبة بابك [2] وهذه الحركة كان من الممكن ان تقوى ويتسع مداهـا لولا أن سارع غانم بن ابي مسلم بالقضاء عليها ويدل على أهميتها تعليقهم رؤ وس القتلى والاعلام بجوار خشبة بابك.

وفي نفس العام كانت هناك حركة اخرى في اصبهان والجبال أثارها الاكراد [3] الذين كانوا قد افسدوا في فارس واصبهان فأرسل الواثق اليهم القائد التركي وصيف فنجح في مهمته وقضى على حركة الاكراد ورجع ومعه منهم نحو خمسمائة نفس في

---

(١) الطبري: تاريخ الامم والملوك، ابن الاثير: الكامل جـ ٥ ص ٢٧٤.

(٢) الطبري: تاريخ الامم والملوك.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ جـ ٥ ص ٢٧٥ ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٧.

القيود والاغلال [1] فحبسوا . ونال وصيف من الخليفة جائزة قدرها خمسة وسبعين الف دينار ، كما قلد سيفاً وكسي [2] .

وفي نفس العام ٢٣١ هـ حدث ان تمكن قوم من نقب بيت مال الدولة في جوف القصر فأخذوا منه مبلغ اثنين وأربعين الف درهم ومبلغاً قليلاً من الدنانير لم تحدده المصادر وانما اشارت اليه قائلة : « شيئاً يسيرا من الدنانير » [3] وهذا الحادث في حد ذاته يستوقف الانتباه هل كان ذلك مجرد سرقة بغرض السرقة ام أن ذلك ايضاً لوناً من التحدي للسلطات الحاكمة المتمثلة في سلطان الاتراك وتعبيراً عن التذمر من الأوضاع القائمة . يغلب على الظن أن الرأي الاخير هو الاصح فلو كانوا لصوصاً فقط لسرقوا اي جهة اخرى غير بيت مال الدولة . والدولة مليئة بالافراد الاغنياء والتجار الاثرياء . وهذا أقرب لهم وأسهل من بيت المال والمرجع انها حركة تتجه ضد السلطة . وقد تتبع يزيد الحلواني صاحب الشرطة في ذلك الموضوع واعطاه مزيداً من الاهتمام والبحث حتى توصل الى الفاعلين فأخذوا [4] .

وهكذا نجد الاوضاع الداخلية لا تشجع الواثق بالله على فتح جبهة حرب مع البيزنطيين . بل كان من الاوفق تركيز الاهتمام على تلك الاوضاع الداخلية ومعالجة كل ما بها من مشاكل واحدة تلو الأخرى حتى يطمئن الى جبهته الداخلية فيوجه اهتمامه للجبهة البيزنطية باعلان الحرب والجهاد . فكل تلك الحركات التي ذكرناها ، تقوم دليلاً واضحاً على ضعف هيبة الخلافة العباسية في تلك المرحلة ، وضعف هيبة الحكم بصفة عامة . فسرقة بيت المال إن كانت بدافع السرقة فقط انما تدل بوضوح على ضياع هيبة الجهاز الحاكم . وان كانت تعبيراً عن التذمر من الاوضاع بما فيها سيطرة العنصر التركي فهي بذلك تعتبر تحدياً جريئاً وصارخاً للنظام القائم ، وفي كلتا الحالتين يظهر التباعد بين الحاكم والمحكوم وتتضح الهوة التي تفصل بين الخليفة وابناء الامة من عامة المسلمين والاعراب منهم خاصة .

---

(١) الطبري : الامم والملوك .
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٥ .
(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك . ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٥ .
(٤) الطبري : تاريخ الامم والملوك حوادث عام ٢٣١ هـ .

٥ ـ كشف مؤامرة ضد الواثق بقيادة أحمد بن نصر الخزاعي ٢٣١ هـ

ازدهرت تعاليم المعتزلة في العصر العباسي الاول وبلغت قمة ازدهارها في عصر المأمون الذي وافقهم على القول بخلق القرآن . واستخدم نفوذه في سبيل اقرار هذه العقيدة في اذهان الناس ، وأصبح مذهب الاعتزال بذلك مذهب الدولة الرسمي . ولكن ما هي تعاليم المعتزلة ؟

للمعتزلة مبادىء يكادون يشتركون فيها جميعاً وهي خمسة أصول :

١ ـ القول بالتوحيد .

٢ ـ القول بالعدل .

٣ ـ القول بالوعد والوعيد .

٤ ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين .

٥ ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر [١] .

ولقد أثارت المعتزلة مسألة كلام الله وخلق القرآن . وقالت المعتزلة أنه ثبت بالبرهان ان الله ـ ذاته وصفاته ـ وحدة لا تقبل التجزئة بحال من الاحوال ، وثبت بالبرهان ان ذات الله وصفاته لا يلحقها تغيير ولا تقوم بها المحدثات واذا كان الله وصفاته وحدة لا تقبل التغيير فمحال أن يكون القرآن كلام الله على معني انه صفة من صفاته ، لأنه لو كان كذلك لكان هو وذاته وبقية صفاته شيئاً واحداً ، وترى المعتزلة أن في القرآن أمراً ونهياً وخبراً واستخباراً ووعداً ووعيداً ، فهذه حقائق مختلفة وخصائص متباينة ومن المحال أن يكون « الواحد » متنوعاً الى خواص مختلفة ، وهذه الخواص قد تتضاد كالذي بين الأمر والنهي .

ثم تقول المعتزلة : اذا كان القرآن كلاماً ازلياً هو صفة من صفات الله ترتب على ذلك جملة استحالات . أولها : ان الأمر لا قيمة له ما لم يصادف مأموراً ، فلا يصح ان تصدر « اقيموا الصلاة » الا أذا كان هناك مأمورون بالصلاة ولم يكن في الازل مأمورون مخاطبون ومحال أن يكون المعدوم مأموراً .

ثانيها : أن الخطاب مع موسى عليه السلام غير الخطاب مع محمد ﷺ ومناهج

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢١ ـ ٢٢ .

الكلامين مع الرسولين مختلفة ، ويستحيل أن يكون معنى واحداً هو في نفسه كلام مع شخص على معان ومناهج ، وكلام مع شخص آخر على معان ومناهج اخرى ، ثم يكون الكلامان شيئاً واحداً ومعنىً واحداً ، أضف الى ذلك أن المخبرين عن احوال الامتين مختلفان لاختلاف حال الامتين ، فكيف يتصور ان تكون حالتان مختلفتان يخبر عنهما بخبر واحد والقصة التي جرت ليوسف واخوته غير القصة التي جرت لادم ونوح وابراهيم ، واذا اختلفت هذه الاختلافات استحال أن يكون الكلام صفة الله ، وهو الواحد في ذاته وصفاته الذي لا يختلف ولا يطرأ عليه اختلاف .

ثالثها : ان المسلمين اجمعوا قبل ظهور الخلاف على ان القرآن كلام الله واتفقوا على انه سور وآيات وحروف منتظمة ، وكلمات مجموعة وهي مقروءة مسموعة ، ولها مفتتح ومختتم ، وهو معجزة رسول الله ، وأجمعت الامة على انه بين ايدينا نقرؤه بالسنتنا ونلمسه بايدينا ، ونبصره بأعيننا ونسمعه باذاننا ، ومحال ان يكون هذا كله وصفاً لصفة الله . فالكلام الاولى الذي هو صفة الله لا يوصف بمثل هذه الأوصاف (١) .

أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفي الصفات الالهية ، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدة الله . ولكي ينزهوا الله عن الظلم ، اعترفوا للانسان بالحرية التامة في خلق أفعاله ، وكان من تعاليمهم ان ادراك وسائل الخلاص وطرق النجاة انما ترجع الى سلطان العقل وانه يمكن تمحيص هذه المسائل في ضوء العقل أي أن الله لم يخلق أفعال العباد لا خيراً ولا شراً ، وأن ارادة الانسان حرة والانسان خالق افعاله ومن أجل ذلك كان مثاباً على الخير معاقباً على الشر . بعبارة اخرى العلاقة بين قدرة الله واعمال العباد : هل أعمال العباد مخلوقة لله أو هي مخلوقة للعبد ؟ وهذه هي المسألة التي يطلق عليها عادة « خلق الأفعال » فأفعال العباد من عملهم هم وباختيارهم المحض . في قدرتهم أن يفعلوها وأن يتركوها . لقد قرر المعتزلة حرية ارادة الانسان وقدرته بأجلى مظاهرها (٢) .

---

(١) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(وقد لخص الاستاذ احمد امين ما كتبه ابو الحسن الاشعري في كتابه مقالات الاسلاميين ص ١٥٥ ـ ١٥٦ تلخيصاً موجزاً واضحاً ، فضلنا اخذه عن الاستاذ احمد امين) .
(٢) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٤٤ ـ ٥٨ .

وعارضت المعتزلة عقيدة ازلية القرآن ، أي أنه كلام الله ، كما عارضوا فكرة الوحي بمعنى أن الله يتصل بالانسان ويوحي اليه كما جاء في سورة الشورى﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء انه عليم حكيم﴾[1] وكانوا لا يصغون الى أية فكرة يشتم منها رائحة التجسد لله سبحانه وتعالى ، كذلك رفض المعتزله دعوى ان الله خلق الكافر [2] ، كما لم يرضوا القول بأن الله يضر لمنافاة ذلك للعدل الالهي ، وهم يقدرون اختيار الانسان في أفعاله ولم يعترفوا بالمعجزات التي وردت في القرآن [3] .

وكان يناهض المعتزلة في صفة الكلام وخلق القرآن وغيرها من الصفات فريقان : فريق يسمون « السلف » يرون أن الله وصف نفسه بصفات من قدرة وإرادة وعلم وكلام وسمع وبصر ، ووصف نفسه بأن على العرش ، فيجب ان نؤمن بها كما جاءت ، ولا نتعرض لتأويلها وشرحها فنجري ظواهر النصوص على مواردها ونكف عن تأويلها ، ونفوض معانيها الى الله .

وفريق آخر من الحنابلة ، رأى أن « القرآن بحروفه واصواته قديم .. ولما تقرر الاتفاق على أن كلام الله غير مخلوق فيجب ان تكون الكلمات أزلية فيه غير مخلوقة » [4] .

هذان هما الفريقان اللذان ناهضا المعتزلة في قولهم بخلق القرآن فكان الخلاف دائراً حول القرآن ، اي حروفه والفاظه وكلماته ، يقول المعتزلة بحدوثها ويقول الحنابلة بقدمها ، ويقول آخرون لا نتكلم في هذا الموضوع [5] وظل النزاع محصوراً في هذه الدائرة ايام محنة القول بخلق القرآن زمن المأمون والمعتصم والواثق .

بدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا علاقة لها بالسياسة بخلاف ما كان

---

(1) سورة ٤٢ : آية ٥١ .

(2) يقصدون ان كل انسان ولد على الفطرة . فالانسان خلق قابلاً للايمان فطرة الله التي فطر الناس عليها . وان الكفار صاروا كذلك بتمردهم وعصيان لإرادتهم واختيارهم ، وليس بجبر من الله بمعنى ان الله لم يرد كفر الكافر . حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(3) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

(4) الشهرستاني : نهاية الاقدام ص ٣١٢ .

(5) احمد امين : ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٤٠ .

عليه الشيعة والخوارج والمرجئة الا انها سرعان ما تدخلت في الامور السياسية الهامة ، فبحثت مسألة الامامة ووضعت الشروط التي يجب ان تتوافر في الائمة ، كما كان هناك تشابه بين بعض مبادىء المعتزلة وتعاليم الشيعة ، فكانت الشيعة تسمي نفسها . . « أهل العدل » كالمعتزلة ، كما قالت المعتزلة بحرية الارادة التي وضع اساسها علي بن ابي طالب ، كذلك كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب « امام » فضلاً عن تاثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم القائلة ان الامام المنتظر سوف يظهر لينشر العدل والتوحيد وهذا نفس ما يقوله المعتزلة [1] .

وكان المأمون يميل الى الاخذ بمذهب المعتزلة لانه اكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرب اتباع هذا المذهب اليه فزاد نفوذهم في الدولة ووافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا اليه من ان القرآن مخلوق وعمد الى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق القرآن [2] .

وروى الطبري في احداث سنة ٢١٨ هـ : « وفي هذه السنة كتب المأمون الى اسحاق بن ابراهيم في امتحان القضاة والمحدثين وامر باشخاص جماعة منهم اليه في الرقة . . . فاشخصوا اليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن ، فاجابوا جميعاً ان القرآن مخلوق ، فاشخصهم الى مدينة السلام ، واحضرهم اسحاق بن ابراهيم داره ، فشهر امرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم [3] » .

واتبع المعتصم سياسة اخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، رغم انه لم يكن له من العلم والثقافة مثل ما كان للمأمون اذ اضطهدوا الامام احمد بن حنبل وسائر العلماء والقضاة الذين لم يأخذوا برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن [4] .

ازدهرت تعاليم المعتزلة في العصر العباسي الاول وبلغت قمة ازدهارها في عصر المأمون الذي وافقهم على القول بخلق القرآن واستخدم نفوذه في سبيل اقرار

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، احداث عام ٢١٨ هـ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٥٢ .

هذه العقيدة في اذهان الناس ، وأصبح مذهب الاعتزال بذلك مذهب الدولة الرسمي . ثم سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن .

واقتدى الواثق بأبيه المعتصم وعمه المأمون في انتصاره للمعتزلة فالمأمون هو الذي رباه وعلمه (١) وتشدد الواثق في فرض تلك الاراء الدينية على الناس ، فلم يكتف باقرارها في عاصمة الخلافة ، ولكنه كتب الى الافاق بامتحان القضاة والناس فيها . وبلغ به الأمر ان جعل فداء أسرى المسلمين في الدولة البيزنطية واطلاق سراحهم واستقدامهم لدار الاسلام مقصوراً على الذين يقرون بخلق القرآن وبأن الله لا يرى في الآخرة (٢) ، واعتبر من رفض ذلك منهم خارجين على الاسلام فتركهم في أيدي البيزنطيين .

لقد بلغ تحمس الواثق لقضية خلق القرآن ان أمر امتحان اهل الثغور في ذلك فقالوا بخلقه الا اربعة نفر ، فأمر الواثق بضرب أعناقهم ان لم يقولوه وامر لجميع اهل الثغور بجوائز (٣) . بل انشأ ديوان المحنة لامتحان من أنكر عقيدته (٤) .

وغالى الواثق في أخذ الناس بالقول بخلق القرآن ، وكتب بذلك الى جميع ولاته ، فقال الكندي : « لما استخلف الواثق ورد كتاب محمد بن أبي الليث ـ قاضي مصر ـ بامتحان الناس أجمع ، فلم يبق احد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس وملئت السجون ممن أنكر المحنة ، وأمر ابن ابي الليث بالاكتتاب على المساجد : « لا اله الا الله رب القرآن المخلوق » فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من اصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد وأمرهم ان لا يقربوه » (٥) .

وكان تمسك الواثق بعقيدة خلق القرآن واصراره على أخذ الناس بذلك وتفانيه في هذا الأمر مما أفسد قلوب جماهير الامة عليه . ويوضح الزركلي ذلك قائلاً :

---

(١) ابن العمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء ص ١١١ .

(٢) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ . شاكر مصطفى : دولة بني العباس جـ ٢ ص ٤٢٠ .

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك لحداث عام ٢٣١ هـ .

(٤) حسن الباشا : دراسات في تاريخ الدولة العباسية ص ٤٢ .

(٥) الكندي : الولاة والقضاة ص ٤٥١ .

« شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم»[1] لقد كان لذلك رد فعله السيء في نفوس الناس ، فلم يكن مذهب الاعتزال مقبولاً لدى الجماهير التي تمسكت بالسنة وأيدهم الحنابلة . ورغم جهود ثلاثة خلفاء متتالين اعتبرت الجماهير فترة الاعتزال فترة « محنة » ولا شك أن تمسك الواثق بمذهب الاعتزال وفرضه بالقوة أثار خواطر الناس . وكان لأحمد بن أبي دؤاد الذي غلب على الواثق دوره الرئيسي في تلك المحنة فقد كان أكبر مؤيدي مذهب الاعتزال . وفي ذلك يقول المسعودي : « غلب عليه أحمد بن أبي دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يصدر الا عن رأيهما ، ولا يعتب عليهما فيما رأياه وقلدهما الأمر وفوض اليهما ملكه»[2] .

ويقول السيوطي : « كان احمد بن ابي دؤاد قد استولى على الواثق وحمله على التشدد في المحنة ، ودعا الناس الى القول بخلق القرآن »[3] . كما أكد الخطيب البغدادي ذلك وذكر ان احمد بن أبي دؤاد كان قاضي القضاة زمن المعتصم والواثق وانه هو الذي كان يمتحن العلماء في أيامهما ويدعو الى القول بخلق القرآن[4] .

ثار أهل بغداد ضد الواثق وتزعمهم في ذلك أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي[5] . وكان جده مالك بن الهيثم احد نقباء[6] بني العباس الذين عملوا في الدعوة العباسية وصار يجتمع لديه أصحاب الحديث مثل يحيى بن معين ، وابن الدورقي ، وابن خيثمة . وأصبح منزله مقر الاجتماعات السرية المعارضة لمذهب الاعتزال ومؤيديه . وفي شعبان انتظمت الدعوة لأحمد بن نصر سراً .

وكان احمد بن نصر هذا واحداً ممن بايع لهم الناس في بغداد سنة ٢٠١ هـ على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد ثورة بغداد وكثرة الشطار والدعار وغياب المأمون في خراسان بعد قتل الأمين[7] .

والتفّت المعارضة حول أحمد بن نصر ودعوا الى عزل الواثق وتم تدبير

(١) الزركلي : الأعلام .

(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٦٦ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٤١ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد او مدينة السلام جـ ٤ ص ١٤٢ .

(٥) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٣ . مسكويه : تجارب الأمم ص ٥٢٩ .

(٧) الطبري : احداث ٢٣١ هـ . ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٣ . مسكويه : تجارب الامم ص ٥٢٩ .

مؤامرة لذلك ، وانفقت الاموال على الناس ، وحددوا الليلة التي يقومون فيها باعلان ثورتهم . وذلك بضرب الطبل للوثوب بالسلطان . وكان هناك زعيم يقوم بالتنفيذ في الجانب الغربي من بغداد هو « طالب » وزعيم في الجانب الشرقي هو « ابو هارون السراج » [1] . وذهب بعض الثوار فشربوا النبيذ فلما ثملوا ضربوا بالطبل ، وكان ذلك ليلة الاربعاء أي قبيل ساعة الصفر الحقيقية بليلة ، اذ كان الموعد لذلك ليلة الخميس الثالث من شعبان عام واحد وثلاثين ومائتين للهجرة . وهم يظنونها الليلة التي اتفق عليها واكثروا من ضرب الطبل فلم يجبهم احد [2] .

وكان على شرطة بغداد اسحاق بن ابراهيم ـ الذي ولي للمأمون ثم المعتصم ثم الواثق [3] ـ ولكنه كان غائباً عن بغداد وينوب عنه في عمله أخوه محمد بن ابراهيم فاهتم محمد بالتحقق من امر هذا الطبل الذي سمعوه ورغم محاولات الانكار فقد بذل جهوداً كبيرة حتى انه قام بتفتيش المنازل، وعثر على غلمان اخضران كما اعترف البعض من اهالي بغداد وتمكن من كشف تلك المؤامرة ، وتم القبض على المؤتمرين . وقيد أبو هارون السراج زعيم الجانب الشرقي من بغداد وكذلك قيد طالب زعيم الجانب الغربي منها . وذكر الطبري انه قيد كل منهما بسبعين رطلاً من الحديد [4] .

واستمرت التحقيقات ووضع عدد كبير في السجون وحمل احمد بن نصر بن مالك ، رغم انهم لم يجدوا في منزله ما يعتبر دليلاً ضده من أعلام او اسلحة فحمل الى محمد بن ابراهيم بن مصعب ومعه ابنين له ثم حملوا الى امير المؤمنين الواثق بسامرا على بغال بأكف ليس تحتهم وطاء . فقيد احمد بن نصر بزوج قيود واخرجوا من بغداد يوم الخميس لليلة بقيت من شعبان سنة ٢٣١ هـ وكان الواثق قد اعلم بمكانهم فحضر اليهم .

عقد الواثق مجلساً [5] عاماً حضره احمد بن ابي دؤاد واسحاق بن ابراهيم

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

(٢) المصدر السابق . ابن مسكويه : تجارب الامم جـ ٦ احداث عام ٢٣١ ص ٥٣٠ .

(٣) الشابشتي : الديارات .

(٤) الطبري : الامم والملوك : احداث ٢٣١ هـ .

(٥) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

وعبد الرحمن بن اسحاق وكان قاضياً على الجانب الغربي من بغداد فعزل ، وبدلا من ان يسأل احمد بن نصر عن الشغب او الخروج على السلطان او المؤامرة الفاشلة امتحنوه في خلق القرآن . سأله الواثق بنفسه عن رأيه في القول بخلق القرآن . وأصر احمد بن نصر على رأيه وتمسك بالسنة ورفض الاقرار [1] بخلق القرآن وحدثهم باحاديث رؤية الله في الآخرة [2] .

نظر الواثق لمن حوله متسائلاً عن رأيهم في احمد بن نصر فأكثروا فيه الكلام ، فمن قائل انه حلال الدم ، الى قائل « اسقني دمه يا أمير المؤمنين » [3] وأقروا عليه بالكفر . وقال ابن ابي دؤاد كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل [4] . فقال الواثق لهم اذا رأيتموني قمت اليه فلا يقوم احد معي فاني احتسب خطاي اليه ، وطلب الصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب ، فاحضر اليه ودعا بنطع أوقف احمد بن نصر عليه ومشى الواثق اليه فقتله بيده . وقد اجمعت المصادر القديمة على وصف واحد لقتله . « ودعا بنطع فصير في وسطه وحبل فشد به رأسه ، ومد الحبل فضربه الواثق فوقعت الضربة على حبل عاتقه ثم ضربه اخرى على رأسه ، ثم انتضى سيما الدمشقي سيفه فضرب عنقه وحز رأسه . ويقال ان بغا ضربه ضربة أخرى وطعنه الواثق بطرف الصمصامة في بطنه » [5] .

ولما سقط احمد بن نصر صريعاً ، حمل الى الحظيرة التي فيها بابك الخرمي ، فصلب فيها ، وفي رجليه زوج قيود وعليه سراويل وقميص ، وحمل رأسه الى بغداد فنصب في الجانب الشرقي « الروحاء » اياماً وفي الجانب الغربي « الزوراء » اياماً ، ثم حمل الى الشرقي وحظر على الرأس حظيرة وضرب عليه فسطاط ووضع عنده الحرس في الليل والنهار [6] . وأجمعت المصادر القديمة كلها أنه علقت في اذنه رقعة

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .
ابن مسكويه ، تجارب الامم ص ٥٣١ .
(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ٢٣١ هـ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٤-٣٠٥ .
(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، احداث ٢٣١ هـ . ابن مسكويه : تجارب الامم احداث ٢٣١ جـ٦ ص ٥٣١ .
(٤) الطبري : تاريخ الامم والملوك ٢٣١ هـ . ابن مسكويه تجارب الامم احداث ٢٣١ ص ٥٣١ .
(٥) المصدرين السابقين . ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٤ .
(٦) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ . تاريخ الطبري لاحداث ٢٣١ هـ . ابن مسكويه : تجارب الامم لاحداث ٢٣١ هـ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٥ .

مكتوب فيها « هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو احمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدي عبد الله هارون الامام الواثق بالله امير المؤمنين بعد ان أقام عليه الحجة في خلق القرآن ونفي التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع الى الحق فأبى الا المعاندة والتصريح والحمد لله الذي عجل به الى ناره وأليم عقابه . وأن امير المؤمنين سأله فأقر التشبيه وتكلم بالكفر فاستحل بذلك، امير المؤمنين دمه ولعنه »[1] .

امر الواثق بتتبع اصحاب احمد بن نصر ممن كان يشايعه في تلك الحركة أي بقية اعضاء التنظيم السري . فتم القبض عليهم وكانوا نحوا من تسع وعشرين رجلاً[2] وسماهم الظلمة ووضعوا في السجون ولاقوا معاملة أسوأ من بقية المسجونين فقد منعت عنهم الزيارة ، وثقلوا بالقيود الحديدية بل انهم منعوا من اخذ الصدقة التي يعطاها اهل السجون[3] . وقد أيد الطبري تلك الرواية وكذلك ابن كثير الذي يصف حالهم قائلاً : « أودعوا في السجون وسموا الظلمة ، ومنعوا ان يزورهم احد . وقيدوا بالحديد ، ولم يجر عليهم شيء من الارزاق التي كانت تجري على المحبوسين وهذا ظلم عظيم »[4] وقد مات البعض في الحبس فقال بعض الشعراء في احمد بن أبي دؤاد[5] :

ما ان تحولت من اياد صرت عذاباً على العباد
أنت كما قلت من اياد فارفق بهذا الخلق يا ايادي

ولم يزل رأس احمد بن نصر من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان من عام واحد وثلاثين ومائتين الى ما بعد عيد الفطر بيوم او يومين من عام سبع وثلاثين ومائتين حين جمع بين رأسه وجثته ودفن بأمر من المتوكل على الله ، حسب رواية ابن كثير .

---

(١) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ . ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٤ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٥ .

(٢) الطبري احداث ٢٣١ هـ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٥ .

(٣) ابن مسكويه : تجارب الامم احداث ٢٣١ هـ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣٠٥ .

(٥) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

وقد استرسل ابن كثير في مدح احمد بن نصر وغزارة علمه خاصة علم الحديث كما ذكر أقوال بعض الفقهاء والعلماء في مدحه [1] .

وهكذا كانت قضية خلق القرآن التي اخذت في عهده شكلاً حاداً [2] السبب وراء غضب الجماهير وعصيانهم . ويعبر المسعودي عن ذلك بقوله : « شغل الواثق نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم ، وأوجدهم السبيل الى الطعن عليه » [3] .

ولكن تلك الحركة وان كانت فشلت في الوقوف في وجه الخلافة ورجالها المؤمنين بعقيدة خلق القرآن الا انها في الواقع عبرت بوضوح عن رفض الجماهير من ابناء الامة لقضية خلق القرآن ومذهب الاعتزال الذي حاولت الخلافة في تلك المرحلة ان تفرضه بالقوة بعد ان اتخذته مذهب الدولة الرسمي . ولا شك أن هذه المقاومة العنيفة والمعارضة القوية كان لها تأثيرها على قضية خلق القرآن ذاتها ، ومدى تمسك الخلافة بها .

ويبدو ان الواثق بدأ يعيد النظر في تلك القضية بعد قتل احمد بن نصر ، ويتخلى عن ذلك القول تدريجياً . وقد قيل ان الواثق رجع عن [4] القول بخلق القرآن وترك ذلك المبدأ في اخر ايامه . بعد ان أدرك مدى ما ترتب على تلك المحنة من مشاكل للدولة وللخلافة وبعد ان تيقن أن تلك العقيدة جعلت الخلافة في وادٍ والأمة في وادٍ آخر .

فقد ذكر السيوطي انه حمل الى الواثق [5] رجل مكبل بالحديد هو ابو عبد الرحمن عبد الله بن محمد الأذرمي ، شيخ ابي داود والنسائي فلما دخل عليهم وكان ابي دؤاد حاضراً مع الواثق . ويبدو انه كان معه نفر اخرين حملوا الى ابن ابي دؤاد ليمتحنهم في القول بخلق القرآن .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية .

(٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ ٢ ص ٧٦ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد او مدينة السلام جـ ١٤ ص ١٨ . الخضري : تاريخ الامم الاسلامية جـ ٢ ص ٢٥٣ .

(٣) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٢٩ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤١ .

(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤١ .

وقد بادرهم عبد الرحمن وهو مقيد موجهاً سؤاله الى ابن ابي دؤاد ان كان رسول الله ﷺ قد علم بذلك الرأي القائل بخلق القرآن فلِمَ يدعُ الناس اليه ؟ ام انه شيء لم يعلمه ؟ . فأجاب ابن ابي دؤاد بأن النبي ﷺ قد علمه : فنظر اليه الرجل المقيد وقال كيف يسع النبي أن يترك هذه العقيدة ولا يدعو الناس اليها ؟ وأنتم لا يسعكم تركها ؟ فبهتوا بتلك الحجة التي افحمهم بها أبو عبد الرحمن . وضحك الواثق وقام قابضاً على فمه ودخل بيتاً ومد رجليه وهو يقول : « وسع النبي ﷺ أن يسكت عنه ولا يسعنا »[1] .

وامر الواثق ان يمنح ابو عبد الرحمن ثلاثمائه دينار وأن يرد الى بلده ولم يمتحن احداً بعدها ومقت ابن أبي دؤاد[2] .

وهكذا استطاع ابو عبد الرحمن بالمنطق السليم الواعي ان يقنع الواثق بالعدول عن القول بخلق القرآن والراجح ان الواثق كان قد أدرك بوعي ثاقب حجم وعمق المشاكل التي ترتبت على تلك العقيدة مما جعله لا يمتحن الناس بعد ذلك . وترك القول بخلق القرآن في سبيل استرضاء الناس والتقرب اليهم كما اتخذ الواثق عدة خطوات للتقرب من العامة .

فكان الواثق يكرم الامويين ورد على بعضهم اموالهم[3] كما احسن الى العلويين احساناً لم يدانيه فيه احد من بني العباس وقد أورد السيوطي قول يحيى بن اكثم : « ما احسن احد الى آل ابي طالب ما احسن اليهم الواثق ما مات وفيهم فقير »[4] . كما ارسل الى اهل الحرمين اموالاً لا تحصى حتى انه لم يوجد بالحرمين في ايامه سائل ، وحتى انه حين توفي الواثق خرجوا يندبونه ويبكون فكانت نساء اهل المدينة يخرجن كل ليلة الى البقيع فيبكين عليه ويندبنه حزناً عليه لكثرة احسانه اليهم[5] . ولما قامت الحرائق في بغداد امر ببناء منازل الناس وقدم اليهم الاموال ، كما اعطى الاموال لأهل فرغانة لحفر نهر هناك[6] وعلى رأس محاولاته للتقرب من

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٤٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) شاكر مصطفى : دولة بني العباس جـ ٢ ص ٤٢١ .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ . ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٣٦ .

(٥) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٧ . القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٦) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٣ .

العامة كان تراجعه في النهاية عن اخذ الناس بالقول بخلق القرآن وان جاء ذلك في آخر عهده .

وفاة الواثق :

وتوفي الواثق يوم الاربعاء لست ليال بقيت من ذي الحجة عام اثنتين وثلاثين ومائتين للهجرة ودفن بقصره الهاروني (١) بسامرا بعد مرضه بالاستسقاء . وكانت مدة خلافته خمس سنين وتسعة اشهر وستة ايام (٢) حسب رواية المسعودي واتفق مع بقية المؤرخين في موعد وفاته .

---

(١) تاريخ الطبري : احداث ٢٣٢ هـ . الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٦ . السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٤ .

(٢) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ٣٢٨ .

الفصل الثالث

العوامل المتعلقة بالجانب البيزنطي

والتي أدت الى السلم

الفصل الثالث

العوامل المتعلقة بالجانب البيزنطي والتي أدت الى السلم

كما وجدنا في الدولة الاسلامية عوامل مختلفة أسهمت في تلك المرحلة في ايثار السلم على الحرب في العلاقات العباسية البيزنطية ، كذلك فان هناك عوامل من جانب البيزنطيين أنفسهم جعلتهم يجنحون الى السلم في علاقاتهم مع العباسيين في تلك المرحلة ، وكما استعرضنا ظروف ومشاكل الدولة الاسلامية علينا أن نناقش ظروف الدولة البيزنطية ، لنقف على أهم العوامل التي من أجلها مالوا الى السلم .

أثناء خلافة الواثق كانت الدولة البيزنطية تحت حكم الأسرة العمورية التي أسسها ميخائيل الثاني ٨٢٠ ـ ٨٢٩ م . فقد تولى الواثق الخلافة في يوم الخميس الثامن عشر من ربيع الأول عام ٢٢٧ هـ الموافق الخامس من يناير عام ٨٤١ م [١] .

وبعد اسبوعين من وفاة المعتصم [٢] ، توفي ثيوفيل وترك ابنه ووريثه في الحكم ميخائيل الثالث طفلاً دون البلوغ [٣] . فتشكل مجلس وصاية على الطفل الصغير برآسة أمه الامبراطورة تيودورا يساعدها أخواها برداس وبتروناس . ويبدو أن تسلا الأخت الكبرى للأمبراطور ميخائيل كان لها الحق في المشاركة في الحكم رسمياً لأن صورتها كانت مرسومة على العملات المعدنية جنباً الى جنب مع صورة ميخائيل الثالث وأمه تيودورا . كما كان يذكر أسمها في القرارات الصادرة عن الحكومة . الا أنه فيما يبدو كانت تنأى بنفسها عن المشاركة في أمور الدولة [٤] تلك كانت الهيئة القائمة بالحكم في الدولة البيزنطية زمن الخليفة الواثق .

والواقع أن ظروف الدولة البيزنطية لم تكن تسمح لها باشعال نار الحرب على

---

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك احداث عام ٢٢٧ هـ . اللواء محمد مختار . التوفيقات الالهامية جـ ١ ص ٢٥٩ .

(٢) فازليف : العرب والروم ص ١٦٦ .

(٣) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٩٤ ، سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٤١٥ .

(٤) Ostrogorsky: Hist. of the Byzantine State P. 219.

الجبهة العباسية ، بل كانت تلك الظروف تحتم عليها مسالمتهم .

لقد كانت الدولة البيزنطية تعاني من بعض المشاكل الداخلية ، كما كانت في حالة ضعف بعد فقدانها لقواعدها البحرية في كريت وصقلية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد رأت الحكومة القائمة ضرورة التركيز على بناء الدولة من الداخل بحيث لم تجد لديها الطاقة لشن حرب ضد العباسيين في تلك المرحلة ، لذلك آثرت السلم على الحرب وأرسلت الى الخليفة الواثق بالله سفارة تطلب منه تبادل الأسرى ، ولما كانت ظروف الخلافة لا تسمح لها بالحرب ، فقد قبل الخليفة هذا العرض فكان السلم . وأول ما يطالعنا في الدولة البيزنطية هو :

١ ـ الصراع الديني :

في عهد الامبراطور ليو الثالث الأيسوري ظهرت مشكلة دينية كبرى استمرت تؤثر في مسار الأحداث في الدولة البيزنطية اكثر من قرن . وقامت تلك المشكلة حول عبادة الايقونات (Icons) وهي الصور والتماثيل التي تمثل السيد المسيح والسيدة العذراء والقديسين .

فقد ظهر رأي جديد يدعو الى تحريم هذه العبادة التي كانت منتشرة انتشاراً واسعاً في الدولة البيزنطية . ويرجع الدكتور سعيد عاشور أن عبادة الايقونات كانت مصحوبة بكثير من البدع والخرافات ، الأمر الذي استنكره المثقفون في الأمبراطورية (١) .

وسواء كان الامبراطور ليو الثالث الأيسوري معتقداً في تحريم عبادة الايقونات أو أنه كان يهدف الى القضاء على نفوذ الأديرة اليونانية التي كانت تشكل خطراً على الدولة (٢) ، فقد شن حملة شعواء على عبادة الأيقونات وأصدر مرسوماً بتحريمها في سنة ٧٢٦ م وقد أيده في ذلك كثير من المثقفين من رجال الجيش والأدارة ورجال الدين (٣) وسادت هذه الاراء الجديدة في الأجزاء الشرقية من الامبراطورية (٤) البيزنطية حيث ساد المذهب المونوفيزيتي (٥) Monophysitism (اليعقوبي) .

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ١٣٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٣١ .

(٣) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P. 162 .

(٤) Ibid P. 160 .

(٥) وهو المذهب الذي يقر بأن للمسيح طبيعة واحدة .

والواقع أن تلك السياسة اللاأيقونية(Iconoclasm) وجدت معارضة قوية في الأجزاء الغربية من الامبراطورية الرومانية وعلى رأسها البابوية ، وان كان الخطر اللمباردي جعل البابا جريجوري الثاني يأخذ جانب الاعتدال في معارضته لسياسة الامبراطور ، الا أن البابا جريجوري الثالث كان أكثر عناداً وصلابة في معارضته لسياسة ليو الثالث حتى انه اصدر ضده قرار الحرمان(Excommunication) سنة ٧٣١م[1].

كما كانت هناك معارضة لسياسة الامبراطور ليو الثالث اللاأيقونية في القسطنطينية نفسها . فعندما قام أحد الضباط بانزال أيقون المسيح(An Icon of Christ) من فوق البوابة البرونزية للقصر الامبراطوري تنفيذاً لأوامر ليو الثالث قامت الجماهير الغاضبة بقتل الضابط على الفور ، ويذكر استروجورسكي تلك الحادثة بقوله : This first attempt at enforcing an iconoclast programme showed how fiercley the population in the Capital resented the Emperor's policy, for the infuriated crowd slew the imperial agent on the spot.[2]

ومنذ عهد الأمبراطور ليو الثالث الأيسوري وحتى نهاية عهد الأسرة العمورية تقريباً والصراع قائم بين الأيقونيين واللاأيقونيين . ثورات واضطهادات عادت على الدولة البيزنطية بأسوأ الاثار من الناحية الاقتصادية والسياسية ، مما كان له أثره الواضح على الحدود وعلى العلاقات بين البيزنطيين والدولة الاسلامية .

وتتضح أهمية ذلك الصراع الديني وأثره على الدولة البيزنطية خلال الحرب الأهلية التي أثارها توماس وهو من صقالبة آسيا الصغرى[3] والتي كانت بحق حرباً مريرة فقد حظي توماس بتأييد العرب وجمع من حوله اتباعاً كثيرين في الحدود الأمامية الشرقية وضعوا أنفسهم تحت إمرته ، وكانت آسيا الصغرى التي تضم شعوباً وعناصر متباينة غالبيتهم من الصقالبة ،مرتعاً خصباً لمثل هذه الحركة . وكانت تلك العناصر السكانية المتباينة تشعر أنها مبعدة عن القسطنطينية لأسباب دينية ،

---

(١) سعيد عاشور أوربا العصور الوسطى جـ ١ ص ١٣٢ .

(٢) Ostrogorsky: Hist of the Byzantine State P. 203 .

(٣) Ibid P. 204 .

لذلك ما أن أعلن توماس نفسه زعيماً للأيقونيين (١) حتى التفت حوله تلك العناصر التي ضمت الفرس والأرمن والأيبيريين (الكرج) وسائر شعوب القوقاز (٢) . من عباد الصور المقدسة .

يتناول أوستروجورسكي ثورة توماس قائلاً : « سرعان ما انتشرت شرارة الثورة في معظم أرجاء آسيا الصغرى لأنها انبعثت من عداوات وصراعات عرقية ودينية . . . » (٣) بينما يقول فازلييف : « أدرك الامبراطور ميشيل إدراكاً تاماً قوة توماس باعتباره رئيساً وزعيماً لحزب الأيقونات وهذه الصفة هي التي اهتم الامبراطور بها ولها وكان يعرف أي أنصار ذوي كفاءة ونفوذ كانوا يتبعون هذا الحزب في آسيا الصغرى » (٤) .

انضم الأيقونيون لتوماس واشعلوا معه نار الثورة رغم أن سياسة الامبراطور ميخائيل الثاني كانت تتسم بالاعتدال وخلال مدة حكمة توقف الجدل الديني كما انتهت موجة اضطهاد الايقونيين وتم اطلاق سراح المنفيين . غير أن ذلك لم يرض المتعصبين الدينيين الذي عبروا عن سخطهم وخيبة أملهم لعدم احترام الأيقونات وتقديسها (٥) . اتخذ ميخائيل الثاني موقفاً متحفظاً بل منع الحديث في موضوع الأيقونات . كل ما في الامر أن الامبراطور كان من مدينة (Phrygia) التي كانت واحدة من معاقل اللاايقونية ، وكانت ميوله اللاأيقونية قد اتضحت حين عهد بتربية ابنه ووريث عرشه ثيوفيل الى اللاأيقوني حنا النحوي(John Gramaticus) .

وفيما عدا ذلك كانت سياسة ميخائيل الثاني الدينية معتدلة الى حد كبير ، ورغم ذلك فقد انضم الأيقونيون الى ثورة توماس ولم تتمكن الامبراطورية من القضاء على تلك الثورة الا بمساعدة البلغار . ويؤكد فازلييف نقلاً عن جورج همر تولس أن ميشيل طلب النجدة من امورتاج (٦) خان البلغار الذي قدم مسرعاً مما

---

(١) Ostrogorsky: Hist of the Byzantine state P. 204 .

(٢) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٦٢ .

(٣) Ostrogorsky: Op. Cit. P. 205 .

(٤) فازلييف : العرب والروم ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٥) Ostrogorsky: Op Cit. P. 203 .

(٦) فازلييف : العرب والروم ص ٤٥ .

اضطر توماس لرفع الحصار عن القسطنطينية .

والذي يعنينا هنا هو الأثر الذي احدثته هذه الثورة في الدولة البيزنطية التي تضعضعت قواها من جراء الحرب الأهلية التي استمرت نحو ثلاث سنين [١] . فكما فشلت ثورة توماس الصقلبي في تحقيق مطالب الحزب الأرثوذكسي الأيقوني ، فقد ترتب عليها تدهور الأحوال الاقتصادية في الدولة البيزنطية . وظهرت الملكيات الكبيرة وأصاب صغار الملاك الخراب بعد أن عجزوا عن تأدية ما عليهم من ضرائب باهظة [٢] .

ويؤكد اوستروجورسكي مغبة ذلك الصراع الديني قائلاً : « كان من الواضح أن الدولة عانت من اضطرابات اجتماعية نتجت عن الجدل الديني » [٣] ويسترسل في موضع آخر فيقول : « أسفرت الفترة التي استغرقتها أزمة اللاأيقونية عن انحسار ملحوظ في مجال الرؤية السياسية يتميز بتقلص واضح لمفهوم الامبراطورية العالمية وانهيار مركز بيزنطة القوي . . . » [٤] .

ويرتبط بالقتال بين العباسيين والبيزنطيين ما حدث من اضطهاد لفرقة البيالسة [٥] ، وما حدث بين الدولة البيزنطية وبينهم من صراع مرير . ولقد ذاع مذهب البيالسة وانتشر في المناطق الشرقية من آسيا الصغرى [٦] ما بين فريجيا وليكاءونيا الى ارمينيا منذ أيام قنسطنطين الخامس . وعاشوا في سلام وتعاون مع الدولة يؤدون لها في الثغور اجل الخدمات خلال عهود الاباطرة المحاربين للأيقونيات في القرن الثامن الميلادي فقد عرف البيالسة بتحريمهم لعبادة الايقونات واعتبارهم اصحاب هذا المذهب عباد اصنام [٧] ، وقد اصبح لهم شأن كبير في الحركة اللاأيقونية .

---

(١) Ostrogorsky: Hist of the Byzantine State P. 205 .

(٢) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٦٤ .

(٣) Ostrogorsky: Op Cit. P. 205 .

(٤) المرجع السابق .

(٥) فرقة دينية مسيحية شديدة التمسك بتعاليم القديس بولس . ويطلق عليهم الدكتور الباز العريني بيالصة بينما يطلق عليهم الدكتور فتحي عثمان بيالقة .

(٦) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State 221 .

(٧) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٣٠٠ .

وبطبيعة الحال دفع البيالسة ثمن موقفهم اللاأيقوني فقد بدأ اضطهادهم في عهد ميشيل الاول رانجابي [1] الذي عهد بتنفيذ سياسته العدائية تجاه البيالسة الى ليو الارمني قائد البند الاناضولي والى اثنين من رجال الكنيسة . كذلك اضطهد ثيوفيل البيالسة فكانوا بين قتيل وسجين [2] . مما دفع قربياس أو قرباص (Karbeas) وهو موظف بولسي في البند الاناضولي الى ان يقود خمسة الاف من اخوانه في العقيدة وراء كبادوكيا ووضع نفسه في خدمة امير ملطية . ومن المحتمل ان يكون قد سبقهم لاجئون من اخوانهم ، وتتابع هروب البيالسة . فكأنما أدى اضطهاد هذه الفرقة الى التجائهم الى أمير ملطية . ويؤكد اوسترجورسكي ان البيالسة كانوا يحاربون في صفوف العرب ضد الدولة البيزنطية [3] وقد برهن البيالسة على انهم خصم عنيف للدولة بعد ان كانوا من قبل درعاً حامياً لها أدوا لصالحها أجل الخدمات . وقد استقروا في ثلاث مدن رئيسية على حدود ارمينية في منطقة سيواس الجبلية هي أرجايوس ، أمارا ، وتفريك أو تفريجي .

ولا شك ان صراع الدولة البيزنطية مع البيالسة وموقف هؤلاء منها والخلاف العقائدي بينهم وبين الدولة انعكس بصورة واضحة على العلاقات العباسية البيزنطية ، فقد اثار البيالسة في وجه الدولة المشكلات واستنفذوا الكثير من جهدها وطاقتها مما شغلها عن حرب العباسيين ويقول فازلييف في ذلك : « اصبح عداء البوليسيين الذين كانوا حماة الامبراطورية خطراً مستمراً على نفس الامبراطورية لولا ان الخلافات الداخلية التي قامت بين بعض رؤساء العرب خففت بعض الشيء من حدة هذا الخطر على الروم » [4] .

كان ثيوفيل لا أيقونياً متشدداً وفي عهده أطلقت اللاأيقونية آخر سهم في جعبتها ففي سنة ٨٣٧ م ارتقى حنا النحوي زعيم اللاأيقونيين سدة البطريركية فقام باضطهاد الايقونيين . وعلى الرغم من ان الامبراطور والبطريرك بذلا كل ما في وسعهما من اجل احياء الحركة اللاايقونية الا أن اخفاقهما في تحقيق ذلك كان جلياً [5]

(١) فازلييف : العرب والروم ص ٢٠٢ .

(٢) المصدر السابق . فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية جـ ٢ ص ٢٢١ .

(٣) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State. PP. 221-222 .

(٤) فازليف : العرب والروم ص ٢٠٤ .

(٥) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P. 209 .

ومات ثيوفيل في ٢٠ يناير سنة ٨٤٢ ولم تقم بعده للايقونية قائمة .

ذلك ان الامبراطورة تيودورا الوصية على عرش ابنها الطفل ميخائيل الثالث تنكرت لسياسة زوجها وكشفت القناع عن ميولها وعقائدها الايقونية فعزلت البطريرك حنا النحوي والأساقفة اللاأيقونيين ودعت مجمعاً في القسطنطينية لاعادة الايقونية وتسفية اللاأيقونية(Iconoclasm) وهكذا لم يمض ثلاثون يوماً على وفاة ثيوفيل حتى انقلبت سياسته الدينية رأساً على عقب [١] . انعقد المجمع الديني عام ٨٤٣ ، وتقرر فيه اعادة عبادة الصور وجرى الاحتفال بذلك باقامة قداس بكنيسة القديسة صوفية في اول احد من الصيام الكبير (١١ مارس سنة ٨٤٣) وتقرر ارجاع الايقونات الى المواضع التي رفعت منها في ذلك اليوم. وقد حضرت الامبراطورة تيودورا وابنها الامبراطور الطفل ميخائيل الثالث تلك الاحتفالات في كنيسة القديسة صوفية [٢] كما حضر البطريرك ورجال الدين وكبار رجال الدولة .

وأيد مجلس الوصاية الامبراطورة في جميع تلك الخطوات وعملوا جميعاً على اعادة عبادة الايقونات وتقديسها . ومما تجدر الاشارة اليه ان هؤلاء الحكام الجدد على الرغم من جذورهم الشرقية فقد رأوا في استعادة عبادة الايقونات مهمة من المهام العاجلة . وعادت عبادة الايقونات وتقديسها في مارس سنة ٨٤٣ م بعد تنحية حنا النحوي عن كرسي البطريركية وتعيين ميتوديس مكانه وانصبت الاضطهادات العنيفة على اللاأيقونيين فاخذوا يهجرون البلاد .

وتخليداً لتلك الحادثة تحتفل الكنيسة [٣] الارثوذكسية الاغريقية كل عام في اول يوم احد من ايام الصوم الكبير . وتنقطع عن اكل اللحم تعبداً ويسمى هذا الاحتفال بعيد الارثوذكس الذي يخلد ذكرى الانتصار على اللاأيقونية والهرطقات القديمة [٤] .

والواقع ان قمع وكبح جماح اللاأيقونية وضع نهاية لفترة من الصراعات المذهبية داخل الدولة البيزنطية . ومن المؤكد ان ذلك الجدل والصراع الديني الذي

---

(١) سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٤١٥ .

(٢) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٩٤ .

(٣) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P. 220.

(٤) Ibid. P. 220.

تعتبر ثورة توماس الصقلبي حلقة من حلقاته الطويلة ، وكذلك صراع الدولة مع البيالسة كل ذلك كان من أنه الاضرار بالدولة البيزنطية فقد اصابها الضعف بعد تخريب اكثر الاقاليم غنى ، وبعد ايقاف التيار السياسي العام (١) بل تجاوز ذلك الى اصداء تجاوب بها أقصى الغرب ذلك ان المسلمين في الاندلس وافريقية شجعتهم تلك المشاكل الداخلية في الدولة البيزنطية ومكنتهم من فتح كريت وصقلية مما زاد في ضعف الدولة ، ومما سيكون له ابعد الاثر على العلاقات العباسية البيزنطية في تلك المرحلة . كما انه من المؤكد ان تلك المشاكل والاحداث استغرقت حكومة تيودورا ومجلس الوصاية مما جعلهم يركنون الى السلم زمن الواثق .

ومن الجدير بالذكر ان اندحار اللاأيقونية كان ذا اهمية كبيرة بالنسبة للعلاقة بين الكنيسة والدولة (٢) لأنه كان يعني إحباطاً لكل محاولة لاخضاع الكنيسة اخضاعاً تاماً لسلطة الدولة ومع ذلك فان الكنيسة لم تحقق لنفسها الحرية التي تطمح اليها والتي يتطلع اليها رجال دير ستوديون . والواقع ان ثيوكتستوس مستشار الامبراطورة تيودورا كان يميل الى الاعتدال والتسامح نحو اللاأيقونيين الا ان سياسته المعتدلة هذه لقيت معارضة شديدة من المتحمسين لعبادة الايقونات في الكنيسة البيزنطية التي انقسمت على نفسها (٣) بسبب صراعها مع اللاأيقونيين . واشتد رهبان دير ستوديون في مهاجمة البطريرك ميثوديس وشنوا عليه حملة شعواء ترتب عليها صدور قرارات الحرمان ضد هؤلاء الرهبان وطردهم من الكنيسة (٤) . الا ان البطريرك ميثوديس مات في ١٤ يونيه سنة ٨٤٧م وخلفه على البطريركية اجناتيوس وهو ابن الامبراطور السابق ميخائيل رانجابي الذي سلك طريق الرهبنة . وبالرغم من ان اجناتيوس لم يقم بأي دور في المعارضة الموجهة ضد زعماء الكنيسة ، الا انه كان يؤيد آراء الحزب الحاكم كما لم يستطع التوفيق بين الاحزاب الكنسية المتصارعة فوجد اجناتيوس نفسه متورطاً في صراع أشد مرارة (٥) .

وهكذا كان الصراع الديني في الدولة البيزنطية زمن الخليفة الواثق يشغل

---

(١) فازليف : العرب والروم ص ٥١ .

(٢) Ostrogorsky. Hist. Of the Byzantine State P. 220 .

(٣) Ibid. P 220 .

(٤) Ibid. P 220 .

(٥) Ibid. P. 221.

الدولة من شعب وحكومة فلم يكن لديها من الجهد والوقت ما يكفي لاشعال الحرب مع العباسيين مما اضطرها الى اللجوء الى السلم .

٢ ـ الاهتمام بالامور الداخلية في الدولة :

وعلاوة على ذلك فقد تحول مسار السياسة البيزنطية كلها تحولاً تاماً (١) عندما اصبح تيوكتستس(Theoktustos) حاسب وأمين بيت المال ، فقام بابعاد منافسه برداس ، واصبح بذلك المستشار الوحيد للامبراطورة تيودورا (٢) .

ويبدو ان ثيوكتستس بعد ان صارت مقاليد الامور في يده ، اراد ان يعيد بناء الدولة من الداخل وما ذلك الا لتقويتها ، فبذل جهوداً في الميدان الاقتصادي والميدان الثقافي على السواء . اذ قام بكل ما من شأنه نشر التعليم ورفع مستواه في الدولة البيزنطية مما أدى الى أحياء النهضة الثقافية (٣) الجديدة . كما أدت سياسته الاقتصادية الحكيمة الى توفير احتياطي كبير من (٤) الذهب داخل الدولة مما ادى الى الرخاء الاقتصادي وما يترتب على ذلك من نتائج تنعكس على الدولة خاصة بعد تدمير مواردها المالية وما وقعت فيه من فوضى نتيجة لسياسة ايرين الاقتصادية (٥) .

فمن اجل ان تحتفظ ايرين بما تبقى لحكومتها عند البيزنطيين من مكانة بعد تدهور سياستها الخارجية ، لم تحفل بما تقتضيه الميزانية من قيود والتزامات . فتجاوزت عن كثير من الضرائب المقررة على السكان ، وامعنت في منح امتيازات للأديرة لما للرهبان من اهمية في تأييد ومساندة ايرين وما ترتب على ذلك من رضاء البيزنطيين عن حكمها . كما قررت الغاء ضريبة البلدية التي يدفعها سكان العاصمة والتي كانت عبئاً ثقيلاً عليهم . كما انها خفضت ضرائب التصدير والاستيراد المقررة على الموانى (٦) وسياسة ايرين هذه وان امتدحها رئيس ديرستوديون الا انها أدت الى تدمير الموارد المالية للدولة البيزنطية ولم تلبث البلاد ان وقعت في فوضى وصفها استروجورسكي بأنها عنيفة .

---

(١) Ostrogorsky: Hist of the Byzantine State P 221 .

(٢) Bury: A History of the Eastern Roman Empire P. 155 .

(٣) الباز العريني : الدولة البيزنطية .ص ٢٩٥ .

(٤) المصدر السابق . ص ٢٩٥ .

(٥) Ostrogorsky: Hist . Of the Byzantine State P. 220 .

(٦) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٢٨ .

فكأنما اراد تيوكتستس مستشار الامبراطورة والموجه لسياسة الدولة البيزنطية في تلك المرحلة ، ان تكون هذه الفترة فترة بناء داخلي للدولة وتقوية لها واهتمام بامورها الداخلية ، وهذا يوضح ويفسر عدم رغبة البيزنطيين في حرب العباسيين زمن الواثق وايثارهم للسلم في تلك المرحلة . يصف الدكتور الباز العريني اوضاع الدولة البيزنطية زمن الواثق فيقول : « لم تكن احوال بيزنطة وقت ذاك تدعو الى المضي في قتال المسلمين . . »[1] .

وفعلاً تمكن ثيوكتستس والحكومة القائمة من توجيه قدر كبير من جهودهم الى الميدان الداخلي واخذت احوال الدولة البيزنطية في التقدم فعلاً فكانت بداية النهضة التي ستستمر لتتضح تدريجياً . وقد لمس استروجورسكي تقدم الدولة البيزنطية في المرحلة التالية وذكر أن جيوشها تميزت بروح جديدة فياضة بالشجاعة والاستبسال[2] إبان حروبها مع العرب في عام ٨٥٣ م / ٢٣٩ هـ[3] حين ظهر اسطول بيزنطي كبير على ساحل دمياط[4] ، اي بعد وفاة الواثق بنحو سبع سنوات . ونلمس في حديث استروجورسكي عن تلك الحملة البيزنطية على دمياط مدى انتعاش احوال البيزنطيين .

بيد ان الفترة الحاسمة من النشاط السياسي والحضاري في تاريخ الدولة البيزنطية بدأت بالفعل بعد الانقلاب الذي حدث سنة ٨٥٦ م / ٢٤٢ هـ والذي كان من نتيجته تحول السلطة الى الامبراطور الشاب ميخائيل الثالث[5] والذي كان يعاونه في تسيير شؤون الدولة خاله برداس . ويمكننا ان نلمح دلائل التقدم السياسي في الدولة في تلك الفترة فقد تحققت الطموحات الثقافية والحضارية . وتجلت ثقافة بيزنطة بكل روعتها وجلالها فأصبحت الجامعة في قصر ماجنورا من اهم مراكز العلم في كافة الميادين ، فقد جلب اليها برداس اعظم علماء واساتذة العصر مثل ليو عالم الرياضة الموسوعي وكذلك فوتيس اعظم معلم في عصره[6] .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٩ .

(٢) Ostrogorsky: Hist. of the Byzantine State P. 222

(٣) اللواء محمد مختار باشا : التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية جـ ١ ص ٢٧١ .

(٤) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام ٢٣٨ هـ . الكندي : الولاة والقضاة ص ٢٠١ .

(٥) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P. 222 .

(٦) Ibid.

وتستمر النهضة وتتحسن الاحوال في الدولة البيزنطية لتصبح في عهدها الذهبي اثناء حكم الأسرة المقدونية ٨٦٧ م / ٢٥٣ هـ - ١٠٥٧ م / ٤٤٩ هـ) ويوضح احد الباحثين المحدثين [١] تلك الحقيقة قائلاً : « هكذا بلغت دولة الروم ذروة مجدها ايام الاسرة المقدونية في وقت ضعف فيه العرب . وتشتت قواهم وتفتتت وحدتهم » وفي موضع آخر يقول : « وقفت بيزنطة موقف الدفاع عن نفسها بسبب الضعف الذي دب في أوصالها في وقت كانت فيه كفة العرب هي الراجحة ، واستمر الحال هكذا الى ان اعتلت الأسرة المقدونية عرش بيزنطة فحدث انقلاب في ميزان القوى في المنطقة » [٢] .

ويؤكد فازلييف تلك الحقيقة قائلاً : « وكانت الامبراطورية الرومية تقيل نفسها من عثرتها فإنّا نستطيع ان نسمى عصر الاسرة المقدونية عصر بعث حقيقي لهذه الامبراطورية » [٣] .

أي ان ثيوكتستس والامبراطورة تيودورا اثناء خلافة الواثق أرادا بناء الدولة من الداخل وكان ذلك، سبباً من اسباب ميلهم الى السلم ، ونجحت جهود تيوكتستس في وضع بذور النهضة التي استمرت بعد ذلك لتتضح جلية في عصر الاسرة المقدونية .

٣ ـ تأثير صدمة حرب المأمون والمعتصم :

ومن العوامل التي دعت البيزنطيين لايثار السلم زمن الواثق ، اضطراب الدولة البيزنطية وهبوط الروح المعنوية بها وخشيتهم من هزائم جديدة يوقعها بهم المسلمون .

ولا شك ان انخفاض معنوياتهم نتج عن تأثير صدمات الحروب التي قام بها كل من المأمون والمعتصم والضربات القاضية التي تلقتها الدولة البيزنطية على يد كل منهما وما احرزاه من انتصارات عسكرية كان لها صداها البعيد . ويعبر فازلييف عن تلك الحقيقة في معرض حديثه عن فداء الاسرى عام ٢٣١ هـ فيقول : « ولم يكن

---

(١) جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين ص ١٤٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٤٢ .
(٣) فازلييف : العرب والروم ص ٢٠ .

الروم يتمنون الحرب كذلك ، فانهم كانوا في غمرة الفشل المستمر »[1] .

بل يمكننا القول ان جهود الرشيد كانت قد تركت جرحاً عميقاً في جسم الدولة البيزنطية [2] لم تستطع ان تفيق منه في سهولة ويسر بدليل انها لم تحاول أن تستغل التصدع الذي حدث في الدولة العباسية اثناء الفتنة بين الامين والمأمون . وقد استطاع المأمون ان يعيد للدولة وحدتها واستمرت مكاسب عصر الرشيد وفعالية الدولة في مواجهة الخطر لم تفتر او تتغير فكانت الحملات التي قادها المأمون من أقسى الحملات على البيزنطيين واكثرها إذلالاً لهم وطالما قادها المأمون بنفسه .

بدأ المأمون عملياته الحربية ضد الروم في المحرم من عام ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م وكان معه ابنه العباس ومن القادة أشناس وجعفر الخياط ، عبر المأمون بجيشه درب سيسيليا ودخل أرض الروم ، واشتبك معهم في كبادوكيا وكانت اعنف الاشتباكات في جند المطامير . حتى استسلم كثير من الحصون بدأت بحصن ماجدة . كما افتتح المأمون في هذه الصائفة أنقرة [3] وخربها ويطلق عليها السيوطي (قرة) وهو الاصح ، ورجح فازلييف أن قرة هذه هي حصن قورن في كبادوكيا عند كتاب الروم[4]. والواقع ان المأمون لم يأل جهداً في استغلال الظروف التي كانت سائدة في الدولة البيزنطية والتي لم تسمح لها بتركيز كل قواتها على مسرح الحرب في آسيا الصغرى اذ كانت منشغلة في نفس الوقت بالقتال في صقلية [5] .

ثم غزا المأمون ارض الروم في عام ٢١٦ هـ / ٨٣١ م بعد غارة ثيوفيل على طرسوس والمصيصة واستمر المأمون في حملته ثلاثة اشهر[6] من اول يوليه الى آخر سبتمبر . وذكر فازلييف ان ثيوفيل لم يكن راغباً في الحرب فلم يكد المأمون يجتاز الحدود حتى جاءته رسل ثيوفيل يطلبون الصلح باسم الامبراطور الذي كان قد كتب اليه كتاباً بدأ فيه باسمه ، فرفض المأمون ان يقرأ الكتاب لأنه مبدوء باسم ثيوفيل ورده ، مما اضطر ثيوفيل ان يكتب الكتاب مرة اخرى بدأه فيها باسم المأمون قائلاً :

---

(١) فازليف : العرب والروم ص ١٧٥ .

(٢) حسن محمود العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ١٧٢ .

(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٦٥ السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٠٨ .

(٤) فازليف : العرب والروم ص ٩٤ هامش ٤ .

(٥) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P.208 .

(٦) فازليف العرب : العرب والروم ص ١٠٠ .

« لعبد الله غاية الناس في الشرف ملك العرب من ثيوفيل بن ميخائيل ملك الروم .
« [1] عرض الامبراطور الصلح على المأمون على ان يرد عليه اسرى المسلمين عنده ، وان يدفع له مائة الف دينار [2] نظير ان يوقف المأمون الحرب ويكف عنهم خمس سنين ، فلم يستجب المأمون لطلب الصلح [3] .

توغل المأمون بجيشه في اقليم كبادوكيا كما فعل في العام الماضي وكان بصحبته ابنه العباس واخوه ابو اسحاق (المعتصم) وفتح المأمون اثنى عشر حصناً [4] وتفرق الجيش عدة فرق في عدة طرق واغار المأمون بنفسه على اقليم المطامير فظفر بعدد كبير من الاسرى . وكان اكبر نصر قد حققه العباس بن المأمون الذي التقى بالامبراطور نفسه في معركة انتصر فيها المسلمون نصراً حاسماً وغنم العباس فيها غنائم كثيرة [5] .

وهال ثيوفيل كثرة هزائمه وخسائره امام جيش المأمون فارسل اليه ثانية يطلب الصلح يقول فازلييف : « قدر ثيوفيل استحالة استمرار الحرب فبعث احد اخصائه الى الخليفة » [6] بينما يقول استروجورسكي : « تتقدم الجيوش العربية في اراضي الدولة البيزنطية ويسارع الامبراطور ببث سفاراته للخليفة محملة بالهدايا الثمينة وطلب الصلح استتباباً للأمن وطمعاً في السلم » [7] . ولم يكلف المأمون نفسه الرد على الامبراطور ويرجح فازلييف ان المأمون لم يغادر الاراضي البيزنطية الا بسبب دخول فصل الشتاء [8] .

وفي عام ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م خرج المأمون بنفسه لحرب البيزنطيين فتوجه اولاً الى حصن لؤلؤة وهي نقطة حصينة لها اهميتها الاستراتيجية اذ تقع على الطريق المار بدروب كيليكيا بين طرسوس والطوانة ، ويشرف حصن لؤلؤة على هذا الدرب .

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٦٥ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) فازليف : العرب والروم ص ١٠١ .
(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٦٥ ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٢٧٠ .
(٥) فازليف : العرب والروم ص ١٠٢ .
(٦) المصدر السابق ص ١٠٣ .
(٧) Ostrogorsky : Hist. Of the Byzantine State P. 208.
(٨) فازليف : العرب والروم ص ١٠٤ .

وحاصر المسلمون حصن لؤلؤة فصمد مائة يوم مما اضطر المامون ان يقيم حصنين امامه وكان يشرف على العمليات الحربية اخوه ابـو اسحاق (المعتصـم) كما كان القائد العام للحصار هو عجيف بن عنبسة وانتهى الأمر بسقوط الحصن في يد المسلمين [1] مما اثار الهلع في نفس ثيوفيل فارسل الى المأمون يعرض عليه الصلح وتبادل الاسرى [2] . وقد أورد الطبري نص خطاب ثيوفيل ورد المأمون .

وفي اثناء ذلك كان المأمون يعد حملة جديدة خرج بها الى ارض الروم سنة ٢١٨ هـ ولم يكن ثيوفيل راغباً في الحرب ، لذلك لم يكد المأمون يعسكر قرب نهر البدندن حتى بعث اليه ثيوفيل رسولاً يحمل خطاباً يعرض فيه الصلح بشروط كلها في صالح المسلمين ، فقد عرض ثيوفيل ان يدفع البيزنطيون للمأمون كل ما انفقه من مال على هذه الصائفة ويرد اليه كل ما لديه من اسرى المسلمين بغير فداء ، وان يصلح ما أفسد الروم من ثغور المسلمين . كل ذلك نظير أن يرجع المأمون بقواته عن الاراضي البيزنطية وينهي الحرب [3] ليسود السلام .

رفض المأمون كل تلك العروض المغرية التي عرضها البيزنطيون ، ودعاهم الى الاسلام وخيرهم بين الاسلام والجزْية والسيف وأذلهم فاجابه خلق من الروم الى الجزية [4] . وأورد المسعودي نصوص تلك الرسائل بين ثيوفيل والمأمون . وأجمعت المصادر على ان المأمون دخل ارض الروم واحرز نصراً كبيراً واستمر في حرب البيزنطيين حتى فتح خمسة عشر حصناً وانصرف من غزوته فنزل البدندن [5] قرب طرسوس حيث توفى لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب [6] ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م [7] .

وهكذا أرهب المأمون البيزنطيين وأذلهم حتى وفاته . ولا ينسى البيزنطيون ابداً تأييد المأمون لتوماس الصقلبي في ثورته التي كانت ذات نتائج سياسية واجتماعية

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٢٦٧ وما بعدها . فازليف : العروب والروم ص ١٠٧ .
(٢) فازليف : العرب والروم ص ١٠٨ .
(٣) اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٦٩ فازليف : العرب والروم ص ١١١ . الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٨٠
(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٤٢ .
(٥) المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٣٢٠ .
(٦) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٤٥ .
(٧) اللواء محمد مختار : التوفيقات الالهامية في مقارنة التواريخ الهجرية جـ ١ ص ٢٥٠ .

ودينية [1] عميقة في الدولة البيزنطية . وقد عاش توماس هارباً في بلاد المسلمين خمسة وعشرين سنة وقد لاحظ فازلييف ان هناك حلف حقيقي بين المأمون وبين توماس ضد مؤسس الأسرة العمورية . حتى ان أيوب بطريرك انطاكيا توج توماس امبراطوراً . كما كانت هناك فرق عربية في جيش توماس تحارب معه ، أسر بعضها عند هزيمته ويرى فازلييف ان حلف توماس مع العرب كان من اهم عوامل هزيمته ، فقد أبعده هذا التحالف عن الحزب الأرثوذكسي الذي أيده في البداية على أنه حامي الصور ، والذي لم يكن يرتضي حلفه مع المسلمين [2] .

وان كان الخليفة المأمون قد انهزم في شخص توماس على حد تعبير فازلييف حتى اضطر أن يوجه اهتمامه لمشاكل الخلافة الداخلية ، الا أن ثورة توماس كانت ضرراً [3] بل وبالا على الامبراطورية ، فان أمرها لم يقف عند تخريب اكثر الاقاليم البيزنطية غنى ولا عند ايقاف التيار السياسي العام ، بل تجاوز ذلك الى أصداء تجاوب بها الغرب البعيد ذلك أن عرب الأندلس وافريقية استغلوا المشاكل البيزنطية الداخلية فافتتحوا كريت وصقلية .

ولم يُضعف موت المأمون من قوة العباسيين ازاء البيزنطيين ، بل يمكن القول أن القوة العسكرية للدولة العباسية بلغت ذروتها في عهد فارس بني العباس المعتصم بالله محمد بن الرشيد الذي أراد ان يحقق ما حققه السلاجقة فيما بعد من تدمير الدولة البيزنطية بتوجيه ضربات قاصمة لها . يقول المسعودي : «وغزا المعتصم الروم فأنكاهم نكاية عظيمة لم يسمع بمثلها لخليفة ، وشتت جموعهم وخرب ديارهم وفتح عمورية بالسيف وقتل منها ثلاثين الفاً وسبى مثلهم» [4] . تمكن المعتصم من فتح عمورية في رمضان ٢٢٣ هـ فقتل وسبى جميع من فيها ، وخرب وأحرق [5] كل ما مر به من بلاد الروم وانهزم الامبراطور فكانت كارثة ، وانكسرت شجاعة الامبراطور على حد قول فازلييف ، مما جعله يتوسل الى المعتصم ليقبل الصلح وعرض عليه شروطاً كلها في صالح المسلمين فلم يصغ المعتصم لتوسلات الامبراطور وهزيء

---

(1) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P 205-7 .

(٢) فازلييف : العرب والروم ص ٣٧ أ ٣٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٥١ .

(٤) السيوطي تاريخ الخلفاء ص ٣٣٦ .

(٥) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٧٦ .

برسله واتهم الروم بالجبن وحجز الرسل الى ان أخذ عمورية [1] .

وقد اورد استروجورسكي اخبار حملة المعتصم على عمورية وأيد ما ذكرته المصادر العربية واكد ان هذه الحملة كانت موجهة الى اهم المراكز البيزنطية في آسيا الصغرى . فقد وجه المعتصم قسماً من جيشه نحو الشمال الغربي وهزم الجيش البيزنطي الذي يقوده الامبراطور بنفسه في معركة طاحنة في دازمانا في ٢٢ يوليه . واحتل انقره ثم توجه المعتصم بالجزء الاكبر من الجيش وضرب عمورية في ١٢ اغسطس وكان لقصف عمورية وسقوطها وما حل بها من الدمار تأثير كبير تردد صداه في انحاء الدولة البيزنطية فقد كانت عمورية اكبر واهم حصن في ثغر الاناتوليك [2] .

لقد كان لصدمة عمورية والأهوال التي اذاقها المعتصم للبيزنطيين أسوأ الأثر على نفس الامبراطور ثيوفيل وذكر فازلييف ان حملة عمورية وما صحبها من كوارث ، كانت السبب في مرض الامبراطور بالحمى التي اشتدت حتى قضت عليه . بلغت حملة عمورية من القسوة والفظاعة درجة جعلت ثيوفيل يوفد الرسل الى بلاط ملك الفرنجة لويس التقي والدولة الاموية بالاندلس يستنجد بهم [3] .

ففي أوائل القرن الثالث الهجري في عام ٢٢٥ / ٨٣٩ - ٨٤٠ م ، ارسل ملك الروم توفلس (ثيوفيلوس) وزوجته تيودورا مندوباً عنهما اسمه قرطيوس الى الأمير عبد الرحمن الأوسط ، من سلالة عبد الرحمن الداخل ومعه هدية ليحضاه على محالفة ضد العباسيين وخليفتهم المعتصم ، الذي خاض حروباً قوية ضد الروم ، ويطمعانه في ملك العباسيين في الشرق ، ويذكرانه بالعلاقات السلمية السابقة التي قامت في وقت ما مع الروم وهم في الشام ، ولكن عبد الرحمن الاوسط الذي استقبل سفارة ملك الروم احسن استقبال ، رد على هذه السفارة بسفارة من قبله أرسلها الى القسطنطينية على رأسها الشاعر يحيى الغزال ومعه هدية لطيفة . وقد ضمن رده اعتذار لعدم صلاحية الأحوال لاسترداد ملكه في الشرق ، وان أظهر عداءه للعباسيين [4] .

---

(١) فازلييف : العرب والروم ص ١٤٣ .

(٢) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P 208 .

(٣) فازلييف : العرب والروم ص ١٥٧ .

(٤) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ٧٨ - ٧٩ .

واكد فازلييف أن ثيوفيل طلب من لويس التقي امبراطور الفرنجة أن يعينه بجيش كبير ، كما طلب منه أيضاً الهجوم على أملاك العرب في افريقية لشغل انتباه المعتصم وتفريق جموعه وتشتيت قواه [1] .

هذه السفارات او الوفادات وان لم تأت بنتائج ايجابية الا أنها تكشف عن مدى اندحار البيزنطيين وفزعهم وانهيارهم من جراء حملة عمورية ، وظلت صورة تلك الكوارث ماثلة في اذهان الكثيرين منهم ، مما جعلهم زمن الواثق لا يجرؤ ون على الحرب ، فآثروا السلم وطلبوا الفداء .

٤ ـ فقدان البيزنطيين لقواعدهم البحرية في كريت وصقلية :

عند قيام الدولة الاسلامية كانت الدولة البيزنطية تتمتع بمركز قوي في البحر المتوسط فمنذ عهد الامبراطور جستنيان نلمح قوة الأسطول البيزنطي وسيادته على البحر المتوسط إذ لعب هذا الاسطول دوراً هاماً في حروب الامبراطورية [2] ضد الوندال في شمال افريقيا ، والقوط الشرقيين في ايطاليا والقوط الغربيين في اسبانيا وظلت سيادة البيزنطيين على البحر المتوسط قائمة الى ان بدأ المسلمون ينازعونهم تلك السيادة ، فقد بدأ بناء الاسطول الاسلامي منذ عهد معاوية الذي حرص منذ ان استقر له الأمر بالشام على ان يوجه الدولة الاسلامية وجهة غربية بحرية نحو البحر المتوسط فكانت موقعة ذات الصواري عام ٣٤ هـ وما احرزه المسلمون فيها من نصر بحري .

واتجهت جهود المسلمين نحو القسطنطينية وان لم يتمكنوا من فتحها . واستمر الأمويون على سياسة معاوية في الاهتمام بالبحر المتوسط . وكان من المتوقع ان يستمر اهتمامهم ويزداد بالبحر المتوسط كطريق للمواصلات والتجارة ، ولكن بقيام الدولة العباسية وانتقال الخلافة من دمشق الى بغداد اتجهت الدولة الاسلامية اتجاهاً شرقياً اسيوياً ، وانصرف المسلمون عن البحر المتوسط مما أغرى بيزنطة باهمال شؤ ون قواتها البحرية منذ عام ٨٠٠ م تقريباً وربما يرجع ذلك الى عهد ايرين ونقفور [3] وسيكون لذلك اثره على مركز بيزنطة في البحر المتوسط فيما بعد . لقد

(١) فازلييف : العرب والروم ص ١٦٣ .

(٢) سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ١١٢ وما بعدها .

(٣) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية جـ ٢ ص ٣٤٨ .

ضعف الاسطول البيزنطي حتى كان أضعف من ان يحمي شواطيء الروم . وكذلك ذكر استروجورسكي ان البيزنطيين لم يوجهوا لأسطولهم اي اهتمام منذ سقوط الدولة الاموية [1] وكان من جراء اهمالهم للاسطول ما لحقهم من هزائم في كريت وصقلية .

ومن جهة اخرى فان ثورة توماس الصقلبي وما صحبها من حرب اهلية استمرت زهاء ثلاث سنين ترتب عليها تضعضع قوى الدولة البيزنطية ويؤكد فازلييف أن فتح المسلمين لكريت وصقلية كان نتيجة لثورة توماس [2] فتلك الثورة وتلك المشاكل الداخلية استغرقت الامبراطورية وشغلتها عما يدور في البحر المتوسط من احداث وكانت فرصة سانحة للمسلمين ان يدعموا مركزهم في البحر المتوسط .

وكذلك فان الازمة اللاأيقونية كانت من العوامل التي افقدت [3] بيزنطة مركزها القوي في البحر المتوسط ، بدليل أنه بعد انتهاء ذلك الصراع وبعد ان عادت عبادة الأيقونات استؤنفت الحرب ضد العرب وقاد ثيوستستس بنفسه حملة بحرية على جزيرة كريت وتم استعادة الحكم البيزنطي عليها مرة اخرى وان كانت لفترة قصيرة (٨٤٣ ـ ٨٤٤) [4] . كما ظهر أسطول بيزنطي كبير على ساحل مصر التي كانت تقدم العون والمساعدة لحكام كريت ، وقد اعمل الاسطول البيزنطي في دمياط حرقاً وتخريباً . وهكذا يمكن القول بان الفتن والصراع الديني كانت من عوامل ضعف البحرية البيزنطية .

فتح المسلمين جزيرة كريت :

ثار أهل الربض [5] بقرطبة عام ٢٠٢ [6] هـ ، ذلك في عهد الحَكَم الاول لذلك لقب بالحَكَم الربضي . وكان والده هشام الراضي قد ،رم الفقهاء ورجال الدين وزاد من نفوذهم ، فعظم شأنهم وتجاوزوا حدودهم . فلما تولى الحَكَم الامارة

(١) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P 206 .

(٢) فازليف : العرب والروم ص ٥١ .

(٣) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P 221 .

(٤) المصدر السابق .

(٥) مجهول : اخبار مجموعة ص ١١٨ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٥ .

حاول ان ينتزع منهم سلطتهم ، ويكف أيديهم عن التدخل في شؤون الدوله ، فانقلبوا عليه وسخطوا على تصرفاته واستغلوا نفوذهم الروحي في اثارة الناس على الأمير . وحاول بعض الفقهاء ان يغدروا به عام ١٨٩ هـ فانكشف امرهم وقبض عليهم الامير [١] وصلبهم ، وامتلأت النفوس بالسخط بعد مقتل الثوار وحدث في ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ هـ (مارس ٨١٨ م) حادث بسيط أشعل نيران الفتنة بين سكان الربض بقرطبة . فقد قتل احد مماليك الامير غلاماً ، فاشتد غضبهم ولم يكتفوا بقتل مملوك الامير بل خرجوا يهتفون بخلع الامير [٢] وكانت ثورة عاتية هجموا فيها على قصر الامير الحكم بقرطبة ولم يستطع النجاة الا بصعوبة .

استخدم الحكم الربضي اساليب البطش والشدة ، وقمع الفتنة [٣] وأمر بتدمير الربض (الحي الثائر) فطلب من سكانه ان يخرجوا من الاندلس خلال ثلاثة ايام . فذهب فريق منهم الى مدينة فاس ببلاد المغرب ، واقاموا بالحي المعروف اليوم بحيّ الأندلسيين [٤] ، بينما اتجه الفريق الآخر بحراً الى الاسكندرية واستولوا عليها ، وكانوا نحو خمسة عشر ألفاً [٥] عدا النساء والاطفال ولم يلقوا معارضة عند نزولهم بمصر ، اذ كانت الفوضى مستحكمة في البلاد ، والثورات مشتعلة في كل مكان ، وكانت الاسكندرية وقتئذ عرضة لهجمات العرب من قبيلتي لخم وجذام واستغل الربضيون هذه الفرصة واستولوا على الاسكندرية [٦] ـ ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م وفي هذه الأثناء قلد الخليفة المأمون قائده عبد الله بن طاهر ولاية مصر فاستتب له الأمر في الفسطاط ثم تمكن من ارغام الربضيين على مغادرة الاسكندرية ، فاستقر رأيهم على ان يتخذوا كريت مقاماً لهم اذ انهم ارسلوا في عام ٨٢٦ م اسطولاً مؤلفاً من عشرين سفينة الى كريت عادت بكثير من الغنائم والأسرى بعد ان درست المنطقة وعرفتها جيداً [٧] .

---

(١) ابن القوطية : افتتاح الاندلس ص ٦٨ ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧١ .
(٢) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس ص ٢٢٤ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٦ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٧ .
(٥) الكندي : الولاة والقضاة ص ١٩٣ .
(٦) عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس . ص ٢٢٤ .
(٧) ابراهيم العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ١٠٧ .

أغرى الربضيين بكريت ما اشتهرت به الجزيرة من الخصوبة والثراء ووفرة مواردها الطبيعية فلما اتفق الاندلسيون مع ابن طاهر ، قادهم زعيمهم أبو حفص عمر بن شعيب ، في اربعين سفينة ونزلوا في عام ٨٢٧ م/ ٢١٢ هـ في خليج سودا في كريت فلما وطىء الاندلسيون ارض الجزيرة أعملوا فيها النهب والسلب لمدة اثنى عشر يوماً (١) .

لم يلق الأندلسيون أية مقاومة عند نزولهم بجزيرة كريت وقيل انه لم يكن يوجد في كريت حينئذ قوات حربية كافية (٢) ، ولكننا لا نميل الى هذا الرأي فلم يكن هناك اي لون من الوان المقاومة الشعبية والأرجح ان اهل كريت كانوا خانقين على الحكومة البيزنطية فنظروا للحكم العربي على انه اهون شراً من الحكم البيزنطي ولم يقاوموا العرب . فسكان كريت كانوا يكنون للنظام البيزنطي كراهية شديدة بسبب الظلم الضرائبي وما عانوه من سوء الادارة ثم بسبب الصراع الديني والهرطقة التي صاحبت اللاأيقونية . ومما لا شك فيه ان هذه الجماعة الاندلسية كانت مستميتة في بقاءها بجزيرة كريت بعدما اغلقت في وجهها فرص البقاء في الشرق العباسي او الغرب الاندلسي .

ولما استقر الاندلسيون في جزيرة كريت اختاروا موقعاً في الشاطىء الشمالي ليقيموا مدينة جديدة تطل على جزر الارخبيل وأحاطوا هذه المدينة بخندق عميق (٣) ومنه اتخذت المدينة اسمها فكان يطلق عليها الخندق(Chandax) أو كنديا(Candia) . وذكر فازلييف ان هؤلاء العرب تمكنوا من السيطرة على تسع وعشرين مدينة وأخضعوا اهلها لكنه لم يذكر اسماء تلك المدن (٤) . وقد ازداد هؤلاء الاندلسيون قوة حين لحق بهم بعض الاندلسيين الآخرين ، وحين زادوا في بناء المراكب وغزوا الجزر المجاورة حتى أرهبوها ، نشأت بذلك دولة ابي حفص الذي عرفه المؤرخون البيزنطيون(Apocapso) .

وقام هؤلاء العرب بعد ذلك بحملة بحرية خربت ونهبت شواطىء ايونيا ،

---

(١) فازلييف : العرب والروم ص ٥٦ .

(٢) فازلييف : العرب والروم ص ٥٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٥٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٥٧ - ٥٨ .

وكاريا وجبل لاتروس [1] ويبدو ان تلك الحملات اضحت تقليداً لدى حكام كريت الجدد واصبحوا بعد ذلك يهددون سواحل بحر ايجة كلها بهجمات واسعة شملت جزر الارخبيل اليوناني حتى خلت من سكانها خلواً يكاد يكون تاماً [2] . مما جعل المؤرخين البيزنطيين يصورون تلك الغزوات على انها قرصنة . وقد وصف استروجورسكي غزوات هؤلاء العرب قائلاً : « اتخذوا من كريت مركزاً لممارسة اعمال القرصنة في المنطقة المحيطة » [3] .

كانت بيزنطة تدرك تماماً مدى الخسارة الفادحة التي منيت بها والخطر السياسي والعسكري والتجاري الذي تتعرض له بسقوط كريت في حوزة المسلمين . ففقدان الدولة البيزنطية لجزيرة كريت يعني فقدانها لواحدة من اكبر القواعد الاستراتيجية شرقي البحر المتوسط مما جعلها تقوم بعدة محاولات [4] لاستعادة كريت المفقودة . ويعلق الدكتور سعيد عاشور على فقد البيزنطيين لجزيرة كريت فيقول : على ان الامبراطور ميخائيل الثاني لم يهتم هو نفسه كثيراً بضياع كريت وكأنه حمد الله على عدم تعرضه لغزوة كبرى من جانب الدولة العباسية تهدد قلب امبراطوريته » [5] .

والراجح ان الامبراطور ميخائيل الثاني ادرك تماماً ما يتهدد الدولة البيزنطية من خطر المسلمين في جزيرة كريت ، لذلك عين قائد ثغر الناطليق فوتينوس قائداً لثغر كريت فجاء فوتينوس بحملة بحرية فوصل كريت بعد بضعة شهور من استيلاء العرب عليها ، ولما تبين له ان ما لديه من قوات لا يكفي لاسترداد كريت من ايدي العرب ، ارسل له ميخائيل مدداً جديداً بقيادة دميانوس ، ورغم ذلك لم يتمكن البيزنطيون من استرداد كريت واسفرت المعارك الحربية عن فرار فوتينوس الى جزيرة ديوس الصغيرة التي تواجه كانديا ، بينما اصيب دميانوس بجراح شديدة [6] .

قام ميخائيل الثاني بمحاولة جديدة [7] لاسترداد كريت من ايدي العرب

---

(1) Bury: Hist. Of the Eastern Roman Empire P 290 .

(2) فازيليف : العرب والروم ص ٥٩ .

(3) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P 206 .

(4) ابراهيم العدوي : الدولة الاسلاميه وامبراطورية الروم ص ١٠٧ .

Bury: Hist Of the Eastern Roman. Empire P 299.

(5) سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٤١٣ .

(6) فازيليف : العرب والروم ص ٦١ .

(7) ابراهيم العدوي : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ١٠٨ .

فأرسل حملة بحرية من سبعين سفينة بقيادة كراتيروس الذي تمكن بصعوبة بالغة من انزال جنوده الى ارض الجزيرة غير انهم لم يتمكنوا من البقاء فيها ، فقد اجلاهم العرب عن كريت بعدما قتلوا منهم اعداداً كبيرة منها قائدهم كراتيروس .

وهكذا فشلت جميع محاولات ميخائيل الثاني وغيره من الاباطرة الذين أتوا بعده لاستعادة الجزيرة المفقودة وتمكن المسلمون من البقاء في الجزيرة زهاء قرن ونصف [1] .

فتح المسلمين لجزيرة صقلية :

بينما كان الامبراطور ميخائيل يحاول دون جدوى تخليص جزيرة كريت من أيدي المسلمين حفاظاً على تلك القاعدة الاستراتيجية الهامة للكيان البيزنطي اذا بالمسلمين الافارقة يطأون ارض صقلية ويدخلون مازارا جنوب غرب صقلية وقد تطلع المسلمون لفتح صقلية منذ عهد معاوية [2] وان لم تنجح تلك المحاولات ولكن وصول الاغالبة الى الحكم في تونس جعل هذه الجزيرة مطمع توسعهم البحري .

والواقع ان افريقية الشمالية تتميز عن غيرها من اقطار البحر المتوسط والتي صارت في حوزة المسلمين بأن النشاط البحري جزء لا يتجزأ من حياتها وكيانها الاقتصادي والاجتماعي ، فكان الساحل الافريقي من أنشط الشعوب البحرية منذ زمن الفينيقيين والرومان ، ولما دخلت هذه المنطقة في الاسلام تأثر سكانها المسلمون بطبيعة البلاد البحرية . انشأ المسلمون القيروان وبعد ذلك انشأوا ميناء تونس . وما كاد المغرب يبدأ التخلص من قبضة المشرق بعض الشيء بقيام الاغالبة حتى عاد اهله الى نشاطهم البحري في البحر المتوسط . ويرى الدكتور شاكر مصطفى ان فتح صقلية لم يكن مصادفة او استمراراً لسياسة الفتوح الاسلامية بقدر ما كان محاولة من المغرب لاستعادة مركزه في البحر المتوسط في نطاق اسلامي [3] .

فقصة العرب مع صقلية قديمة ، فقد عرفوها منذ العهد الاول لقيام الدولة الاسلامية كولاية تابعة لاعدائهم البيزنطيين لذلك كانوا يغيرون عليها من وقت

---

(1) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P 206 .

(2) البلاذري : فتوح البلدان جـ ١ ص ٢٧٨ .

(3) شاكر مصطفى : دولة بني العباس جـ ٢ ص ٣٦٤ .

لاخر ، وكانت هذه الاغارات تأتي أولاً من المشرق الاسلامي ثم بعد ذلك صارت تأتي من المغرب [1] حيث كانت غارات عنيفة مما جعل قسطنطين بطريق صقلية البيزنطي يعقد صلحاً مع والي افريقية ابراهيم بن الأغلب لمدة عشر سنوات [2] وكان ذلك في عام ٨٠٥ م ١٩٠ هـ وفي عام ٨١٣ م / ١٩٨ هـ جدد الصلح على يد ابو العباس بن ابراهيم [3] الأغلبي من ناحية وبين جريجوار بطريق صقلية وكان صلحاً عسكرياً تجارياً وقد ذكر فازلييف ان العلاقات التجارية كانت قوية بين الاغالبة وصقلية في اول القرن التاسع وان بعض تجار العرب كانوا يعيشون في تلك الجزيرة [4] .

ولما تولى زيادة الله بن الاغلب الحكم عادت الغارات على صقلية الى شكلها الدوري المعتاد منذ عام ٨٢٠م فغنموا منها ذلك العام غنائم عظيمة عاد بها القائد محمد بن عبد الله الاغلبي ونلاحظ انه لم يكن في نية الاغالبة فتح صقلية والاستقرار فيها الا ان تطور الاحداث الداخلية في الجزيرة اعطاهم الفرصة المناسبة .

ففي عام ٢١١ هـ / ٨٢٦ م جاء من جزيرة صقلية ايفيميوس القائد البيزنطي الثائر وكان يريد الاسقلال عن بيزنطة [5] . قدم من صقلية قاصداً الاغالبة في تونس [6] . وعرض على زيادة الله الاغلبي فتح الجزيرة على ان يكون تابعاً له بعد الفتح ويؤدي له الجزية وطلب منه ان يساعده في السيطرة على الجزيرة فجمع زيادة الله اعيان القيروان واصحاب الرأي فيها ، وعرض عليهم الامر طالباً مشورتهم ودارت مناقشات طويلة انتهت بانتصار رأي نادى به القاضي ابو عبد الله أسد بن الفرات ، مؤداه ضرورة اعلان الجهاد وعدم ترك الفرصة السانحة لفتح الجزيرة . استجاب زيادة الله لهذا الرأي الذي لقي ترحيباً من غالبية المسلمين وتم تعيين اسد ابن الفرات قائداً لجيش الفتح [7] .

---

(١) شكيب ارسلان : غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ص ٢٩٦ وما بعدها .
(٢) فازليف : العرب والروم ص ٦٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) فازليف : العرب والروم ص ٦٤ .
(٥) المصدر السابق ص ٦٦ ـ ٦٨ .
(٦) Bury : Hist. Of the Eastern Roman Empire P 297 .
(٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٢ ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٨٦ [illegible]

وفي ١٥ ربيع الاول عام ٢١٢ هـ / يونيه ٨٢٧ م خرج أسد من القيروان في جيش قوامه عشرة الآف راجل وسبعمائة فارس ، وركبوا سفنهم من خليج سوسة [١] وبصحبتهم اسطول ايفيميوس متجهين نحو جزيرة صقلية فنزلت القوات على بلدة مازارا حيث كان بها أنصار لايفيميوس ، ونشب القتال بين قوات أسد بن الفرات وبين القوات البيزنطية وتمكن المسلمون من احراز نصر باهر واندحر بلاطة بقواته فهرب الى كالابريا حيث مات [٢] .

ورغم ضخامة الجيش البيزنطي ، ورغم المجاعة الشنيعة التي اضرت المعسكر العربي على حد تعبير فازليف حتى اكل المسلمون خيولهم [٣] ورغم الثورة التي قامت بين صفوف المسلمين تريد العودة ، ورغم ان أيفيميوس تنكر لأسد بن الفرات واتفق مع الروم ضد المسلمين رغم كل ذلك استأنف أسد بن الفرات السير متوجهاً نحو سرقوسة [٤] (سيراكوز) عاصمة الجزيرة وقتذاك وحاصرها . ومن حسن الحظ ان جاءته الامداد من افريقية وكريت [٥] والاندلس ونشبت معركة جديدة تحت اسوار سرقوسة وكان المسلمون قد أحاطوا انفسهم بخندق [٦] وضيق المسلمون الحصار على المدينة فطلب اهلها المفاوضة ولكن المسلمين رفضوا ما تقدموا به من شروط ولم يلبث الطاعون ان اندلع في معسكر المسلمين سنة ٨٢٨م مما تسبب في موت عدد كبير ومنهم القائد ابن الفرات نفسه ، واختار الجيش لقيادته محمد بن أبي الجواري [٧] . وتوالت الامدادات الاسلامية من الاندلس وافريقية على صقلية ونجح المسلمون في فتح بالرمو عام ٨٣١ م في الشمال الغربي من الجزيرة بعد ان حاصروها سنة [٨] وكان فتح بالرمو خطوة هامة اذا اعطى العرب قاعدة بحرية قوية مما ساعدهم ومكنهم من فتح سائر جزيرة صقلية بعد ذلك .

وهكذا تمكن مسلموا افريقية من فتح صقلية بعدما لاقوا من صعوبات ولم

---

(١) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٧١ .

(٢) فازليف : العرب والروم ص ٧٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٧ .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ١٨٧ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٠٢ . Bury: Ahist. Of the Eastern Roman Empire, P. 303

(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ١٨٧ .

(٧) فازليف : العرب والروم ص ٧٩ .

(٨) Bury: Ahisr. Of the Badtern Roman Empire P. 304 .

تتمكن الدولة البيزنطية من حماية الجزيرة منهم اذ كانت مشغولة بحملات المأمون ثم المعتصم من بعده ، فثبتت اقدام المسلمين في صقلية ثم تمكنوا من الاستيلاء على مسينا في الشرق عام ٨٤٢ م / ٢٢٨ هـ وأضحت صقلية قاعدة تخرج منها الاساطيل الاسلامية لمهاجمة سواحل ايطاليا والتعرض لتجارتها فضلاً عن مهاجمة ما بقي للبيزنطيين من موانيء بالجزيرة وبذلك انهارت سيطرة بيزنطية على البحر المتوسط . خاصة بحر الادرياتيك وفشلت كل محاولاتها لمقاومة الوجود العربي في صقلية [٢] .

وقد اكد استروجورسكي هذا المعنى ووصف استيلاء المسلمين على كل من كريت وصقلية بانها نكسة مريرة منيت بها الدولة البيزنطية في الغرب بل انها أسوأ نكسة للنفوذ البيزنطي على ساحل الادرياتيك وأنه بذلك تكون السيادة البيزنطية على البحر المتوسط قد انتهت [٣] .

ويمكننا القول انه منذ عام ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ اي باستيلاء المسلمين على كريت ثم صقلية بعد ذلك بدأت مرحلة من التوسع الاسلامي [٤] انتقلت خلالها السيطرة على البحر المتوسط الى المسلمين الذين انتشروا على الشواطيء الجنوبية لهذا البحر من جبال طوروس حتى البرانس . ونلاحظ ان هذا التغيير لم يتم دفعة واحدة انما تم تدريجياً ولم تسلم الدولة البيزنطية في سهولة بل كافحت ببسالة ضد المسلمين في البحر المتوسط وحاولت عبثاً استعادة جزيرة كريت ولم تتمكن الا من تأخير فتح الاغالبة لصقلية . ومع مطلع القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تكون السيادة الكاملة في البحر المتوسط قد انتقلت الى المسلمين .

وبالرغم من ان فتح المسلمين لكل من كريت وصقلية لم يكن بجهد العباسيين ولا باسطولهم ولا تمويلهم أو خططهم انما كان ذلك بجهود افريقية وأندلسية الا أن النتيجة التي ترتبت على ذلك هي أنه بفقدان الدولة البيزنطية لهاتين الجزيرتين زالت سيطرتها البحرية على البحر المتوسط مما زادها ضعفاً في مواجهتها للدولة العباسية .

ومن المؤكد ان ما حدث من فتح مسلمي افريقية لجزيرة صقلية وتوغلهم

---

(١) فازليف : العرب والروم ص ١٦٦ .

(٢) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P 206 .

(٣) شكيب ارسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ص ٢٩٨ .

فيها ، وكذلك فتح المسلمين لجزيرة كريت وما لاقته الدولة البيزنطية من هزائم على يد العرب الذين سيطروا على الجزيرتين ، كل ذلك جعل الامبراطور يعتقد انه لا قبل له بقوة المسلمين المتزايدة في البحر المتوسط ، فعزم على ان يلتمس المساعدة من الدول الاخرى . فأرسل الى لويس التقي ، امبراطور غرب اوروبا ، سفارة تضم أسقفاً وبطريقاً فطلبت الى الامبراطور أن يبعث بجيش قوي لمهاجمة مصر او الشام حتى يضعف من قوة الخلافة ويوزع جهودها . ولقد لقيت هذه السفارة ترحيباً في انجلهيم [1] في عام ٨٣٩ م ٢٢٥ هـ .

وهذه السفارة وان لم يترتب عليها أي نتائج ايجابية الا انها توضح تماماً حالة الضعف التي كانت عليها الدولة البيزنطية اواخر عهد كل من الخليفة المعتصم والامبراطور ثيوفيل ، بحيث ان الدولة البيزنطية كانت عاجزة عن الصمود امام المسلمين في كل من آسيا الصغرى والبحر المتوسط .

وكذلك وصل وفد ثيوفيل الى البندقية امام الدوق بيير ترانديكو الذي اختير للولاية عام ٨٣٦ م . وصل وفد ثيوفيل الى البندقية عام ٨٤٠ وكان الوفد برئاسة البطريق تيودور وقد عرض على الدوق باسم الامبراطور لقب اسباطير الامبراطورية الرومية ، وطلب منه ان يعجل بارسال جيش لحرب العرب المغاربة . واكد فازلييف ذلك قائلاً « ولكن هدف الوفد المرسل الى البندقية ٨٤٠ ، والوفد المرسل الى انجلهايم انما كان طلب المدد من البنادقة والفرنج لحرب العرب المغاربة » [2] .

كما اكد استروجورسكي ضعف الدولة البيزنطية بفقدانها لكريت وصقلية وعجزها عن التصدي للمسلمين المغاربة في البحر المتوسط فقال : « لجأ الامبراطور الى طلب المساعدة ضد المسلمين في الاراضي الغربية من الفرنجة والبندقية » [3] .

تلك هي حالة الدولة البيزنطية ووضعها العسكري قبيل خلافة الواثق مباشرة ، وشاءت الاقدار ان يموت كل من المعتصم ثم ثيوفيل في شهر واحد [4] فلما كانت حكومة تيودورا الوصية على عرش ميخائيل الثالث ، كان امراً طبيعياً ان تختار

---

(١) Bury: Hist Of the Eastern Roman Empire P. 273

(٢) فازلييف العرب والروم ص ١٥٧ - ١٥٩ .

(٣) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P. 209 .

(٤) فازلييف : العرب والروم ص ١٦٦ .

السلم وتسعى الى تحقيقه مع العباسيين في تلك المرحلة خاصة بعدما فقدت بيزنطة مركزها القوي في البحر المتوسط وضعفت اساطيلها وانتهت سيادتها على ذلك البحر بفقدانها لقواعدها البحرية في كل من كريت وصقلية .

وعلى ذلك يمكننا القول ان السلم مع العباسيين كان ضرورة املتها ظروف الدولة البيزنطية في تلك الفترة . بل كان هدفاً تسعى اليه حكومة تيودورا وابنها الامبراطور ميخائيل الثالث وترسل السفراء [1] من أجله الى بلاط الواثق بالله ، فتعمل جاهدة لاقامة علاقات سلمية مع العباسيين ، في وقت وقعت الكوارث [2] بها في آسيا الصغرى وفي وقت تستميت فيه عبثاً في الدفاع عن كيانها في البحر المتوسط.

٥ ـ موقف دول غرب أوروبا من الصراع الاسلامي البيزنطي :

ومن العوامل التي اضطرت الدولة البيزنطية لسياسة السلم مع العباسيين زمن الواثق موقف دول الغرب منها وردودهم على استنجادها بهم ضد المسلمين وقد ذكرنا ان الدولة البيزنطية استغاثت بكل من البندقية ولويس التقي بن شارلمان امبراطور الفرنجة في انجلهايم ، وكذلك عبد الرحمن الثاني بالاندلس [3] فهل استجابت هذه القوى الغربية للامبراطور ثيوفيل وساعدته ضد المسلمين في كل من آسيا الصغرى ثم في كريت وصقلية ؟

أولاً : موقف لويس التقي امبراطور الفرنجة :

ارسل ثيوفيل الى لويس وفداً برئاسة تيودور اسقف خلقدونية ، وثيوفان الاسباطير يحملون اليه خطاب ثيوفيل وهداياه الثمينة وتم استقبال الوفد بحفاوة بالغة في ١٧ يونيه ٨٣٩ م . وكان الامبراطور ثيوفيل يطلب من لويس ان يعينه بجيش كبير [4] .

والواقع ان ظروف لويس التقى لم تسعفه بتلبية طلب الامبراطور البيزنطي ومد يد العون له . فقد كانت مملكته تعاني ازمات داخلية مستمرة كما تزايد الخطر

---

(١) فازلييف : العرب والروم ص ١٧٥ .

(٢) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٨٥ .

(٣) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ص ٧٨ .

(٤) فازلييف العرب والروم ص ١٦٣ .

الخارجي بعد وفاة والده شارلمان سواء من ناحية السلاف والافار على الحدود الشرقية او من ناحية الفيكنج على الحدود الشمالية والغربيه ثم من ناحية عرب الاندلس الجنوبية . ومما زاد الامور تعقيداً تمسك لويس التقي بسياسة تقسيم الملك بين الابناء ، فكان لويس قد وضع مشروعاً [1] لتقسيم امبراطوريته الشاسعة بين ابنائه الثلاثة لوثر وبيبن ولويس . ثم عاد لويس وانجب ابناً رابعاً هو شارل من زوجته الجديدة وحاول اعادة تقسيم الامبراطورية تقسيماً جديداً ليضمن لابنه الرابع نصيباً من مملكته مثل بقية اخوته مما اثار الابناء وتسبب في حرب اهلية [2] بين الاخوة بعضهم وبعض من جهة وبينهم وبين لويس التقي من جهة اخرى . ولو اضفنا الى ذلك ان شخصية لويس التقي لم تكن مثل شخصية ابيه [3] فلم يمتلك من ميزات القيادة الحربية أو الزعامة السياسية او الكفاية الادارية او قوة الشخصية ما يمكنه من السيطرة على الجيش والادارة والكنيسة ندرك مدى صعوبة الموقف .

هذه المشاكل التي اشرنا اليها باختصار استنفذت جهود لويس التقي فلم يكن بحاجة الى مشاكل جديدة يضيفها الى مشاكله السابقة ولم تمكنه ظروفه من أن يستجيب لنداء امبراطور بيزنطة وفتح جبهة حرب جديدة مع عدو جديد .لذلك لم يقدم لويس يد المساعدة للبيزنطيين رغم انه استقبل الوفد البيزنطي استقبالاً حافلاً [4] . وفي النهاية لم يجن ثيوفيل من التجائه الى البلاط الافرنجي أية فائدة وانتهى الامر بوفاة رئيس الوفد البيزنطي تيودور ثم بعد ذلك توفى لويس التقي نفسه في عام ٨٤٠ م / ٢٢٦ هـ .

عقدت الدولة البيزنطية الامال على مساعدة البندقية لها ضد المسلمين المغاربة (افريقية والاندلس) في كل من كريت وصقلية لتحتفظ بمركزها القوي في البحر المتوسط وتستمر سيادتها عليه فطلبت من البندقية مساعدتها [5] .وكما خاب امل الدولة البيزنطية في الحصول على أي عون من دولة الفرنجة ، كذلك سيخيب املها في اي عون من البندقية من شأنه تقوية مركزها امام المسلمين .

---

(١) سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٢١٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) فازيليف العرب والروم ص ١٦٤ .

(٥) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State, P. 209 .

ثانياً : موقف البندقية :

ان البندقية وان احتفظت بمظهر التبعيه للامبراطور البيزنطي الا انها ابتدأت فعلا عصر استقلالها منذ قيام بيير تراندبكو ، الذي استنجد به ثيوفيل ورغم ذلك فان الدوق تراندبكو استجاب لوفد ثيوفيل ووعدهم بمساعدته ، ونفذ وعوده جهزت البندقيه اسطولاً مستجيبه لنداء البيزنطيين واتجه الاسطول الى تارنت واشتمل ذلك الاسطول على ستين سفينة ولكنه وجد في تارنت جيشاً عربياً كبيرا تمكن من هزيمة الاسطول البندقي حيث اغرقوا جميع سفنه تقريبا وصار رجاله بين قتيل وأسير [1] .

وهكذا فشلت البندقية في مساعدتها للدولة البيزنطيه ولم يمكنها تغيير ميزان القوى . ولم يكتف المسلمون بذلك بل عملوا على الانتقام من هجوم البندقية فتوجهوا نحو شمال بحر الادرياتيك وغزوا شواطىء دلماشيا ، فنزلوا على مدينة اوسيروا وأحرقوها . ومن هناك عبروا البحر وانتهبوا انكون . ونزلوا ايضا عند مصب البو قرب مدينة أدريا . وفي طريق عودتهم التقوا بسفن تابعة للبندقية في طريقها الى مينائها فاستولوا عليها وكان ذلك في عام ٨٤١ م[2] .

وظهر العرب مرة اخرى في نفس العام ٨٤١ م ٢٢٧ هـ[3] في خليج كوارنيرو حيث انزلوا بالاسطول البندقي هزيمة جديدة عند جزيرة سانجو ، وهي جزيرة صغيرة تقع غربي لوسن . وقد وصف فازليف هذه الهزيمة بانها هزيمة تامه [4] .

وهكذا تمكن المسلمون من ايقاع الهزائم المتتالية بالاساطيل التابعه للبندقيه مما جعلها تنسحب من الميدان تاركة الدولة البيزنطية تواجه القوى الاسلامية بمفردها . فلم تتمكن البندقية اذن من تقديم أي عون فعلي للبيزنطيين يمكنهم من الصمود امام القوى الاسلامية والتصدي لها .

---

(١) فازليف : العرب والروم ص ١٦٢ .
(٢) المصدر السابق ص ١٦٢ .
(٣) اللواء محمد مختار التوفيقات الالهاميه في مقارنة التواريخ الهجرية جـ ١ ص ٢٥٩ .
(٤) فازليف العرب والروم ص ١٦٢ .

ثالثاً : موقف عبد الرحمن الثاني في الأندلس :

رأينا كيف اتجه الامبراطور البيزنطي ثيوفيل الى القوى الاوروبية المسيحية بادىء الامر مؤملا ان يجد فيهم العون والمؤازرة ضد القوى الاسلامية المتمثلة في العباسيين في اسيا الصغرى ، ثم الربضيون في كريت والاغالبة في صقلية ، فلما فشلت مساعيه وخاب امله في الحصول على عون فعلي من القوى المسيحية في أوروبا ، فكر في حكومة قرطبة فاتجه اليها لعله يجد فيها حليفاً ضد العباسيين ، معتمداً في ذلك على العداء التقليدي بين الامويين في الاندلس والعباسيين في بغداد .

وفي سنة ٢٢٥ هـ / ٨٣٩ - ٨٤٠ م ارسل الامبراطور ثيوفيل [١] سفارة الى الاندلس لمقابلة الامير عبد الرحمن الثاني . وكانت تلك السفارة برئاسة قرطيوس اليوناني والذي يتكلم العربية بطلاقة ، وحملت تلك السفارة رسالة من ثيوفيل يعرض فيها التحالف مع الامير عبد الرحمن الثاني ضد عدوهم المشترك العباسيين الذين قضوا على ملك آله بني امية في دمشق ، ويطلب منه مساعدته ضد المسلمين في كل من كريت وصقلية معتمداً في ذلك على اختلاف تلك الجبهات الاسلامية بعضها عن بعض ، فكأنما صارت المصالح الشخصية في الاعتبار الاول قبل القيم والعقائد الدينية .

استقبل الامير عبد الرحمن الوفد البيزنطي استقبالاً حافلاً وقبل [٢] هداياه ورد على الامبراطور ثيوفيل بسفارة مثلها على رأسها الشاعر يحيى الغزال [٣] وحملت معها الهدايا [٤] الى القسطنطينية كما حملت رد امير الاندلس على عرض ثيوفيل بالتقارب والتحالف بين الطرفين .

رد عبد الرحمن الثاني بعبارات جميلة وان كانت لا تحمل وعداً محددا اعتذر الامير عبد الرحمن لعدم ملاءمة الظروف [٥] لاسترداد ملكه في الشرق وان كان قد

---

(١) المقري نفح الطيب جـ ١ ص ١٦٢ وما يليه

(٢) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب ص ٧٩ .

(٣) هو يحيى بن الحكم البكري الجياني المعروف بالغزال ولد في حوالي سنة ١٥٦ هـ / ٧٧٣ م وتوفي قريباً من ٢٥٠ هـ ٨٦٤ م ولاه الامير عبد الرحمن قبض الاعشار كما يذكر ابن دحية واضطلع بسفارة اخرى غير هذه عهد بها اليه الامير عبد الرحمن الى ملك المجوس (النورمند) وكانت له كذلك رحله الى بلاد المشرق .

(٤) فازيليف : العرب والروم ص ١٦٥

(٥) المصدر السابق .

اظهر عداءه للعباسيين ، فوصف المأمون والمعتصم بابني مراجل ومارده بغرض تحقيرهما [1] اي ان عبد الرحمن لم يأخذ على نفسه اي تعهد حربي ولم يعقد اتفاقاً محدداً او يلتزم باي التزام صريح واضح . كل ما في الأمر انه يبادل الامبراطور ثيوفيل نفس المشاعر المفعمة بالسخط على العباسيين ويتمنى زوالهم اما فيما يتعلق بالربضيون في كريت فهو يتبرأ منهم لخروجهم على طاعته ويترك للامبراطور البيزنطي حرية طردهم من الجزيرة بينما يعتذر عن محاربة الاغالبة لانهم في نظره يجاهدون في سبيل رفع راية الاسلام .

ويصف المؤرخون استقبال امبراطور بيزنطة لرسول الامير الأندلسي يحيى الغزال في القسطنطينية بانه كان استقبالاً بالغ الحفاوة والترحيب [2] . وبعد ان ادت السفارة الاندلسية مهمتها عادت الى قرطبة وقد دون يحيى الغزال ما شاهد في الدولة البيزنطية وذكر احاديثه مع الامبراطورة تيودورا والامير ميشيل ولي عهد ثيوفيل .

وهكذا لم تجد الدولة البيزنطية من تتحالف معه عسكرياً ضد الدولة العباسية ولم تجد في دول غرب اوروبا من يمدها بالعون العسكري فلم يكن امامها بد من الاعتماد على قوتها الذاتية في مواجهتها للقوى الاسلامية في كل من اسيا الصغرى امام العباسيين من جهة ، وفي البحر المتوسط امام عرب المغرب من جهة اخرى . ولقد خاضت الدولة البيزنطية هذه التجربة طوال عهد ثيوفيل الذي قضى معظم سني حكمه [3] في حرب المسلمين في كل من آسيا الصغرى والبحر المتوسط في وقت واحد واثبتت هذه التجربة فشلها [4] التام . ففي آسيا الصغرى كانت الكوارث الناجمة عن حروب كل من المأمون والمعتصم . وفي البحر المتوسط لم يتمكن ثيوفيل من السيطرة على اي من كريت او صقلية وفشلت كل محاولاته في هذا السبيل حيث ان مدن القسم الداخلي من الجزيرة وعدة حصون اخرى استسلمت للعرب في عام ٨٤٠ م . وتوفي ثيوفيل وهو على يقين من انه لا قبل للدولة البيزنطية بقوة [5] المسلمين والدليل على ذلك محاولاته العديدة لوقف القتال وطلبه الصلح بتقديم التنازلات لكل من

---

(١) ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب ص ٧٩ .

(٢) فزليف : العرب والروم ص ١٦٥ .

(٣) Ostrogorsky: Hist. Of The Byzantine State. P. 208 .

(٤) فزليف : العرب والروم ص ١٦٦ .

(٥) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٨٥ .

المأمون والمعتصم ثم استنجاده بدول غرب أوروبا ، واصبحت هذه الفكرة من بديهيات السياسة في الدولة البيزنطية آنذاك .

فلما توفي ثيوفيل وتولت الحكم حكومة تيودورا وابنها ميخائيل [١] الثالث وهي الحكومة التي عاصرت الواثق في الدولة الاسلامية كان عليها الا تفتح جبهتين للحرب في وقت واحد بل تقتصر على جبهة واحدة . لذلك رسمت تلك الحكومة سياستها الخارجية على السلم مع العباسيين في الشرق وتركيز الجهود في البحر المتوسط لمحاولة استرجاع نفوذها ومكانتها فيه .

وتنفيذاً لهذه السياسة قررت الدولة البيزنطية مهاجمة عرب كريت [٢] فتم تجهيز حملة بحرية بلغت من القوة والاستعداد ما لم تبلغه حملة اخرى وقاد ثيوكتشنش ذلك الاسطول العظيم الى كريت . وتمكن من انزال قواته الى ارض الجزيره وذلك في مارس ٨٤٣ م / ٢٢٩ هـ . ويبدو ان عدد قواته كان يفوق [٣] قوات عرب كريت وذكرت المصادر الاجنبية ان عرب كريت عمدوا الى اثارة شكوك ومخاوف ثيوكتشنش على مركزه ومكانته لدى الامبراطورة تيودورا فأشاعوا خبراً بانها قد قربت احد منافسيه . فلما سمع بذلك قرر العودة الى القسطنطينية على ان يترك جانباً كبيراً من الجند في كريت مما مكن القوات الاسلامية من هزيمة القوات البيزنطية هزيمة ساحقة . فكأنما ارادت تلك المصادر ان تبرر هزيمة الاسطول البيزنطي الضخم امام عرب كريت ، وفشل تلك الحملة في تحقيق اغراضها ، وسواء كانت تلك الرواية صحيحة ام غير ذلك فالنتيجة النهائية هي هزيمة البيزنطيين امام القوى الاسلامية في البحر المتوسط .

ورغم تلك الهزيمة التي منيت بها الدولة البيزنطية في كريت سنة ٨٤٣ م [٥] لم تغير من سياستها التي ذكرناها سابقاً والتي تنبني على السلم مع العباسيين في الشرق والتركيز على جبهة البحر المتوسط ضد المسلمين المغاربة لاسترداد كريت واسترجاع السيطرة البيزنطية على صقلية . ثم كانت الكوارث والهزائم الخطيرة التي اصابت

---

(١) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام سبع وعشرين ومائتين .

(٢) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State P 221 .

(٣) فازليف العرب والروم ص ١٧٢ .

(٤) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٩٧ .

(٥) Ostrogorsky: Hist. Of the Byzantine State. P 221 .

البيزنطيين في صقلية عام ٨٤٤ م [١] . فقد حاصر العرب مسينا وسقطت في أيديهم بمساعدة حلفائهم أهل نابلي . ثم سقطت مدينة مسكان . كما سقط حصن موديكا [٢] .

لذلك ترسل الدولة البيزنطية وفداً الى بلاط الخليفة الواثق بالله في عام ٨٤٥ م / ٢٣١ هـ على رأسه مبعوث رسمي يتحدث باسم الامبراطور في طلب الفداء [٣] وتبادل الأسرى ويوضح فازلييف موقف الدولة البيزنطية انذاك فيقول : « كانت الامبراطورة تيودورا راغبة في تدارك موقفها في صقلية حول ذلك الوقت على الأرجح يعني صلح عام ٨٤٥ م الذي عقدته مع العرب المشارقة » [٤] .

---

(١) فازلييف : العرب والروم ص ١٧٥ .

(٢) المصدر السابق ص ١٨٠ .

(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ .

(٤) فازلييف : العرب والروم ص ١٨١ .

الفصل الرابع

الفداء

تبادل الأسرى وتحقيق السلم

الفداء (تبادل الاسرى)

من الذي بدأ بطلب الفداء ؟

بدأت الرغبة في الفداء من جانب البيزنطيين . فلقد قدم على بلاط الواثق بالله في ذي الحجة عام ٢٣٠ هـ اوائل سبتمبر ٨٤٥ [١] ، وفد بيزنطي رسمي [٢] يمثل الأمبراطور ميخائيل الثالث ابن ثيوفيل، يعرضون رغبة الحكومة البيزنطية في اجراء فداء [٣] بين الطرفين ، وتبادل الأسرى بين كل منهما بعد ان تضخمت أعداد الأسرى المسلمين لدى البيزنطيين .

والواقع ان هذا العرض البيزنطي باجراء الفداء ، يحمل في طياته رغبة البيزنطيين في عدم الحرب بين المعسكرين ووقف كل العمليات العسكرية على الحدود بين الدولتين أي تصفية الوضع على الحدود ، وابداء البيزنطيين رغبتهم في تبادل الأسرى في الواقع ما هو الا محاولة لاظهار النوايا الحسنة تمهيداً لتحسين العلاقات مع المسلمين وابعاد شبح الحرب وضمان فترة سلام على الحدود ، فقد كانت ظروف البيزنطيين الداخلية والخارجية تحتم عليهم ذلك ، كما رأينا في الفصل السابق .

ويبدو أن الوفد كان ينقل رغبة الحكومة البيزنطية ويعبر عن وجهة نظرها شفوياً ، فلم نجد نصاً مكتوباً لرسالة بهذا الشأن لا في المصادر الاسلامية ولا في كثير من المصادر الاجنبية . والراجح انه كان وفداً رسمياً على مستوى عال يمثل الحكومة البيزنطية ، لا سيما أنه كانت لديه صلاحيات للقيام بالمفاوضات وابداء بعض الاراء ثم الاتفاق في النهاية .

---

(١) فازلييف : العرب والروم ص ١٧٥ .

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك أحداث عام ٢٣١ هـ .

(٣) المصدر السابق .

وهذا العرض بطلب الفداء وتبادل الأسرى وابداء الرغبة في تحقيق السلم على الحدود وان كان مطلب البيزنطيين [1] ، الا انه كان يتفق مع مصالح الدولة الاسلامية آنذاك . فقد كانت ظروفها زمن الواثق لا تساعدها على اشعال نار الحرب مع البيزنطيين او تصعيد العمليات العسكرية معهم . لذلك وجدت مطالب البيزنطيين صدى بعيد المدى في نفس الواثق بالله ، فاستجاب لمطلبهم [2] ، ووافق على اجراء الفداء . والواقع ان الواثق كان موقناً تماماً بأهمية السياسة السلمية مع البيزنطيين وضرورتها في تلك المرحلة ، لذلك نراه قد اهتم اهتماماً بالغاً بأمر الفداء وتبادل الأسرى وأولى ذلك الموضوع اهمية كبيرة ، وأعطاه كل تفكيره ، وأخذ يعد العدة لاتمامه [3] ويشرف بنفسه على كافة مراحله وخطواته . كما استعان في ذلك ببعض رجالات دولته .

بعد أن وافق الواثق على الفداء من حيث المبدأ ، عهد الى الوزير محمد بن عبد الملك الزيات بأمر اجراء المفاوضات مع الوفد البيزنطي . والراجح انه تم تشكيل وفد اسلامي برئاسة ابن الزيات لمناقشة تفاصيل اتمام الفداء مع الوفد البيزنطي . ومن الأمور المألوفة ان تختلف وجهات النظر بين الوفدين في بعض النقاط . فقد رفض البيزنطيون ان يأخذوا الاطفال الصغار أو المسنين [4] ممن في أيديهم من أسرى المسلمين بينما كانت وجهة النظر الاسلامية ان يشمل الفداء الجميع وان يحسب شخصاً بشخص سواء في ذلك الصغار او الشيوخ المسنين .

وقد استمرت المفاوضات بين الوفدين في سامرا عدة أيام [5] حتى تم الاتفاق بين الطرفين على وجهة النظر الاسلامية ، ووافق الوفد البيزنطي على أن يشمل الفداء الجميع صغاراً وكباراً ، وان يكون كل نفس بنفس . ويبدو ان الوفد البيزنطي وافق بعد ما رأى من تشدد الوفد الاسلامي .

عهد الواثق بالاشراف [6] العام على عمليات الفداء الى خاقان الخادم [7]

---

(1) فلرنيف : العرب والروم ص ١٧٥ .

(2) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ .

(3) الطبري : تاريخ الامم والملوك أحداث عام ٢٣١ هـ .

(4) فلرليف : العرب والروم ص ١٧٧ .

(5) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

(6) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٨ .

(7) خاقان الخادم التركي ، كان خادم الرشيد نشأ في طرسوس .

التركي الذي نشأ بمنطقة الثغور على الحدود . وتصادف ان خاقان الخادم هذا كان قد قدم على الواثق بصحبة نفر من وجوه أهل طرسوس وغيرها يشكون صاحب مظالم كان عليهم [1] . فلما انتهوا من مهمتهم تعجل اهل الثغور بالعودة الى ثغورهم بينما تأخر [2] خاقان التركي في سامرا بعض الوقت . فلما قدم رسل الامبراطور البيزنطي يطلبون الفداء ، وجد الواثق في خاقان خير من يسند اليه هذا الدور ، وهو الاشراف العام على اجراء واتمام الفداء الذي سيتم بطبيعة الحال في منطقة الثغور على الحدود ، فعهد اليه بذلك .

أراد الواثق ان يتعرف على عدد الاسرى من رعاياه لدى الدولة البيزنطية على وجه الدقة ، وهل تتفق الاعداد مع ما ذكره الوفد البيزنطي أم لا . لذلك أمر خاقان الخادم بارسال احد رجاله مبعوثاً رسمياً مهمته التعرف على عدد الاسرى لدى الدولة البيزنطية ، فوقع اختيار خاقان على احمد بن أبي قحطبة ليرسله [3] الى القسطنطينية في تلك المهمة . يقول الطبري في ذلك : « ذكر ابو قحطبة وكان رسول خاقان الى ملك الروم لينظر كم عدد الاسرى ويعلم صحة ما عزم عليه ملك الروم » [4] وقام أبو قحطبة بهذه السفارة فذهب الى القسطنطينية لمقابلة المسؤ ولين ثم عاد وذكر أن عدد المسلمين هناك بلغ ثلاثة الاف رجل وخمسمائة امرأة ، فأمر الواثق بفدائهم .

تحمس الواثق لفداء جميع الأسرى لدى البيزنطيين واسترجاعهم للأراضي الاسلامية واستمر في استعداداته وترتيباته لاتمام الفداء ، وكانت رغبته كبيرة في استقدام كل رعايا الدولة لدى الروم . لذلك نراه يرسل في شراء من يباع من الرقيق الرومي [5] فبعث الى بغداد بل بحث عنهم حتى في الرقة بأعالي الفرات . ولم يبخل الواثق بمن في قصوره من الجواري الروميات [6] وما ذلك الا ليتمكن من فداء كل أسير في أيدي البيزنطيين .

ويبدو أنه كانت هناك اعداد كبيرة من الأسرى المسلمين [7] فعلاً لدى

---

(١) الطبري : الأمم والملوك احداث عام ٢٣١ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) الطبري : الأمم والملوك احداث ٢٣١ هـ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٥ .
(٦) الطبري : الأمم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ .
(٧) فازيليف : العرب والروم ص ١٧٧ .

البيزنطيين من عهد المأمون والمعتصم خاصة أهل زبطرة [1] التي خربها ثيوفيل ٨٣٧م ففي عهد كل من المأمون والمعتصم طالما اشتعلت الحرب على الحدود الاسلامية البيزنطية ، وكثيراً ما توغلت الجيوش الاسلامية في آسيا الصغرى . كما تعرضت منطقة الثغور الاسلامية لهجمات البيزنطيين وترتب على كل ذلك وجود أسرى من كل فريق لدى الفريق الاخر ، فجاء الواثق ليسترد ويستقدم كل من وقع في الأسر ، فان كان المأمون والمعتصم قد أرهبا جبهة الروم فان الواثق قام باسترداد جميع الأسرى من رعايا الدولة .

لما عاد أبو قحطبة سفير المسلمين من القسطنطينية بعدد الأسرى وقرر الواثق فداءهم ، حدد خاقان الخادم المشرف العام والمسؤول عن مراسم الفداء ، حدد [2] مع الوفد البيزنطي اليوم الذي يبدأون فيه تنفيذ الفداء والمكان المناسب لذلك ، اي حدد الطرفان زمان ومكان عملية الفداء فتقرر ان يكون على نهر اللامس [3] قرب سلوقية على مسيرة يوم من طرسوس . كما تقرر أن يكون في يوم عاشوراء ١٠ المحرم ٢٣١ هـ [4] الموافق السادس عشر من سبتمبر ٨٤٥ م [5] ولعلهم تيمنوا بيوم عاشوراء . بعد ذلك غادر خاقان ورجاله سامرا متوجهين نحو منطقة الثغور والعواصم استعداداً ليوم الفداء . فخرج في آخر ذي الحجة من عام ٢٣٠ هـ ، لاجراء المراسم السابقة ليوم الفداء .

عين الواثق احمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي واليا على الثغور [6] والعواصم وأمره ان يحضر عملية الفداء ، لينقل له الصورة الكاملة بعد ذلك . فأسرع احمد بن سعيد بالخروج الى منطقة الثغور ولكي يصل مسرعاً استخدم البريد في ذلك اذ خرج على سبعة عشر من البرد [7] ليكون الفداء على يديه أي خرج وبصحبته سبعة عشر فارساً .

---

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٨ .
(٢) الطبري : الامم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ .
(٣) خطط المقريزي جـ ٢ ص ١٩١ .
(٤) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .
(٥) فازليف : العرب والروم ص ١٧٧ ، اللواء محمد مختار : التوفيقات الالهامية جـ ١ ص ٢٦٣ .
(٦) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ .
(٧) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

لجنة الامتحان بخلق القرآن :

كان الواثق قد أخذ الناس بالقول بخلق القرآن وذهب في ذلك مذهب عمه المأمون وأبيه المعتصم ، وكان الواثق قد أمر بامتحان اهل الثغور في القول بخلق القرآن فقالوا بخلقه جميعاً الا اربعة اشخاص فأمر بضرب اعناقهم ان اصروا على موقفهم وأبوا القول بخلقه [1] .

وبينما الاستعدادات تجري على قدم وساق لاتمام عملية الفداء ، لم ينس الواثق أن يمتحن [2] هؤلاء القادمين من الدولة البيزنطية حيث قضوا سنوات طويلة ولم يعرف موقفهم من قضية خلق القرآن بعد .

لذلك شكل الواثق بنفسه لجنة [3] اختار افرادها ، وعهد اليهم بتلك المهمة وهي حضور عملية الفداء لامتحان القادمين الجدد فرداً فرداً قبل دخولهم الحدود الاسلامية . تكونت اللجنة من [4] يحيى بن آدم الكرخي والذي يكنى أبا رملة . ثم جعفر بن الحذاء . وبطبيعة الحال جعل الواثق رئاسة اللجنة الى احمد بن أبي دؤاد رجل المحنة الاول في الدولة ، ووجه معهما احد كتاب العرض واسمه طالب بن داوود ليقوم بأعمال الكتابة والتسجيل ، وأعطاهم الأموال وأمرهم أن يمتحنوا الأسرى في خلق القرآن فمن قال ان القرآن مخلوق فُودي به ودخل الحدود الاسلامية ، ومن أبى ذلك ترك[5] في أيدي البيزنطيين ولا يفادى به . كما أمرهم أن يعطوا جميع من قال بخلق القرآن ممن فودي به ديناراً لكل فرد فحملوا الأموال[6] وتوجهوا الى منطقة الثغور حيث يتم الفداء في الموعد المحدد .

وبطبيعة الحال كان البيزنطيون قد اتخذوا كافة استعداداتهم وقد عرفنا ان احمد ابن أبي قحطبة كان قد ذهب مبعوثاً الى القسطنطينية ليعاين الأسرى المسلمين هناك ، ويبدو أنه في هذه السفارة حمل اليهم نبأ موافقة الدولة رسمياً على الفداء فاخذوا يعدون أنفسهم لذلك ويجمعون الاسرى .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ . المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٨ .

(٣) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ . الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

(٥) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٨ .

(٦) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ الطبري تاريخ الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

وفي يوم العاشر من المحرم عام ٢٣١ هـ / ١٦ سبتمبر ٨٤٥ م اجتمع الطرفان المسلمون والبيزنطيون على ضفاف نهر اللامس [١] . وكان حفلاً مشهوداً حضره من رجالات الدولة الاسلامية من ذكرنا اسماءهم في اربعة الاف بين فارس وراجل يصحبون من جمعوهم من أسرى الروم ، فأخذوا أماكنهم على الجانب الشرقي للنهر [٢] . وعن الجانب البيزنطي حضر قائدان [٣] من قادة البيزنطيين أسماهم الطبري القلس ، والاخر طلسوس ، صحب هذان القائدان اسراهم من رعايا الدولة الاسلامية ، فاخذوا اماكنهم على الضفة الغربية للنهر .

وكان كل فريق من المسلمين والبيزنطيين قد اقام جسراً [٤] على النهر ، فكان المسلمون يرسلون البيزنطي على جسرهم ليعبر الى الضفة الغربية . بينما يرسل البيزنطيون المسلم على جسرهم ليعبر الى الضفة الشرقية حيث يقف المسلمون . اي يرسل الروم اسيراً من عندهم ، ويطلق العرب بيزنطياً ممن في يدهم في نفس الوقت فيتلاقى الرجلان على الجسور في وسط النهر [٥] .

فكان المسلم اذا اقترب من المسلمين صاح « الله اكبر » [٦] فيرد عليه باقي المسلمين مكبرين مهللين . وكذلك كان البيزنطيون يرددون عبارات الفرح وقد استغرقت عملية الفداء اربعة ايام كاملة [٧] تم فيها فداء أربعة الاف وستمائة انسان منهم من النساء والاطفال نحواً من ستمائة . كما شمل الفداء بعض أهل الذمة من [٨] رعايا الدولة الاسلامية ، ذكر محمد بن أحمد بن سلم بن قتيبة انهم كانوا اقل من خمسمائة ، كما أورد الطبري بينما ذكر المسعودي ان عملية الفداء استمرت عشرة ايام تم فيها فداء أربعة الاف وثلاثمائة واثنين وستين من ذكور [٩] واناث ، كما

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٧ .
(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ .
(٣) الطبري : الامم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ .
(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ .
(٥) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٥ .
(٦) الطبري : الامم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ . فازلييف : العرب والروم ص ١٧٨ .
(٧) الطبري : احداث ٢٣١ هـ .
(٨) فازلييف : العرب والروم ص ١٧٨ .
(٩) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٧ .

اتفقت رواية المقريزي [1] مع رواية المسعودي .

وقامت لجنة الامتحان بخلق القرآن بمهمتها خير قيام ، فقد اتخذت اماكنها على جسر المسلمين . يؤكد اليعقوبي ذلك قائلاً : « كان أبو رملة وجعفر الحذاء واقفين على قنطرة النهر ، فكلما مر رجل من الاسرى امتحنوه في القرآن فمن قال انه مخلوق فودي به ودفع اليه ديناران وثوبان » [2] تم امتحان جميع الاسرى المسلمين فمن اقر بخلق القرآن وأن الله تعالى لا يرى في الاخرة فودي به واعطي دينارين ، ومن ابى ترك في أيدي الروم . وقد ذكر المسعودي ان جماعة من الاسارى رفضوا القول بخلق القرآن واختاروا الرجوع الى الاراضي البيزنطية على الخضوع لتلك المحنة [3] والقول بخلق القرآن .

ويبدو ان الذي شجعهم على ذلك هو المعاملة الطيبة التي لقيها أسرى المسلمين في الدولة البيزنطية ، اذ كانت ترعى تعاليم الاسلام في معاملتها للأسرى المسلمين ، فلم تكره احداً منهم على اكل لحم الخنزير أو ما يخالف الاسلام ، كما لم يتعرض المسلمون للتعذيب بينما عذب الروم أسرى اعدائهم الاخرين من الدول المتاخمة لحدودها الشمالية . ولعل تلك المعاملة التي حظى بها الاسرى المسلمون ترجع الى ما تمتعت به الدولة العباسية من مهابة وجلال ، والى حسن معاملتها للأسرى الروم . بل ان الدولة البيزنطية سمحت للأسرى المسلمين بمزاولة بعض التجارة الداخلية التي درت عليهم ارباحاً ، كما مارس الأسرى المسلمون بعض الألعاب المرحة للترفيه [4] .

افتدى خاقان الخادم كل من علم به من رعايا الدولة الاسلامية حتى انه افتدى ثلاثين رجلاً من المسلمين كانوا قد ارتدوا [5] وتنصروا بعد اسرهم كما يروي الطبري ولكنه لم يوضح [6] ظروف تنصرهم او الاسباب التي دفعتهم الى ذلك . وهنا

(١) خطط المقريزي جـ ٢ ص ١٩١ .

(٢) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ .

(٣) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٨ .

(٤) المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٤٧ وما بعدها . ابراهيم العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ١١١ .

(٥) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

(٦) المصدر السابق .

ملاحظة تسترعي الانتباه وهي ان الواثق وسعه ان يفادي ثلاثين رجلاً تنصروا وارتدوا عن الاسلام بينما ضاق ذرعاً ببعض المسلمين الذين رفضوا القول بخلق القرآن ومنع فداءهم وتركهم [1] في ايدي الروم . مما يوضح مدى تمسك الواثق بسياسته الدينية فيما يتعلق بقضية خلق القرآن .

شمل هذا الفداء أيضاً اسرى زبطرة [2] التي خربها ثيوفيل سنة ثلاث وعشرين ومائتين الموافق ٨٣٧ م . وكان ممن شملهم هذا الفداء أيضاً مسلم بن ابي مسلم الجرمي [3] الذي كانت له مكانته الاجتماعية في منطقة الثغور . وكان ذا معرفة بأرض الروم ومسالكها وأخبارها وملوكها ومن جاورهم من البلدان وكانت له مصنفات في كل ذلك كما كان على علم بافضل اوقات الغزو والهجوم على الاراضي البيزنطية . وشمل هذا الفداء ايضاً محمد بن عبد الله الطرسوسي الذي بقي اسيراً لدى الروم نحواً من ثلاثين [4] عاماً .

افتدى خاقان الخادم كل من كان لدى البيزنطيين نفساً بنفس وبتعبير الطبري استفرغ خاقان جميع من كان في بلد الروم من المسلمين ممن علم موضعه ورغم ذلك بقي مع خاقان من الروم الذين كان الواثق قد أعدهم لفداء المسلمين اعداد كبيرة . فاعطى خاقان القائد البيزنطي المشرف على الفداء اعطاه مائة نفس ممن بقي معه ورد الباقين الى طرسوس حيث باعهم [5] .

ومما يضفي على هذا الفداء مزيداً من الاهمية ما أورده خليفة بن خياط عن عدد من شملهم الفداء فقد ذكر أنه فدى من المسلمين نحواً من أربعة الاف رجل وستمائة ونحوها من النساء والصبيان [6] .

وبعد انتهاء عملية الفداء ارسل كل من خاقان الخادم المشرف العام على مراسم الفداء ، واحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة والي الثغور والعواصم ، أرسلا

---

(١) المسعودي التنبيه والاشراف ص ١٧٨ .
(٢) المصدر السابق . فازليف : العرب والروم ص ١٧٨ .
(٣) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٨ . خطط المقريزي جـ ٢ ص ١٩١ .
(٤) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .
(٥) المصدر السابق .
(٦) تاريخ خليفه بن خياط ص ١٨٠ .

للواثق في سامرا يعلماه بكل ما حدث ، فقد كان شديد الاهتمام بذلك الأمر وأرسلا بالانباء مع وفد من وجوه الأسرى منهم محمد بن عبد الله الطرسوسي (١) . وفرح الواثق بعودة المسلمين وباتمام الفداء فأعطاهم لكل رجل ممن حضر اليه فرساً والف درهم (٢) .

واظهر البيزنطيون قلقهم (٣) وخوفهم نظراً لقلة عددهم وكثرة المسلمين الذين حضروا الفداء ، فقد ذكر الطبري ان الذين حضروا الفداء اربعة الاف بين فارس وراجل ، بينما ذكر اليعقوبي انه حضر الفداء سبعون (٤) الف رجل يحملون الرماح . وحتى لو كان هذا الرقم فيه شيء من المبالغة ، فاننا نخلص بحقيقة واضحة وهي ان المسلمين الذين حضروا الفداء كانوا كثرة ، ولا غرابة في ذلك فمنطقة الثغور والعواصم حيث جرى الفداء منطقة عسكرية .

ويقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم . وفي نفس الوقت للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة لحدود الروم ، وهي الحصون التي سميت باقليم الثغور لمواجهتها للثغرات أو المنافذ في أرض العدو . وكان اقليم الثغور ينقسم قسمين احدهما في الشمال الشرقي ويسمى بالثغور الجزرية التي تدافع عن شمال العراق ومن اهم حصونها زبطرة وحصن منصور والحدث . والقسم الثاني يسمى بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث يقترب من ساحل خليج الاسكندرونة ومن أهم حصونه المصيصة وأذنة ، وطرسوس (٥) .

قامت سياسة العباسيين منذ عهد المنصور على تحصين مناطق الحدود وبناء المدن المحاطة بالاسوار الضخمة والقلاع الحصينة بها وكان ذلك أساس النظام الدفاعي بعد أن تخلى العباسيون عن سياسة الفتح وفترت الرغبة في الهجوم . وأصبحت سياسة تحصين الحدود سياسة مستمرة سار عليها المهدي والرشيد والمأمون

---

(١) الطبري : احداث عام ٢٣١ هـ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) فازليف : العرب والروم ص ١٧٧ .
(٤) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ .
(٥) ابراهيم العدوي : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ٨٩ - ٩٠ .

ثم المعتصم [١] وانفقوا في ذلك الكثير من الجهد والمال ، وأنشأوا بذلك مدناً عسكريه الطابع سكنها بطبيعة الحال المقاتلة والمجاهدون حتى صارت مجتمعات عسكرية فعلاً . وفي سبيل اقامة هذه المجتمعات العسكرية استخدم العباسيون كل وسائل الاغراء المادي فبنوا المساكن ومنحوا الاقطاعات الزراعية وزادوهم في العطاء وقدموا لهم كل المعونات . ونقلت القبائل العربية لتعمير هذه المدن [٢] لتكون دفاعاً مرابطاً على الثغور يحمي دار الاسلام من أي عدوان مفاجيء .

والمنصور هو الذي وضع اساس النظام الثغري [٣] الذي وصل درجة الكمال زمن المعتصم حتى اكتسبت منطقة الثغور استقلالاً ادارياً ، وقدرة على الحركة للدفاع عن الحدود . وكان الرشيد في مطلع خلافته قد عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها منطقة ادارية وعسكرية سماها بالعواصم [٤] وقاعدتها منبج . وولى عليها عبد الملك بن صالح العباسي كما تولاها أيضاً القاسم بن الرشيد الذي لقبه بالمؤتمن . وفي زمن المأمون ولاها لابنه العباس . وقد ولاها الواثق قبيل الفداء لاحمد بن سعيد بن سلم الباهلي [٥] الذي حضر فداء ٢٣١ هـ .

نهر اللامس حيث جرى الفداء قريب من طرسوس [٦] اي في منطقة الثغور والعواصم التي هي كما رأينا منطقة عسكرية ومجتمعاً عسكرياً ، وامر طبيعي ان يحضر ابناء المنطقة ليشهدوا عملية الفداء ، وعلى ذلك فمن الممكن جداً أن يكون المسلمون الذين حضروا الفداء قد بلغ عددهم سبعين الف كما ذكر اليعقوبي [٧] . ونرجح ان الاربعة الاف الذين ذكرهم الطبري قد قدموا من العراق وبقية السبعين الف هم من ابناء منطقة الثغور .

وأمر طبيعي ايضاً ن يساور البيزنطيين شيء من القلق او الخوف نظراً لقلة عددهم بالنسبة لعدد المسلمين في مكان الفداء ، ويبدو من رواية الطبري انهم أبدوا

---

(١) يراجع ما اورده الطبري عن كل منهم . وايضا ما أورده البلاذري ص ١٩٩ ـ ٢٢٧ .

(٢) مولوي : الادارة العربية ص ٤١٦ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٢٣ .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٨٣ .

(٥) تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٨٠ .

(٦) الطبري : احداث عام ٢٣١ هـ .

(٧) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٢ .

تخاوفهم تلك لخاقان الخادم المشرف على عمليات الفداء ، مما جعل خاقان يؤمنهم ويعقد معهم هدنة لمدة اربعين (1) يوماً فقط ، ولم يعقد هدنة طويلة الاجل ، بل لمدة تكفي فقط كي يصل الوفد البيزنطي الذي قام بعملية الفداء وأسراهم الذين استردوهم بمقتضاه الى بلادهم آمنين .

وهكذا تم تبادل الاسرى ولكن الدولة الاسلامية لم تعقد مع البيزنطيين هدنة طويلة الأجل . ويبدو انها كانت سياسة مرسومة ونرجح أن خاقان الخادم كان على علم بسياسة الدولة واتجاهها . ولا يستبعد أن يكون البيزنطيون حينما طلبوا الفداء ، طلبوا ايضاً هدنة طويلة ولم يوافق الخليفة الواثق على ذلك . فالواثق هنا رغم انه كان يميل الى السلم الا انه لم يفصح عن هذه الرغبة للبيزنطيين قط ، فهم الذين بدأوا بطلب (2) الفداء ولما اختلفت وجهات النظر خلال المفاوضات بين الوفدين ، اصر الوفد الاسلامي على موقفه حتى نزل (3) الوفد البيزنطي على رأيه . وهكذا كانت الدولة الاسلامية خلال ذلك الفداء هي الطرف الأقوى . وحينما حقق الواثق السلام حققه من منطلق قوة ، فالواثق رفع راية سلم وسلام لا استسلام ولم يوقع هدنة طويلة الأجل بحيث ترك البيزنطيين يشعرون بالهيبة من الدولة الاسلامية التي في يدها زمام الحرب والسلم .

لم يكن في هذا الفداء ما يأباه الاسلام . وحتى لو كان الواثق قد عقد هدنة مع البيزنطيين ، فقد اباح الفقهاء الهدنة ان كان في ذلك مصلحة للمسلمين (4) . ولا شك في ان الحرب في الاسلام ليست هي الأصل في العلاقات الدولية بل ان الاصل في العلاقات الدولية في الاسلام هو السلم ، حتى يكون الاعتداء ، باعتداء على الدولة الاسلامية فعلاً أو بفتنة المسلمين عن دينهم فالحرب حينئذ تكون ضرورة أوجبها قانون الدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن الحرية الدينية . وذلك هو رأى الجمهرة العظمى من الفقهاء (5) .

ويؤكد الشيخ محمد ابو زهرة ذلك قائلاً : « ولنذكر بعض معاهدات النبي

---

(1) الطبري : الامم والملوك عام ٢٣١ هـ .

(2) فازليف : العرب والروم ص ١٧٥ .

(3) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .

(4) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطة جـ ٢ ص ٣٩٢ .

(5) محمد ابو زهرة : العلاقات الدولية في الاسلام ص ٤٨ - ٥٢ .

(ﷺ) ومنها يستبين ما فيها من تقرير للسلم ن تنظيم للجوار ، ومن الاخيرة معاهدته مع اليهود الذين كانوا بالمدينة » [1] .

وبعد انقضاء الاربعين يوماً المتفق عليها في الهدنة بين خاقان الخادم والبيزنطيين غزا أحمد بن سعيد بن سلم بن قتيبة والي الثغور أرض الروم في الشتاء وكان بصحبته جيش من سبعة الاف رجل [2] فتعرض المسلمون للخطر والثلوج فمات منهم نحواً من مائتين ، كما أسر نحواً من ذلك ، وغرق عدد كبير منهم في نهر البذ.ون ثم رجع وساق امامه نحواً من الف بقرة وعشرة الاف شاة [3] ولما كان الواثق يميل الى السلم نظراً لظروف الدولة في تلك المرحلة فقد غضب على والي الثغور احمد بن سعيد وسخط عليه لفشله وعزله [4] . ثم ولى الثغور لنصر بن حمزة الخزاعي وذلك في ١٦ من جمادى الاولى من نفس العام [5] .

أهمية هذا الفداء :

لم تعرف الأفدية في العصر الاموي انما كان يفادى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر والاسكندرية وملطية وبقية الثغور الجزرية الى ان كان عهد الرشيد [6] . فالأفدية من ملامح العصر العباسي . وهذا الفداء الذي حدث في عهد الواثق وإن لم يكن اول فداء في الدولة ، الا انه أول فداء شمل جميع من في بلاد الروم من أسرى المسلمين .

وقد ذكر الطبري [7] عدة روايات عن عدد من شملهم فداء خاقان الذي تم في عهد الواثق فكان اكبر رقم هو اربعة الاف وستمائة . بينما ذكر خليفة بن خياط [8] ان عدد من شملهم هذا الفداء هو اربعة الاف رجل وستمائة ونحوها من النساء والصبيان فيكون المجموع بذلك تسعة الاف ومائتين استردهم الواثق بمقتضى هذا الفداء .

---

(١) محمد ابو زهرة : العلاقات الدولية في الاسلام ص ٧٥ .
(٢) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) فازلييف : العرب والروم ص ١٧٩ .
(٥) الطبري : الامم والملوك احداث ٢٣١ هـ .
(٦) خطط المقريزي جـ ٢ ص ١٩١ .
(٧) الامم والملوك احداث ٢٣٠ هـ .
(٨) تاريخ خليفة بن خياط ص ٤٨٠ .

ونحن نميل الى الاخذ برواية خليفة بن خياط لعدة أسباب :

أولاً : أن تاريخ خليفة بن خياط يعتبر اقدم كتاب لتاريخ الاسلام في أيدينا الان . اذ ان خليفة بن خياط توفى نحو عام ٢٤٠ هـ ، اربعين ومائتين للهجرة . وهو بذلك يكون معاصراً تماماً لاحداث الفداء الذي تم سنة ٢٣٢ هـ . وبذلك يكون اكثر قرباً لها من الطبري الذي توفى عام ٣١٠ هـ عشرة وثلاثمائة للهجرة أي أنه توفى بعد خليفة بن خياط بسبعين عاماً .

ثانياً : أن كتاب خليفة بن خياط أبرز نقاط تاريخية لم يذكرها الطبري نفسه . فابن خياط اهتم بذكر اسماء الشهداء في الغزوات والمواقع الهامة . كما انه امتاز بتقديم قوائم غاية في الاهمية تشمل أسماء العمال والولاة والحجاب والشرطة والقضاة وكبار رجال الادارة والموظفين في عهد كل خليفة من خلفاء الدوله الاسلامية .

وما دام ابن خياط اهتم هكذا باسماء الشهداء واسماء العمال وكبار الموظفين فلا يمكن ان يغفل عدد من شملهم الفداء .

ثالثاً : أن العدد الذي ذكره خليفة بن خياط هو المعقول فقد شمل أسرى بقوا لدى الروم ثلاثين عاماً كما ذكر الطبري . وكذلك شمل الفداء كل اسرى حروب المأمون والمعتصم بل شمل أسرى زبطرة التي خربها ثيوفيل عام ثلاث وعشرين ومائتين .

رابعاً : ان المسعودي ذكر ان هذا الفداء تم في عشرة أيام .

وهكذا نرى مدى أهمية هذا الفداء في استرداد هذا العدد من أبناء الأمة .

ذكر المسعودي الأفدية التي حدثت بين المسلمين والبيزنطيين فذكر أن الفداء الاول (١) هو فداء أبي سليم ، وكان في خلافة الرشيد عام ١٨٩ هـ في عهد الامبراطور نقفور ، وقام به القاسم بن الرشيد مع أبي سليم فرج الخادم ، وتم الفداء في اثني عشر يوماً . فودي به ثلاثة آلاف وسبعمائة من المسلمين .

والفداء الثاني (٢) فداء ثابت وكان ايضاً في عهد الرشيد في عام ١٩٢ هـ وكان

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٦ .

(٢) المصدر السابق . خطط المقريزي جـ ٢ ص ١٩١ .

على الروم الامبراطور نقفور . اشرف على هذا الفداء ثابت بن نصر بن مالك الخزاعي امير الثغور الشامية . وعدة من فودى به من المسلمين نحو الفين وخمسمائة او اكثر قليلاً ، وتم في سبعة ايام .

أما الفداء الثالث [1] هو فداء خاقان الذي تم في خلافة الواثق عام ٢٣١ هـ غير ان المسعودي اكد ان فداء خاقان في عهد الواثق تم في عشرة أيام وليس في أربعة ايام كما ذكر الطبري . وأن عدة من فودى به من المسلمين اربعة الاف وثلاثمائة واثنين وستين . ويتفق المسعودي مع الطبري بعد ذلك في كل ما يتعلق بهذا الفداء . كما نلاحظ ان رواية المقريزي [2] تتفق تماماً مع رواية المسعودي فيما يتعلق بهذه الأفدية .

ويسترسل المسعودي في ذكر الافدية فيذكر ان الفداء الرابع [3] هو فداء شنيف في خلافة المتوكل .

أما الفداء الخامس [4] فهو فداء نصر بن الازهر وعلي بن يحيى في عهد المتوكل أيضاً ، وان كانت اعداد من فودى به في كل من هذين الفداءين اقل بكثير من الفداء الذي حدث زمن الواثق . وتتفق رواية المقريزي ايضاً مع رواية المسعودي في هذه الأفدية .

تلك هي الافدية التي حدثت خلال العصر العباسي الاول حتى مطلع العصر العباسي الثاني . ويبدو انه كانت هناك حركات تبادل أسرى على نطاق محدود او انها كانت حركات فردية لافراد معينين فقد جاء في رواية الطبري ذكر فداء زمن محمد بن زبيدة في ١٩٤ او ١٩٥ هـ [5] .

ومما يضفي على هذا الفداء اهمية اكبر ان غالبية من شملهم الفداء كانوا عرباً واسترداد الواثق لهم هو في الواقع تقوية للعنصر العربي فتسعة الاف مقاتل عربي من شأنه ترجيح كفة العنصر العربي في الدولة الاسلامية وتقويته في صراعه ضد الاتراك

(١) المسعودي : التنبيه والاشراف ص ١٧٧ .
(٢) خطط المقريزي جـ ٢ ص ١٩١ .
(٣) المسعودي : التنبيه والاشراف .
(٤) المصدر السابق .
(٥) الطبري : تاريخ الامم والملوك احداث عام ٢٣١ هـ .

الذين كانت تعاني منهم الخلافة . علاوة على أن استعادة الدولة الاسلامية لهذا العدد هو في حد ذاته اضافة الى قوتها البشرية .

ولم يكن الواثق اول من سالم البيزنطيين فقد سالمهم خلفاء بني أمية من قبل اذ عقد كل من الخليفة معاوية بن ابي سفيان والخليفة عبد الملك بن مروان معاهدتي صلح مع البيزنطيين على ان يدفعا لهم مبلغاً من المال حتى يأمنا شر هجومهم على الدولة الاسلامية بينما كان كل من الخليفتين مشغولا بالفتن الداخلية . على ان من جوز ذلك من الفقهاء احتج ايضاً بقاعدة أخف الضررين [1] .

ومن الجدير بالذكر ان الصلح يمكن ان يكون دائماً اذا اتفق ان رغب الاعداء في السلام بصفة مستديمة كما في صريح الآية : ﴿ ولن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ . وقد اجاز الصلح الدائم من الفقهاء الامامان أبو حنيفة واحمد بن حنبل [2] .

---

(١) النواوي : العلاقات الدولية والنظم القضائية في الشريعة الاسلامية ص ٨١ .
(٢) المصدر السابق ص ٨٠ .

الفصل الخامس

النتائج التي ترتبت على السلم

الفصل الخامس

النتائج التي ترتبت على السم

رأينا من خلال استعراضنا لعناصر الموقف الدولي كيف اتضحت جهود الواثق بالله ، والحق انها جهود تستحوذ على كل تقدير واعجاب ، فما لان الواثق او استكان بل استمر خلال سني خلافته في عمل متواصل دؤ وب الا ان الظروف التي تبلورت في عهده هي التي أملت وحتمت السلم في تلك الفترة . لا سيا بعد ان اخذ الخور والفتور يدب في أوصال الخلافة قبيل انتهاء العصر العباسي الاول بقوته وعنفوانه ، لتبرز وتتضح ملامح عصر جديد ، وهو العصر العباسي الثاني .

كان السلم كسباً حققه الواثق للدولة الاسلامية . ولقد كان لهذا السلم نتائج ثقافية بعيدة المدى لا في التاريخ الاسلامي فحسب بل في تاريخ البشرية جمعاء . فقد كان كسباً حضارياً بالغ الاهمية ، ففي ظل هذا السلم نشطت الثقافة ونهضت نهضة كبرى [1] اذ حدث تبادل ثقافي هائل بين الدولة الاسلامية والعالم الخارجي وترجم [2] المسلمون ونهلوا من ينابيع الثقافات الاغريقية والهندية والفارسية ، فعرفوا كل ما وصلت اليه البشرية في شتى فروع المعرفة . ثم اخذ علماء المسلمين يمحصون آراء الاقدمين ويشرحونها ويصححونها ويضيفون اليها من ابتكارهم وتأليفهم كما انطلقت الثقافة والحضارة الاسلامية وفتحت آفاقاً جديدة في تركستان وما وراء النهر والهند والشرق الأقصى وصقلية وجنوب ايطاليا .

وفي ظل هذا السلم نشطت التجارة نشاطاً كبيراً مما جعل موانيء عدن وعمان وسيراف [3] والأبلّه والبصرة في مقدمة الموانيء العالمية ووصلت البضائع العربية الى

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٧ ـ ٨٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ . زيغريد هونكه : شمس العرب ص ٢٧٨ وما بعدها .

(٣) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ٢ ص ٤٣٧ ـ ٤٤٠ .

الفلبيين والصين [١] والى حوض الفولجا والرون كما وصلت الى شمال غرب أوروبا واسكنديناوة وارتقت الصناعة وتكدست الثروات .

أفادت الدولة الاسلامية من السلم في ميدان الحضارة في الجانب الثقافي والعلمي ثم في الجانب الاقتصادي والتجاري . اي انه ترتب على السلم نتائج ثقافية كما ترتبت عليه نتائج اقتصادية .

أولا : النتائج الثقافية :

موقف الاسلام من العلم :

لو أننا تأملنا فيما ورد في القرآن الكريم من آيات تتناول العلم [٢] وفضله وسبله وكذلك ما ورد في السنة حول هذا الموضوع لعرفنا مكانة العلم في الاسلام ومدى اهتمامه العظيم به . ويكفي ان اول آيات بينات نزلت على سيدنا محمد ﷺ تنبئه بالرسالة وتحمله مسؤ وليتها تصدع اول كلماتها بالقراءة التي هي مفتاح العلم والتعليم ، كما تذكر القلم الذي هو وسيلة الكتابة وحفظ العلم ونقله وأداة التعبير عما نريد . فالعلم هو سبيل التحرر من العبودية لغير الله . ولقد خاطب الاسلام العقل ، وبه ميز الخالق عز وجل الانسان عن سائر المخلوقات . قال تعالى : ﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [٣] وقال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ [٤] . وفي ذلك تقول احدى المستشرقات [٥] : « كان محمد يرى في تعمق أتباعه في دراسة المخلوقات وعجائبها وسيلة للتعرف على قدرة الخالق . وكان يرى أن المعرفة تنير طريق الايمان مردداً عليهم : « اطلبوا العلم ولو في الصين » واسترسلت المستشرقة المذكورة موضحة ان النبي ﷺ كان يلفت انظار المسلمين ويوجههم الى علوم كل الشعوب لأن العلم يخدم الايمان لذلك أصبح العلم واجباً عليهم ان يصلوا اليه ولو كان من عند غير المسلمين .

---

(١) أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣١٠ وما بعدها .

(٢) سورة الزخرف آية ٣ - سورة العنكبوت آية ٤٣ - سورة البقرة آية ٢٦٦ - سورة الزمر آية ٩ - سورة الانبياء آية ٧ - سورة المجادلة آية ١١ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٨ .

(٤) المجادلة ، آية ١١ .

(٥) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٦٩ .

ثم استرسلت تقارن بين العلم في نظر الاسلام والعلم في نظر النصرانية في الغرب الأوروبي خلال العصور الوسطى ، فذكرت ان القديس اوغسطينوس يعرف محور المعرفة قائلاً : « أما الرب والروح فاني ابغي معرفتها . فالبحث عن الحقيقة هو البحث عن الله وهذا لا يستدعي معونة من الخارج . والمصدر الوحيد لتلك المعرفة هو الكتاب المقدس »[1] ، وأوضحت كيف وصل بهم الامر الى اعتبارهم كل من ينادي بفكرة علمية جديدة ككروية الأرض مثلاً على انه كافر ضال واستدلت على ذلك بأقوال لاكتافيوس معلم الكنيسة معلقاً على ما يدعيه البعض من ان الارض كروية حيث قال متسائلاً ، مستنكراً : « هل هذا من المعقول ، أيعقل ان يجن الناس الى هذا الحد[2] » ، فكان كل من يقبل او يقتنع بتفسير علمي لحوادث الطبيعة يعتبر خارجاً عن طاعة الرب .

وبذلك لم تكن الكنيسة ورجالها عامل انقاذ للحضارة بل عائقاً لها . لقد كانت أمامهم الفرصة في ان يأخذوا التراث الاغريقي العظيم ويتطوروا به قدماً اذ كان في أيديهم عدد ضخم مما ترك هؤلاء اكثر مما توصل اليه المسلمون . كما كان منهم الكثيرون الذين يتقنون اللغة اليونانية . ولكن الفكر والتراث الاغريقي ظل دوماً في نظرهم غريباً . لقد كان الفكر الاغريقي يمثل للمسيحيين شبحاً ملعوناً فلم يقتربوا منه بل حطموا قدراً كبيراً من تراثه فحرموا منه البشرية . وظل هذا التفكير العقيم سائداً حتى القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري). حين يقول القديس توما الأكويني : « ان المعرفة القليلة لأمور سامية أجل قدراً من معرفة كبيرة موضوعها أمور حقيرة »[3] .

ويؤكد ستانوود كب عداء النصرانية للعلم قائلاً : « اخذ نور العلم الاغريقي يخبو تدريجياً بعد أن أضاء العالم القديم ردحاً من الزمن . وأخذ اللاهوت المسيحي ينزل الفلسفة والعلم الوثنيين عن مكانهما ويحل محلهما منذ عهد قسطنطين »[4] ويسترسل قائلاً : الاسلام كان في وقت من الاوقات اكثر احتفاء

(١) المصدر السابق ص ٣٧٠ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٧١ .

(٤) ستانوودكب : المسلمون في تاريخ الحضارة ص ١١٣ .

بالتمحيص العلمي من المسيحية [1] .

وهذا يوضح تماماً لماذا احتاجت الحضارة الاوروبية في الغرب ألف عام قبل ان تأخذ في الازدهار التدريجي وهذا هو ما يفسر ظلام العصور الوسطى الاوروبية مع ان الغرب كانت لديه الفرصة التي تمكنه من أن يسبق الحضارة العربية الاسلامية بقرنين أو ثلاثة بدلاً من ان تقوم نهضته على نهضة المسلمين .

الحالة العلمية في العصر العباسي الأول :

بدأ الاهتمام بالكتابة والتدوين منذ فجر الدولة في عهد النبي ﷺ ، وكان للرسول عدد كبير من الكتاب منهم كتاب الوحي ، كما ان امور الدولة من مراسلات وعهود ومواثيق كانت تتطلب كتاباً . وكان هناك كتاب الرسائل يكتبون باللغات المختلفة ، وكتاب الصدقات . استغرق القرن الاول الهجري المسلمين في حركة الفتوحات الاسلامية ، ثم ظهرت حركة علمية اتسع نطاقها تدريجياً بعد ذلك ، وانتشر في الافاق الاسلامية ، فكان الباحثون وطلاب العلم يجوبون العالم الاسلامي ، ومن الطبيعي ان يكون العصر العباسي الاول أنسب العصور وأكثرها ملاءمة للنهضة الثقافية ، فمدنية الاسلام بدأت خلاله تستقر بعد هدوء حركة التوسع والفتوح التي كانت طابع العصر الاموي ، والثقافة تنتشر في الامة اذا هدأت واستقرت اوضاعها [2] . فلما كان القرن الثالث الهجري نشطت الحركة الثقافية بل نهضت وكثرت المؤلفات في مختلف العلوم ، يقول ابن خلدون : « وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم وانتسخت الكتب وأجيد كتبها وتجليدها » [3] . وتمثلت النهضة العلمية خلال العصر العباسي الاول في شكل حركة تصنيف ثم تنظيم للعلوم الاسلامية ثم حركة ترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية .

ان تأثير الدعوة العباسية وما تلاها من أحداث لم يقتصر على الناحية السياسية فحسب بل تعداها الى الناحية الثقافية والفكرية ، اذ تبع قيام الدولة العباسية انطلاقة ثقافية ازدادت خطاها مع سنوات العصر العباسي الاول وبلغت قمة

---

(١) المصدر السابق ص ١١٩ .

(٢) أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٣ ص ٢١٣ .

(٣) مقدمه ابن خلدون ص ٤٢٠ .

ازدهارها في القرن الرابع الهجري [١] . وهناك عوامل ساعدت على تلك الانطلاقة الثقافية خلال العصر العباسي الأول أبرزها الانتشار الواسع للاسلام بين الموالي خاصة الفرس ثم الانتشار الواسع أيضاً للغة العربية والذي صاحب انتشار الاسلام .

يوضح ذلك ما أورده فازلييف [٢] حين يقول : « يعتبر القرن التاسع [٣] أبهى العصور في العلم والأدب العربيين ، ومع ذلك فانه من الملاحظة ذات الدلالة إن دور العرب أنفسهم كان ضئيلاً وأنهم كانوا الى حد بعيد عالة على الأجانب » . ويؤكد ابن خلدون ذلك المعنى قائلاً : « من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية اكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربي » [٤] .

أعطى الموالي الفرس الثقافة العربية عقولهم وتجاربهم وبرزوا في مجال الفكر كما برزوا في مجال السياسة والاقتصاد ، وعمت مآثرهم الفكرية العالم الاسلامي ، كما كان الفرس هؤلاء هم طليعة حركة الترجمة من الفارسية الى العربية امثال عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت والحسن بن سهل ، والبلاذري وجبله بن سالم ، وزادويه بن شاهويه الأصفهاني وكثيرين غيرهم أورد ابن النديم [٥] أسماءهم.

وكان هؤلاء الفرس الصاعدون الى النفوذ والسلطان المنطلقون في غير قيود قد اتقنوا اللغة العربية الى جانب اتقانهم لغتهم الفارسية ، فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية والعربية وتثقفوا منها وأنتجوا في العربية انتاجاً جديداً ، ومن ابرز الأمثلة على ذلك موسى بن سيار الاسواري ، الذي كان من اعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية بقدر فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها بالعربية للعرب ،

---

(١) يراجع آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري .

(٢) فازلييف : العرب والروم ص ١٥ .

(٣) القرن التاسع في هذا النص يقصد به القرن التاسع الميلادي اي الثالث الهجري .

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

بالفارسية للفرس [1] .

وقد علل ابن خلدون [2] اعتماد الحركة الثقافية والفكرية خلال العصر العباسي الاول على الموالي بان الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة وانما احكام الشريعة التي هي اوامر الله ونواهيه ، كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين فلم تدفعهم اليه حاجة واستمر الوضع على ذلك زمن الصحابة والتابعين الذين كانوا يطلقون على المختصين بحمل ذلك ونقله أو تعلمه وتلقيه بالقراء ، أي ليسوا أميين لأن الأمية يومئذ صفة عامة في العرب فقيل لحملة القرآن قراء اشارة الى هذا فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله لأنهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية الا منه ومن الحديث الذي هو في الغالب تفسير له وشرح . يقول ابن خلدون [3] : « فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعد احتيج الى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه ، ثم احتيج الى معرفة الأسانيد وتعديل الناقلين للتمييز بين الصحيح من الأسانيد وما دونه ، ثم كثر استخراج احكام الواقعات من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتيج الى وضع القوانين النحوية . . . وصارت العلوم حضرية وبعد عنها العرب وعن سوقها والحضر لذلك العهد هم العجم من الموالي وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم في الحضارة واحوالها من الصنائع والحرف لأنهم اقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسي من بعده والزجاج من بعدهما وكلهم عجم في أنسابهم وانما ربوا في اللسان العربي فاكتسبوه بالمربى ومخالطة العرب وصيروه قوانين وفناً لمن بعدهم وكذا حملة الحديث الذين حفظوه عن اهل الاسلام اكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ، وكان علماء اصول الفقه كلهم عجما ، وكذا حملة علم الكلام وكذا اكثر المفسرين ،لم يقم بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم . وظهر مصداق قولهﷺ : « لو تعلق العلم باكناف السماء لناله قوم من أهل فارس » وأما العرب الذين أدركوا هذه

---

(1) الجاحظ : البيان والتبين جـ ١ ص ١٣٩ . حسن محمود . العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٢٤٦ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣ .
(٣) مصدر السابق ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ .
حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٢٠ ـ ٣٢٢ .

الحضارة وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة وحاميتها وأولى سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع والرؤ وساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن » .

هكذا انطلق الموالي التواقين الى المعرفة والذين لم يقتنعوا بالتراث الذي يحتكر روايته شفوياً جماعة من الحفاظ اذ علق التدوين في فجر الاسلام ، المبدأ القائل بوجوب عدم وجود كتاب مدون غير القرآن [١] .

أراد الموالي ان تكون بين أيديهم مدونات يخضعونها للدراسة وساندهم في ذلك المفكرون العرب الغيورون على تراثهم الفكري لخشيتهم أن تمتد الى هذا التراث الغير مدون يد الوضع والتزييف بعد ان لاحت في الأفق نذر الشعوبية وبعد ان تعددت الفرق الاسلامية المتضاربة ، وهكذا كانت حركة التدوين والتصنيف لمختلف العلوم النقلية لأنها مستمدة من الدين أو منقولة عنه فكان علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الحديث وعلم الفقه [٢] وظهرت المذاهب الاربعة وتبلورت في العصر العباسي الاول فكان مذهب أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) في العراق ومذهب مالك (ت ١٧٩ هـ) في الحجاز . ثم مذهب الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) الذي جمع بين العراقيين والحجازيين ثم مذهب ابن حنبل (ت ٢٤١ هـ).كما ظهر التدوين في المغازي والسير ثم ظهر علم الكلام وكذلك علوم اللغة العربية [٣] ونبغ في ذلك كثير من الفرس فعلى سبيل المثال برز في علم الحديث الحسن البصري ومحمد بن سيرين والبخاري [٤] . وصارت المساجد اماكن لتدريس الفقه والحديث ثم علوم المعتزلة وعلوم الادب واللغة . كما انتشرت مجالس المناظرة في الدور والقصور والمساجد بين العلماء بل وكثيراً ما كانت في حضرة الخلفاء .

---

(١) مرغوليوث : دراسات عن المؤرخين العرب ص ٥٩ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦١ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٢٠ـ ٣٤٤ .

آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جـ (ص ٣٣٣ـ ٣٧٧ .

ابو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية والفكر الاسلامي ص ١٨٧ ـ ٢٢٩ .

عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ص ١٤٧ ـ ٢١١ .

(٤) أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٦٧ .

العلوم العقلية وظهور حركة الترجمة :

لم يغفل المسلمون العلوم العقلية فقد اشتغلوا بها وكان لهم فيها باع طويل . فبعد ان عظم اختلاط العرب بغيرهم من الأمم التي دخلت الاسلام وخضعت لحكمهم من أقباط وفرس وروم وسريان ، تفتحت عيونهم على ثقافات هذه الأمم خاصة الثقافة الاغريقية . وتذكر المصادر ان اول ترجمة ذات طابع علمي في الدولة الاسلامية كانت على يد خالد بن يزيد [1] بن معاوية الذي درس على علماء مدرسة الاسكندرية . والذي كانت له مؤلفاته العلمية [2] . واستمرت حركة الترجمة في العصر [3] الأموي وان لم تخضع لخطة منظمة .

أما في العصر العباسي فقد ازدهرت العلوم العقلية وحركة الترجمة ازدهاراً كبيراً استجابة لعدة دوافع مختلفة على رأسها احتياج الخلفاء [4] وحياة الحضارة الجديدة الى الطب والعلاج والأدوية مما دفعهم الى الاتصال بجند يسابور اولى مراكز الطب والعلوم الاغريقية آنذاك والزاخرة بالاطباء ، فاستقدمهم [5] المنصور ومن بعده من الخلفاء فنقلوا علومهم الى اللغة العربية خاصة أن الخلفاء شجعوهم بجزيل العطاء بل رفعوا مكانتهم وقربوهم [6] ووفروا لهم كافة الامكانات .

كما ان ظهور الفرق الاسلامية المتصارعة التي ترغب في الاستعانة في جدلهم ومناظراتهم بالمنطق والفلسفة كان له أثره في الاقبال على ترجمة الفلسفة الاغريقية للاستعانة بها ليتمكنوا من مقارعة خصومهم والدفاع عن آرائهم ووجهات نظرهم فكان علم الكلام الذي استعان به المعتزلة في نصرة الاسلام ضد الزنادقة . كما استفاد من الفلسفة أيضاً العرب الذين تصدوا للشعوبيين [7] .

ولم يقتصر الاهتمام بالترجمة على الخلفاء وحدهم بل تبعهم في ذلك كبار

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٨ . ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢١١ .
(٢) خودا بخش : الحضارة الاسلامية ص ١٥٣ .
(٣) المصدر السابق ص ١٥١ ـ ١٥٦ .
(٤) المصدر السابق ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .
(٥) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٩ .
(٦) القفطي : اخبار الحكماء ص ٢٤٩ ، ٢٥٣ . ابن أبي أصيبعه : عيون الانباء جـ ١ ص ١٢٧ .
(٧) حسن محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٢٧٢ .

رجال الدولة من ذوي اليسار من امثال البرامكة ، وأبناء موسى بن شاكر [1] فأسهموا في تشجيع العلماء والمترجمين وانفقوا بسخاء على حركة الترجمة واستحضروا الكتب والمخطوطات لترجمتها من كل مكان عثروا به على التراث الاغريقي .

وكانت اللغة العربية أداة طيعة في يد المترجمين فاستوعبت ما استجد من الفاظ ومصطلحات نتيجة للترجمة واستطاعت احتواء العلم الاغريقي في كافة ميادين المعرفة واكتسبت قوة للتعبير وفاقت كثيراً أي لغة اخرى في ذلك .

وقد استقى المسلمون تراث الاغريق من المراكز الثقافية في الشرق القديم ويأتي في مقدمتها مدرسة الاسكندرية التي كانت قائمة حتى بعد فتح العرب لمصر . ويؤكد أحد الباحثين المحدثين [2] أن بقايا مدرسة الاسكندرية كمركز للتراث الاغريقي ظلت ماثلة حتى العصر العباسي . وأورد ما قاله الاستاذ احمد امين الذي يؤكد ذلك قائلاً : « وهي وان ضعفت تعاليمها ودراستها فقد كان لها أثر باق في هذا العهد » [3] .

ومهما يكن من أمر فقد ترسمت مدرسة جند يسابور خطوات مدرسة الاسكندرية في خططها ومناهجها . وكانت تدرس فيها العلوم الاغريقية والفارسية والسريانية [4] والهندية في كافة المعارف القديمة جنباً الى جنب . واكد خودا بخش ذلك المعنى قائلاً : « أكاديمية في (جنديسابور) في خوزستان ورغم سقوط الدولة الفارسية فقد استمرت الاكاديمية في نشاطها طوال ثلاثة قرون انقضت على نهاية الساسانيين ، وكان يدرس في هذه الاكاديمية الفلسفة الاغريقية والطب » [5] . وقد اتجهت انظار العباسيين لجند يسابور منذ عهد المنصور ومنذ ذلك الحين اصبح لعلماء هذه الاكاديمية حظوة لدى الخلفاء العباسيين [6] فكان لافراد اسرة بختيشوع الذين كانوا على جانب كبير من المهارة في الطب اسهامات كبيرة في نقل التراث الاغريقي

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٤٦ .
(٢) الشحات السيد زغلول : السريان والحضارة الاسلامية ص ٤٩ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) احمد امين : ضحى الاسلام ص ٢٥٦ .
(٥) خودا بخش : الحضارة الاسلامية ص ١٥٧ .
(٦) المصدر السابق ص ١٥٩ .

الى العربية ، وهكذا كانت جنديسابور احد الروافد التي استقى منها المسلمون علوم ليونان .

كما غدت حران مركزاً آخر من مراكز الثقافة اليونانية . وقد تكلم أهل حران وهم الصابئة اللغة العربية في سهولة وساعدوا الى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين ، واليهم يرجع الفضل في ترجمة كثير من الكتب [1] .

ولا يمكن اغفال دور السريان في حركة الترجمة فقد كان السريان هم حلقة الاتصال بين الفلسفة والعلوم الاغريقية من ناحية والمسلمون من ناحية أخرى ، وعبرت الثقافة اليونانية عقولهم قبل ان تصل الى عقول المسلمين ، كما ترجم الى العربية من الترجمات السريانية في بعض الأحيان .

كما استقى المسلمون بعضاً من علوم اليونان عن طريق اللغة الفارسية فقد اكد ابن النديم في الفهرست ان الفرس كانت قد نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل المسلمون ذلك الى اللغة العربية وقام بترجمته عبد الله بن [2] المقفع وغيره ممن حذقوا الفارسية والعربية .

وقطعت حركة الترجمة شوطاً في خلافة الرشيد بعد ان وقع في حوزته بعض المدن الرومية الكبرى ، فأمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان [3] . كما نشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وادرار الارزاق عليهم .

وتزداد حركة الترجمة نشاطاً في عهد حكيم بني العباس المأمون بن الرشيد يقول ابن خلكان : « كان المأمون مغرماً بتعريب الكتب وتحريرها واصلاحها » [4] فارسل الى القسطنطينية لاحضار الكتب والمخطوطات في الطب والهندسة والفلسفة . وقد ذكر ابن النديم « أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع ، فاخرج المأمون لذلك جماعة

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٤٥ .
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٧ .
(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٤٦ . احمد شلبي : موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٣ ص ٢٣٠ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ٢٠٩ . المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٣١٨ .

منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم . فأخذوا مما وجودا ما اختاروا ، فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل »[1] كما كانت تعقد المناظرات في قصر المأمون وبين يديه ويدلي فيها ببعض الاراء .

هكذا كان اكبر قدر من التراث اليوناني استحوذ عليه المسلمون أواخر عهد الرشيد والمأمون في بيت الحكمة الذي أنشأه هارون الرشيد ، وقام المأمون بتوسيعه وتدعيمه [2] ويرى المستشرق ستانوود كب[3] أن بيت الحكمة هذا هو اول جامعة بالمعنى الحديث في العالم [4] اذ كانت هذه المؤسسة تجمع بين مهام مكتبة وأكاديمية ومكتب للترجمة ومكتب لنسخ الكتب ومراصد فلكية ، وكان المأمون عالماً متضلعاً واسع الثقافة كثير الاطلاع ولم يكن لنهمه العقلي والعلمي حد . وقد أولى الترجمة عناية شديدة واهتماماً بالغاً حتى أنه جعل من شروط الصلح بينه وبين الامبراطور البيزنطي أن يرسل اليه مجموعة من الكتب النادرة .

وهناك رواية تقول أن المأمون ارسل الى الامبراطور ثيوفيل يطلب منه ارسال عالم الرياضيات البيزنطي «ليو» «وقال انه يعتبر ذلك عملاً ودياً ، ويعرض في مقابل ذلك كما تقول الرواية صلحاً دائماً وألفي قطعة ذهبية » ولكن الامبراطور البيزنطي آثر الا يفرط في هذا العالم [5] . واكد الدكتور حسن ابراهيم هذه الرواية وذكر ان الامبراطور رفض رسالة شخصية من المأمون يطلب فيها السماح لهذا العالم بالحضور الى بغداد فترة قصيرة » [6] وعين الامبراطور العالم ليو ليعلم في احدى كنائس القسطنطينية ورتب له راتباً منتظماً [7] . وأورد ابن النديم [8] رواية خلاصتها ان المأمون رأى في منامه رجلاً ابيض اللون مشرباً بحمرة ، واسع الجبهة مقرون الحاجب اشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره . قال المأمون : «وكأني بين يديه

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٩ .

(٢) خودا بخش : الحضارة الاسلامية ص ١٦٣ .

(٣) استانوودكب : ولد بالولايات المتحدة عام ١٨٨١ وكان استاذاً للاديان وفلسفتها في جامعة هارفارد .

(٤) استانوودكب : المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٤٢ - ٤٣ .

(٥) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية جـ ١ ص ١٧ .

(٦) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٤٠٢ .

(٧) فازليف : العرب والروم ص ٢٢ . فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية ص ١٧ .

(٨) ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٩ .

قد ملئت له هيبة » وسأله المأمون من يكون ، فأخبره انه ارسطاليس ودار بينهما حوار سجله ابن النديم ثم استطرد مؤكداً ان هذا المنام كان السبب في استحضار الكتب وحركة الترجمة لتلك الكتب الى اللغة العربية .

ونرجح ان هذا المنام يعبر عن عقلية المأمون العلمية وشغفه بعلوم الاغريق وحبه للعلماء . أما عن الأسباب التي أدت الى حركة الترجمة فلا يمكن ان يكون هذا المنام سبباً وراءها . فقد بدأت حركة الترجمة منذ عهد المنصور . وقد بلغ شغف المأمون بالتراث العلمي السابق حداً بعيداً ، ويقول القلقشندي عنه في مآثر الأنافة : « بث علوم الفلاسفة بين المسلمين » .

وفي عام ٢١٨ هـ توفى المأمون وخلفه اخوه محمد المعتصم . والواقع أن وفاة المأمون سيكون لها تأثيرها على توقف هذه النهضة الثقافية وحركة الترجمة الى العربية ، فالمعتصم لم يكن له حظ من التعليم فكان للأمية أقرب ، انما كان قائداً حربياً اكثر منه عالماً . خاض مع البيزنطيين معارك عنيفة أحرز فيها النصر للمسلمين كما قضى على بابك الخرمي ، وكان المعتصم عسكرياً بطبعه وميله وهواه ، ولم تكن له اهتمامات ثقافية مما سيكون له اثره بطبيعة الحال على النهضة الثقافية وعلى حركة الترجمة ، والمعتصم وإن كان قد تمسك بمذهب الاعتزال وترسم خطى أخيه المأمون في ذلك فهو لم يتمسك بذلك المذهب اعتقاداً او ايماناً بمبادئه أو حتى فهماً لعقائد هذا المذهب ، كل ما في الامر انه نفذ [١] وصية أخيه المأمون في ذلك .

ويصف القلقشندي [٢] المعتصم قائلاً : « كان أمياً لا يحسن الكتابة ، ضعيف البصر بالعربية » . ووصف المعتصم نفسه ووزيره محمد بن عمار قائلاً : « انا لله خليفة أمي ووزير عامي » [٣] فكان أمراً طبيعياً أن تفتر حركة الترجمة والحركة العلمية بصفة عامة ويخبو هذا الضوء العلمي في خلافة المعتصم . يتناول خودا بخش مظاهر الحركة العلمية في خلافة المأمون ثم يقول : « لكن وفاة المأمون أدت الى وضع نهاية لهذه الجهود » [٤] . ولا غرابة في ذلك فلم يكن للمعتصم تحصيل في العلم او رغبة في

---

(١) الخضري : تاريخ الامم الاسلامية جـ ٢ ص ٢١٦ .
(٢) القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة جـ ١ ص ٢١٨ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٢١٩ .
كرد علي : الحضارة الاسلامية في عز العرب ص ١٦٩ .
(٤) خودا بخش : الحضارة الاسلامية ص ١٦٤ .

المشاركة فيه فضلاً عن انشغاله بالأتراك وبناء سامراء .

وخلاصة القول أنه في خلافة المعتصم فترت الحركة العلمية ووضعت وفاة المأمون وتولية المعتصم حداً للنهضة الفكرية التي قامت على نقل تراث البشرية الى اللغة العربية وكان من الممكن ان يستمر هذا الفتور ، وتنتهي حركة الترجمة الى غير رجعة ويقف شوط المسلمين العلمي ودورهم الثقافي وجهدهم في الحضارة البشرية عند هذا الحد لو لم تجد الحركة العلمية من يبعثها حية نشطة من جديد . ويتوقف الامر على شخصية من يتولى الخلافة بعد المعتصم وعلى اي نمط يكون . هل يكون على شاكلة المعتصم بعيداً عن الاهتمامات العلمية ؟ ام يكون على شاكلة المأمون شغوفاً بالعلوم مولعاً بالكتب والعلماء ؟

الحركة العلمية في عهد الواثق :

توفى المعتصم في الثامن عشر من ربيع الاول عام سبع وعشرين ومائتين [1] وتولى ابنه الواثق الخلافة . فما هو موقف الواثق من الحركة العلمية ؟ وما هي شخصية الواثق وميوله ؟ وعلى أي نهج يسير بالدولة الاسلامية .

ولحسن الحظ كان الواثق بالله عالماً متضلعاً واسع الثقافة محباً للعلم كثير الاطلاع مما سوف يكون له اعمق الأثر على الحركة الفكرية وحركة الترجمة وسوف تنهض الحركة العلمية في عهده نهضة كبرى وتستمر بعد وفاته ، ويتمكن المسلمون من الحفاظ على التراث اليوناني والعالمي القديم ، بل سوف يضيفون إليه الجديد من ابداعهم في شتى فروع المعرفة ليكون ذلك أساساً للنهضة الاوروبية الحديثة بعد ذلك حين ينقل هذا التراث الى اللغة اللاتينية . ولولا جهود المسلمين العلمية والتي قطع الواثق منها شوطاً كبيراً لما كانت النهضة الاوروبية الحديثة ، ففي ظل السلام الذي حققه الواثق جد المسلمون في طلب المخطوطات اليونانية واحضارها من آسيا الصغرى والاراضي البيزنطية [2] .

يصف ابن [3] العمراني شخصية الواثق فيقول : « كان الواثق شاعراً أديباً

---

(١) تاريخ الطبري احداث عام ٢٢٧ هـ . ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

(٢) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية جـ ١ ص ١٧ .

(٣) ابن العمراني : الانباء في تاريخ الخلفاء ص ١١١ .

كريماً حافظاً لاشعار العرب ، عارفاً بالغناء يدعى المأمون الاصغر . وكان المأمون يجلسه وأبوه المعتصم واقف . وهو رباه وكان يقول للمعتصم : يا أبا اسحاق لا تؤدب هارون فاني ارضى أدبه وكان قد تبنى به حتى كان يعلمه الأدب والخط بنفسه ويقرئه القرآن بنفسه وكانت احواله كلها وتصاريفه شبيهة باحوال المأمون . وكان الواثق لبلاغته يصعد المنبر ويرتجل الخطب على البديهة من غير ان يروّي فيها »[1] .

ويتحدث ابن طباطبا عن الواثق قائلاً : « كان الواثق من أفاضل خلفائهم وكان فاضلاً لبيباً فطناً فصيحاً شاعراً ، وكان يتشبه بالمأمون في حركاته وسكناته »[2] .

فالواثق بالله وان كان ابن المعتصم نسباً ودماً الا انه كان الابن الروحي للمأمون . قام المأمون بتربيته والاشراف على تعليمه ، فجاء صورة مطابقة لشخصية المأمون ، وتشبه الواثق بعمه المأمون في كل شيء حتى قيل عنه المأمون الاصغر . سار الواثق على نهج المأمون في كثير من اموره فنجده قد جرى على مذهبه في القول بخلق القرآن كما كان يبالغ في اكرام العلويين مثلما كان يفعل المأمون[3] ، ما مات وفيهم فقير[4] .

وسار الواثق على درب المأمون في ميدان الثقافة والفكر . فنهضت الحركة العلمية في عهده ، ونشطت حركة الترجمة وانتعشت ، ونقل المسلمون تراث الامم القديمة خاصة تراث الاغريق[5] العلمي في شتى فروع المعرفة الى اللغة العربية ودب النشاط في بيت الحكمة من جديد بعد الفتور . واكد الدكتور عمر كمال توفيق الاتصالات الثقافية بين المسلمين والبيزنطيين في تلك المرحلة[6] .

جمع الواثق حوله العلماء وشجعهم وكانت له مجالس علم يجلس فيها مع العلماء ويبدو انها كانت تعقد بطريقة منتظمة ويحضرها من يرغب من العلماء وكل

---

(١) المصدر السابق : ص ١١١ .

(٢) ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ص ٢٣٦ .

(٣) أبو الفدا : المختصر في اخبار البشر جـ ٢ ص ٣٦ .

القلقشندي : مآثر الانافة في معالم الخلافة جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٤) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٩ .

(٥) خودا بخش : الحضارة الاسلامية ص ١٦٥ .

(٦) عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٢٠ .

من له اهتمامات علمية أو ثقافية [١] .

وفي ذلك يقول المسعودي : « وللواثق اخبار حسان . . وما كان يجري من المباحثة في مجلسه الذي عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم من العقليات والسمعيات في جميع الفروع والأصول »[٢] .

وكانت تقام المناظرات العلمية في مجالس الواثق ويسأل بعض الحاضرين في المسائل العلمية ويجيب العلماء على تلك الاسئلة وهو يسمع . وكثيراً ما كان يسأل هو فيطرح السؤال تلو السؤال والعالم يجيب أي ان الواثق كان يشترك في المناظرات والمناقشات [٣] .

كان الواثق يغدق على العلماء ويصلهم بالعطاء اغداقاً لا حد له حتى انه منح بعض العلماء مرة ما ملأ ثلاثة اكياس من الدراهم [٤] . شجع الواثق العلماء وقربهم اليه وكانت لهم لديه مكانة خاصة لا تدانيها مكانة .

روى القفطي ان يوحنا بن ماسويه خرج مع الواثق الى دجلة في رحلة صيد وكان مع الواثق قصبة فيها شص ، وقد القاها في دجلة ليصيد بها السمك ، فحرم الصيد ، فنظر الى يوحنا وهو على يمينه وقال له قم يا مشؤوم عن يميني ، فقال يوحنا يا امير المؤمنين لا تتكلم بمحال ، يوحنا بن ماسويه الخوزي وامه رسالة الصقلبية صار نديم الخلفاء وسميرهم وعشيرهم ، فنال من الدنيا اكثر مما تمنى ، فمن المحال ان اكون مشؤوماً ولكن ان أحب امير المؤمنين ان اخبره بالمشؤوم من هو أخبرته ، فقال الواثق من هو ، فقال يوحنا أن المشؤوم من ولده أربع خلفاء ثم ساق الله إليه الخلافة ، فترك خلافته وقصورها وقعد على دجلة لا يأمن عصف الريح عليه فتغرقه ثم تشبه بأفقر قوم في الدنيا وشرهم وهم صيادو السمك[٥] . من هذا الحوار تتضح مدى العلاقة بين يوحنا بن ماسويه وبين الواثق ، وإلى أي حد قربه الواثق منه وإلى أي حد يشعر يوحنا بن ماسويه بمكانته لدى الخليفة حتى انه تجرأ عليه في الحديث .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٨٤ .

(٣) المصدر السابق جـ ٤ ص ٧٧ - ٧٩ .

(٤) خودا بخش : الحضارة الاسلامية ص ١٦٥ .

(٥) القفطي : اخبار الحكماء ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

ولعل العبارة التي اوردها خودا بخش [1] توضح هذا المعنى وتؤكده ، حين يقول : « أصبح يوحنا بن ماسويه ، يد الواثق اليمنى » . نبغ في عهد الواثق من الأطباء ابن بختيشوع ، وابن ماسويه ، وميخائيل وحنين بن اسحاق وقد حذق هؤلاء وغيرهم في الطب ووصلوا فيه الى درجة عالية من المهارة ، واعتمدوا في علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب ، كما استفادوا من كتب اليونان ونظرياتهم في تشخيص الامراض ، ونبغ حنين بن اسحاق في علم المواد السامة [2] .

استمر ابن ماسويه يعمل زمن الواثق [3] ، وكان يعقد مجلساً للنظر تناقش فيه مختلف العلوم القديمة وكان يجتمع اليه اهل العلم والأدب وكان فيهم تلاميذ كثيرون [4] ، فكأنما كان يدرس ويربي جيلاً يعطيه علمه وكان منزل يوحنا بن ماسويه القادم من جنديسابور ـ والذي يعمل منذ عهد الرشيد والمأمون ـ مقصد طلاب العلم آنذاك . كما كتب ابن ماسويه من الكتب عدداً كبيراً بلغ ثمانية وعشرون كتاباً [5] أورد القفطي أسماءها .

وقام يوحنا بن ماسويه بترجمة [6] عدد كبير من كتب التراث اليوناني الى اللغة العربية وكان له كتاب حذاق يكتبون بين يديه ، ويستمر يوحنا بن ماسويه الذي كان يعمل في بيت الحكمة ويقوم بالترجمة حتى يتوفى في خلافة المتوكل .

واستفادت الحضارة الاسلامية بل والحضارة الانسانية بصفة عامة بعد ذلك من رعاية الواثق للعلماء واهتمامه بالحركة الفكرية بما فيها من نقل التراث اليوناني العلمي الى اللغة العربية . لقد اهتم الواثق بالترجمة الى العربية اهتماماً بالغاً ويؤكد خودا بخش هذه الحقيقة قائلاً : « كان الواثق حاكماً عادلاً اهتم بترجمة الكتب الاجنبية » [7] . وأصبح اقتناء المخطوطات التي لم تترجم حتى ذلك الحين هواية العصر ، وانفقت مبالغ طائلة في بلاد الاغريق وآسيا الصغرى وفي كل مكان وطئته

(١) خودا بخش : الحضارة الاسلامية ص ١٦٥ .
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٥٤ .
(٣) القفطي . اخبار الحكماء ص ٢٤٩ .
(٤) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٤٩ .
(٥) القفطي : اخبار الحكماء ص ٢٤٩ .
(٦) المصدر السابق .
(٧) خودا بخش : الحضارة الاسلامية ص ١٦٥ .

أقدام الاغريق يوماً ما ، عن طريق بعثات العلماء الذين جمعوا ما وجدوه باقياً من الاثار العلمية [1] .

ومن اعلام الحركة العلمية زمن الواثق حنين بن اسحاق الذي كان دائم الحضور في مجالس الواثق العلمية [2] وهو حنين بن اسحاق العبادي ويكنى ابا زيد ولد بالحيرة سنة ١٩٤ هـ[3] / ٨٠٩ م ، وهو طبيب من قبيلة عباد النصرانية العربية اشتهر بنقل الكتب اليونانية الى السريانية والعربية[4] . تحدث عنه ابن النديم وذكر انه دار البلاد وجاب الآفاق ليجمع الكتب القديمة خاصة في الدولة البيزنطية[5] . درس الطب في بلاد الروم وزار كلاً من الاسكندرية وفارس حيث درس شيئاً من الطب والفلسفة . ثم عاد الى البصرة وتبحر في درس اللغة العربية . ونبغ حنين في ميدان الترجمة حتى فاق استاذه السابق ابن ماسويه نفسه . وتصف المستشرقة الالمانية هونكه ترجمته قائلة : « فهو في ترجمته لا يستبدل كلمة بأخرى بل هو يصيب المعاني بوضوح وفن ودقة في قالب عربي » .

وتمتع حنين بمعرفة واسعة في شتى فروع المعرفة فكان سيد المادة التي يترجمها . نقل الى العربية كثيراً من كتب القدماء ، ولم تقتصر جهوده على الترجمة انما كانت له مؤلفات كثيرة لا يتسع المجال لذكرها أورد ابن النديم اسماء مؤلفاته التي بلغت تسعة وعشرين كتاباً . منها كتاب يسجل فيه جهوده في ميدان الترجمة وهو كتاب « ذكر ما ترجم من الكتب » [6] . واستمر يعمل بعد وفاة الواثق حتى توفي عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م [7] .

كان حنين استاذاً ربى جيلاً من التلاميذ حملوا لواء العلم والترجمة من بعده ، وساهموا في الحركة العلمية الناهضة ، وممن تتلمذ على حنين واخذ العلم عنه عيسى

---

(١) زيغريد هونكه : شمس العرب ص ٣٧٦ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٠ .
(٣) عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ١١٧ .
(٤) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ١٨٦ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٤٠٩ .
(٦) ابن النديم : الفهرست ص ٤١٠ .
(٧) عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ١١٧ .

بن علي ، كان فاضلاً وله من الكتب : « كتاب المنافع التي تستفاد من اعضاء الحيوان »[1] .

ومن تلاميذ حنين أيضاً حبيش بن الحسن الأعسم وكان من احسن تلاميذ حنين ، فكان حنين يعظمه وقام بجهد كبير في حركة الترجمة وكان حنين يمدح ترجمته ويرضى نقله[2] وله أيضاً مؤلفات علاوة على الترجمة وكان نصرانياً واكثر نقله من السريانية الى العربية وهو ابن اخت حنين بن اسحاق ، وكان بارعاً في الترجمة وقد نقل كل كتب جالينوس[3] .

ومن تلاميذ حنين أيضاً عيسى بن يحيى بن إبراهيم وهو ممن أسهم في حركة الترجمة ، يصفه ابن النديم قائلاً : « من تلاميذ حنين والناقلين المجودين » .

ومن اعلام النهضة العلمية زمن الواثق ايضاً بختيشوع ويكنى أبا جبريل ، وهو ابن جبريل ، عمل زمن الواثق ومن بعده زمن المتوكل ويصفه ابن النديم قائلاً : « كسب بالطب ما لم يكسبه غيره وكانت الخلفاء تثق به على امهات اولادها واخباره مشهورة » . وقد ألف بختيشوع لأبنه جبريل كتاب التذكرة »[4] .

وممن أسهم في هذه النهضة الفكرية الكبرى أبناء موسى بن شاكر وهم ، محمد الذي توفي عام ٢٥٩ هـ ،وأحمد والحسن ،وهؤلاء ممن تناهوا في طلب العلوم القديمة ، وبذلوا فيها الرغائب وأجهدوا أنفسهم في ذلك . واشتهر بنو موسى هؤلاء بالبراعة في الرياضيات والهندسة والحيل (ميكانيك) وعلم النجوم والموسيقى[5] . كانوا رعاة للعلم انفقوا جانباً كبيراً من ثروتهم العظيمة في جلب كتب التراث اليوناني من بلاد الروم[6] . ولم يقف دورهم عند هذا الحد ، وانما استخدموا نفراً من الناقلين منهم حنين بن اسحاق ، وثابت بن قرة ، وحبيش بن الحسن وذلك ليقوموا بعملية الترجمة الى اللغة العربية وكان بنو شاكر يرزقونهم في الشهر نحو

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤١٤ .
(٢) المصدر السابق : القفطي : اخبار الحكماء ص ١٧١ وما بعدها .
(٣) زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب ص ١٨٦ .
(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٤١٣ .
(٥) زيغريد هونكه : شمس العرب ص ١٧٧ . عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٢٧ .
(٦) ابن النديم : الفهرست ص ٣٧٨ .

خمسمائة دينار للنقل والملازمة اي أن بنو شاكر كانوا يدفعون مرتبات ثابتة لمن يقوم معهم بعملية الترجمة مبلغاً قدره خمسمائة دينار في كل شهر [1] .

لقد قدم أبناء موسى بن شاكر خدمة عظيمة للعلوم خاصة هندسة الاشكال المخروطية والطب والفلك وعلم الحيل (الميكانيكا) ولهم فيه كتاب بعنوان « حيل بني موسى » وهذا المؤلف يحتوي على مائة تركيب ميكانيكي [2] .

ويقول الدكتور ديفيد يوجين سميث في كتابه تاريخ الرياضيات (المجلد الاول) ان اولاد موسى بن شاكر اكتشفوا طريقة منتظمة لرسم الشكل الاهليجي » [3] . واخذ في وصف الطريقة وهي تفاصيل دقيقة في الرياضيات لا يفهمها غير المتخصصين .

وممن أسهم في الحركة العلمية زمن الواثق أيضاً محمد بن موسى الخوارزمي الذي برز علمياً في زمن المأمون حيث كان رئيساً لبيت الحكمة [4] واستمر يعمل زمن الواثق فقد توفي الخوارزمي عام ٢٣٥ هـ / ٨٥٠ م أي في خلافة المتوكل على الله وبعد وفاة الواثق باربع سنوات . لمع الخوارزمي في علم الرياضيات ، وابتكر نظاماً لتحليل كل معادلات الدرجة الاولى والثانية ذات المجهول الواحد بطرق جبرية وهندسية [5] . وقد ذكر احد الباحثين [6] المتخصصين في الرياضيات ان جورج سارتون يعتبر الخوارزمي من اعظم الرياضيين في تاريخ البشرية ، وأورد نصوص سارتون وغيره في ذلك . ولقد كان الخوارزمي احد المسلمين الذين جمعوا الرياضيات القديمة من كل مكان وله اضافات فيها من ابتكاره [7] ، وقد ذكر ابن النديم اسماء الكتب التي ألفها الخوارزمي . كما كان الخوارزمي ممن جمع وترجم تراث اليونان في الرياضيات ليشكل جانباً من الحضارة الاسلامية التي تترجم بعد ذلك الى اللغة اللاتينية لتستفيد منها اوروبا في عصر النهضة وعلى ذلك يمكننا القول

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٤٠ حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٣٤٧ .
(٢) عبد الله الدفاع : نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٣٨٣ .
(٥) علي عبد الله الدفاع : نوابغ العلماء العرب والمسلمين في الرياضيات ص ٦٢ .
(٦) المصدر السابق ص ٦٢ ـ ٦٣ .
(٧) المصدر السابق ص ٦١ ـ ٨٦ .

ان البشرية تدين للخوارزمي وجهوده العلمية زمن الواثق بمعرفتها الحالية لعلمي الجبر والحساب . في بداية الأمر ابتكر الخوارزمي علم حساب « اللوغاريتمات » ، وعمل لها جداول تعرف باسمه الذي حوله الغربيون الى « اللوغاريتمات » وقد حدثت تغييرات عديدة في اسمه عند الغربيين بعد وفاته حيث ترجم اسمه « الخوارزمي » الى اللاتينية (Alchamarizmi) أو (Al- Karismi) ثم (Algoritmi) . وفي عام ١٨٥٧ م / ١٢٧٤ هـ عثر على كتاب بعنوان (Algoritmi de numero Indorum) في مكتبة جامعة كمبردج البريطانية ، فاجمع علماء الرياضيات في العالم بأن هذا الكتاب هو كتاب الخوارزمي في علم الحساب ، وقد ترجم الى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر الميلادي [1] . وقد علق المؤلف محمد خان في كتابه « نظرة مختصرة لمآثر المسلمين في العلوم والثقافة » قائلاً : « أن الخوارزمي يقف في الصف الاول من صفوف الرياضيين في جميع العصور وكانت مؤلفاته هي المصدر الرئيسي للمعرفة الرياضية لقرون عديدة في الشرق والغرب » .

ومن اعلام الحركة الفكرية والنهضة العلمية زمن الواثق أبو يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي ولد بالكوفة ودرس في البصرة على اشهر علمائها حتى برز في علم الفلسفة وهو من آل كنده [2] الاسرة القحطانية العريقة .

ويطلق عليه فيلسوف العرب ، وقد ترجم الكندي فلسفة ارسطو طاليس ، وكان موسوعة في الفلسفة والفلك والنجوم والطب والطبيعيات والرياضيات والمنطق والموسيقى ، وهو ممن عمل زمن المأمون وتوفي عام ٢٦٠ هـ [3] . يصفه ابن النديم قائلاً : « فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها » . وأورد ابن النديم علة قوائم طويلة بكتبه [4] . لقد وضع الكندي ٢٢ كتاباً في الفلسفة ، ١٩ كتاباً في النجوم ، ١٦ كتاباً في الفلك ، ١٧ كتاباً في الجدل ، ١١ كتاباً في الحساب ، ٢٣ كتاباً في الهندسة ، ٢٢ كتاباً في الطب ، ١٢ كتاباً في الطبيعيات ، ٨ كتب في الكريات ، ٧ كتب في الموسيقى ، ٩ كتب في المنطق ، ١٠ كتب في الأحكاميات ،

---

(١) علي عبد الله الدفاع : نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ص ٦٣ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٣٥٧ .

(٣) الزركلي : الاعلام جـ ٩ ص ٢٥٥ .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٣٥٧ - ٣٦٥ ، زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

١٤ كتاباً في الأحداثيات ، ٨ كتب في الأبعاديات ، وكذلك له رسائل في المد والجزر وفي علم المعادن وأنواع الجواهر ، وفي معرفة قوى الادوية المركبة ، وفي علة اللون اللازوردي الذي يرى في الجو،وفي بعض الالات الفلكية وانواع السيوف وجيدها وغير[1] ذلك مما لا يتسع المجال لذكره .

وكان للكندي تلاميذ درسوا عليه ذكر ابن النديم اسماءهم ومنهم احمد بن الطيب الذي كان الخليفة المعتضد يفضي اليه باسراره ويستشيره[2] .

ترجم الكندي الكثير من الكتب ، كما اوضح المشكل منها ، ولخص المستصعب وبسط العويص ، وقد ترجمت كتبه الى اللغة اللاتينية وكانت أساساً من الاسس التي قامت عليها النهضة الاوروبية في العصر الحديث[3] خاصة أن مؤلفاته تدل على مدى تعمقه في دراساته وتمكنه منها[4] . وقال ابو معشر في كتاب المذكرات لشاذان: «حذاق التراجم في الاسلام أربعة حنين بن اسحاق ، ويعقوب بن اسحاق الكندي ، وثابت بن قرة الحراني وعمر بن الفرخان[5] . ويبدو ان بعثات الكشف عن كنوز الكتب لم تترك مكاناً ازدهرت فيه الثقافة الهيلينية الا وذهبت اليه » .

تلك لمحة خاطفة مختصرة عن الجهود العلمية خلال خلافة الواثق بالله . والواقع أن حركة ترجمة العلوم القديمة الى اللغة العربية تعد من اعظم الاحداث الفكرية في تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك في قيمة هذه الحركة الجبارة والتي كان لها اكبر واعمق الاثر في مسار الحضارة الانسانية ، ولا يمكن ان نغفل دور الواثق في تشجيع تلك الحركة العلمية والفكرية بعد ان عرفنا حبه للعلم والعلماء .

أورد صاحب الفخري[6] قصة للواثق مع ابن الزيات وهي توضح عقلية الواثق العلمية وحبه وتقديره للعلماء : « كان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال ، واحاله على ابن الزيات ، فمنعه واشار على المعتصم أن لا يعطيه شيئاً ، فقبل

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٦٤ـ ٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الزركلي : الاعلام جـ ٩ ص ٢٥٦ .

(٤) القفطي : اخبار الحكماء ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٥) الخضري : تاريخ الامم الاسلامية جـ ٢ ص ٢٢٢ .

(٦) ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

المعتصم قوله ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك ، فكتب الواثق بخطه كتاباً وحلف فيه بالحج والعتق والصدقة انه ان ولي الخلافة ليقتلن ابن الزيات شر قتلة ، فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة ، ذكر حديث ابن الزيات وأراد ان يعاجله فخاف أن لا يجد مثله . فقال للحاجب : أدخل الي عشرة من الكتاب . فلما دخلوا عليه اختبرهم فما كان فيهم من أرضاه . فقال للحاجب : ادخل من الملك محتاج اليه محمد بن الزيات . فأدخله فوقف بين يديه خائفاً ، فقال للخادم : احضر الي المكتوب . فاحضر له الكتاب الذي كان كتبه وحلف فيه ليقتلن ابن الزيات ، فدفعه الى ابن الزيات وقال : اقرأه . فلما قرأه قال : يا امير المؤمنين ، أنا عبد ، ان عاقبته فأنت حاكم فيه ، وان كفرت عن يمينك واستبقيته كان أشبه بك . فقال الواثق : والله ما أبقيتك الا خوفاً من خلو الدولة من مثلك ، وساكفر عن يميني ، فاني أجد عن المال عوضاً ولا أجد عن مثلك عوضا . ثم كفر عن يمينه واستوزره وقدمه وفوض الامور اليه » .

أجمعت المصادر على ان ابن الزيات كان من ابلغ الوزراء واكثرهم علماً ، تمسك الواثق بابن الزيات وعفى عنه واستوزره لعلمه وثقافته رغم ما كان يكنه له من كراهية . فالواثق يريد ان يكون على رأس دولته وزير عالم يكون عوناً له في النهضة العلمية .

تحدث الصولي عن الواثق فقال : « كان الواثق يسمى المأمون الاصغر لأدبه وفضله ، وكان المأمون يعظمه ويقدمه على ولده . وكان الواثق اعلم الناس بكل شيء ، وكان شاعراً ، وكان اعلم الخلفاء بالغناء وله أصوات والحان عملها نحو مائة صوت ، وكان حاذقاً بضرب العود ، راوية للاشعار والاخبار[1] .

دخل هارون بن زياد ـ مؤدب الواثق ـ على الواثق فاكرمه وأظهر من بره ما لم يفعله مع احد غيره ، فتعجب الحاضرون وسألوا من هذا الذي بالغ الواثق في اكرامه ؟ فرد الواثق قائلاً : هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله عز وجل »[2] . هكذا اهتم الواثق بكل صور العلم والعلماء ، كما كان كريماً عارفاً بالاداب والانساب ، طروباً يميل الى السماع ، عالماً بالموسيقى . قال ابو الفرج

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .
(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١٤ ص ١٧ .

« صنع الواثق مائة صوت ما فيها صوت ساقط »[1] .

ولكل عصر مميزاته واتجاهاته الفكرية ومن ابرز خصائص عصر الواثق بالله الابتكار والتجديد والانطلاق الفكري بعيداً عن التقليد ، وكان لتعاليم المعتزلة اثر كبير في ذلك . فمذهب المعتزلة الذي كان سائداً آنذاك يعتمد على العقل وحرية الفكر . كما أن مذهب ابي حنيفة الفقهي الذي كان سائداً في العراق وحمل لوائه تلميذه ابو يوسف ، يعتمد أيضاً على العقل . مما كان له أثره على الحياة الثقافية . فلم تقتصر الحركة الفكرية في عهد الواثق على مجرد حركة الترجمة في ميادين المعرفة المختلفة من اليونانية الى العربية ثم ترديد ما ترجموه فقط ، بل سنجد انطلاقة واسعة من العلماء المسلمين يبتكرون ويضيفون جديداً في كل علم على حده[2] . فبعد مرحلة الترجمة واستيعاب علوم اليونان ستكون الخطوة التالية وهي الوصول الى مزيد من المعرفة لم يسبقهم اليه احد من البشر ، فان كانت الأمم القديمة قد وضعت اللبنات الاولى في بناء المعرفة الانسانية ، فسوف يقوم علماء المسلمين بتعلية البناء حتى يصير صرحاً شامخاً . وتتضح بذلك الشخصية الاسلامية العلمية .

رسم المسعودي اتجاهات الواثق الفكرية قائلاً : « كان الواثق محباً للنظر ، مكرماً لاهله ، مبغضاً للتقليد واهله ، محباً للاشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم من الشرعيين والمتطببين »[3] .

أراد الواثق ان تنهض العلوم على ايدي المسلمين وأن يكون لهم في ذلك دور ايجابي ، وادرك بفكره وثاقب بصره ان السبيل الى ذلك هو الاهتمام بمناهج البحث العلمي ، فمناهج البحث العلمي السليمة هي التي ستقود خطواتهم الى كل جديد في العلم . لذلك وجه العلماء الى الاهتمام بمناهج[4] البحث ، وركز عليها أيما تركيز ووضع اقدامهم على اول الطريق ، وذلك اثناء مجالسه العلمية[5] التي كان يعقدها

---

(١) الزركلي : الاعلام جـ ٩ ص ٤٥ .

(٢) الفهرست : ابن النديم . زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب . علي عبد الله الدفاع : نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات . عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب . محمد الصادق عفيفي : تطور الفكر العلمي عند المسلمين . أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية (اورد كل هؤلاء كثيرا عن الاضافات التي اضافها المسلمون في كل علم على حدة والتي لا يتسع مجال البحث لذكرها) .

(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٧ .

(٤) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٧ .

(٥) الخضري : تاريخ الامم الاسلامية جـ ٢ ص ٢٥٣ .

دائماً ويحضرها رجالات العلم . وفي ذلك يقول المسعودي [1] : « فحضرهم ذات يوم جماعة من الفلاسفة والمتطببين فجرى بحضرته انواع من علومهم في الطبيعيات وما بعد ذلك من الالهيات ، فقال لهم الواثق : قد أحببت ان أعلم كيفية ادراك معرفة الطب ومأخذ أصوله ذلك من الحس أم من القياس ؟ أم يدرك بأوائل العقل ، أم علم ذلك وطريقه يعلم عندكم من جهة السمع ؟

وأجاب بعض العلماء الحاضرين من امثال ابن بختيشوع وابن ماسويه وحنين بن اسحاق ، وسلمويه . أجابوا الواثق باراء مختلفة فاخذ يناقشهم في تلك الاراء [2] ، حتى أراد ان يعرف افضل تلك الاراء ، فقال لهم : « اخبروني عن جمهورهم الاعظم إلامَ يذهبون في ذلك ؟ » ولما اجابوه استمر في الحوار معهم متسائلاً : « وكيف ذلك ؟ واستمر الواثق في حواره مع العلماء ممعناً في تفاصيل دقيقة . وقد اورد المسعودي ذلك في عدة صفحات . وكانت كل تساؤلاته منصبة على طرق البحث ومناهجه .

كما كان الواثق يوجه العلماء الى موضوعات جديدة ويوقف نظرهم على اهميتها فتكون بذلك موضوعاً لدراستهم ويطلب منهم البحث فيها ويحثهم على التأليف . كما كان يكلف بعض العلماء بالذات بالكتابة في موضوع معين [3] . وكان الواثق يشجع الحركة العلمية بكثرة العطاء والجوائز التي يمنحها للعلماء [4] فكانت حركة التأليف .

وامتاز عهد الواثق بارسال بعثه علمية تستطلع خبر المدفونين في أفسوس بالاراضي البيزنطية وتتعرف هل هم حقيقة اصحاب الكهف الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم : ﴿ أم حسبت أن إصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ﴾ [5] . فقد ارسل الواثق العالم العربي المشهور محمد بن موسى بموافقة الامبراطور ميشيل الثالث الى افسوس لزيارة الكهف حيث رفات اهل الكهف الذين

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ٤ ص ٧٨ - ٧٩ .
(٣) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٠ - ٨١ .
(٤) المصدر السابق ص ٨٣ .
(٥) سورة الكهف آية : ٩ .

استشهدوا كما تقول الاثار في اضطهادات الامبراطور دسيوس . وأرسل الامبراطور البيزنطي دليلاً يرافق البعثة العربية . وتمكنت البعثة من دخول الكهف [1] ومعاينة اصحابه وعادوا وأخبروا الواثق بنتائج بعثتهم العلمية .

كما جهز الواثق حملة كبيرة واختار لرئاستها المترجم سلام الذي كان يجيد ثلاثين [2] لغة ، فذهب الى اسيا الصغرى وذلك لكشف السور الذي بناه الاسكندر كما تقول الاثار سداً بيننا وبين يأجوج ومأجوج . وقد استمرت الحملة في عملها الذي استغرق ٢٨ شهراً عادت البعثة بعدها وقدمت للواثق بياناً وافياً بما عاينت . فقدم لهم الجوائز [3] .

اعطى السلم للعلاقات العباسية البيزنطية في تلك المرحلة لوناً جديداً تميز بعقد الاتفاقات وتبادل السفارات والتجارة والاسرى . وكذلك انتقال المخطوطات واساليب الفنون . وقد اصبح من المسلم به حالياً ان المسلمين قد تأثروا بالحضارة البيزنطية وأثروا فيها [4] .

لقد كانت الحركة العلمية في خلافة الواثق سعياً منظماً بخطى سريعة ثابتة وراء المعرفة في شتى المجالات . وبعد وفاة الواثق تستمر الحركة العلمية في سيرها قدماً . وعلى نفس منهج الواثق الثقافي نهج من بعده من الخلفاء بل نهجت الحواضر الاسلامية .

ومن الجدير بالذكر انه بعد سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب ٤٧٦ م كادت العناصر الجرمانية الغازية ان تمحوا تماماً ثقافة الرومان [5] . اما في الامبراطورية الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية فقد اعلنت الكنيسة الحرب على « علوم الاغريق وفلسفتهم » الوثنية بعد ان اعتنقت المسيحية وانتهى امر ليكيوم اثينا(Lyceum) [6] الذي طالما كان مركز الفكر الاغريقي ، كما انتهى متحف

---

(١) فلزليف : العرب والروم ص ١٦ . فتحي عثمان : الحدود الاسلامية لبيزنطة جـ ٢ ص ٤٠٢ .
(٢) فلزليف : العرب والروم ص ١٦ .
(٣) فلزليف : العرب والروم ص ١٦ .
(٤) عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ص ١١ .
(٥) سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٧٠ ـ ١٠٩ .
(٦) ستانوودكب : المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٢٥ .

الاسكندرية الى الاغلاق ، كما طرد الباحثون من الاغريق الوثنيين ، أو النصارى النساطرة من القسطنطينية أو فروا من الاضطهاد[1] .

وفي خلال فترة تدهور « العلم الاغريقي » جاءت حركة المسلمين العلمية ليكونوا طلائع الحضارة . لقد حمل المسلمون عبء الفكر الانساني وحفظوه عدة قرون ، واطلعوا على العلوم والثقافات القديمة بعد ان ترجموها ، وانطلقوا بعد ذلك يطبقونها ويشرحونها ويكملون الناقص منها ويضيفون اليها جديداً نتيجة الممارسة والتجربة والملاحظة فتقدموا بالعلوم والثقافات المختلفة خطوات على طريق الحضارة ، بتأليفهم في شتى نواحي المعرفة[2] .

ويطلق احد المستشرقين[3] على هذه الحركة العلمية « معجزة العلم العربي » (Miracle of Arabic Science) فيقول : « ونحن نستعمل كلمة « معجزة » كرمز لعجزنا عن تفسير المنجزات التي تكاد ان تكون غير قابلة للتصديق ، فلا يوجد لها مثيل في تاريخ العالم كله سوى تمثل اليابانيين للعلم والتكنولوجيا الحديثين . ثم يسترسل قائلاً : لا يملك المرء الا ان يعجب لما كان عليه النشاط العلمي في تلك الفترة سواء في قوة اندفاعه(Momentum) أو في حجمه(Magnitude) وهو نشاط لا مقابل له في تاريخ العالم .

دور المسلمين الحقيقي في النهضة الاوروبية :

ينكر كثير من المؤرخين الغربيين والمستشرقين دور الحضارة الاسلامية والعلماء المسلمين في النهضة الاوروبية(Renaissance) ويزعمون ان الاساس الذي اعتمدت عليه النهضة الاوروبية هو فرار العلماء البيزنطيين من القسطنطينية عقب سقوطها على يد محمد الفاتح في ١٤٥٣ م/ ٨٥٧ هـ الى ايطاليا يحملون معهم الكنوز الفنية الفلسفية لبلاد الاغريق القديمة وان هذا التراث كان السبب المباشر ان لم يكن السبب الوحيد للنهضة الاوروبية ، أي ان النهضة الاوروبية جاءت نتيجة

---

(١) المصدر السابق .

(٢) على عبد الله الدفاع : نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات هونكه : شمس العرب ، محمد الصادق عفيفي : تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب (جميعهم أخذ من قوائم ابن النديم) .

(٣) ستانوودكب : المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٨٩ .

للمؤثرات البيزنطية .

هذا القول ما هو الا زعم باطل ووهم بعيد عن الحقيقة . لقد كان الخلاف الديني جذرياً وعميقاً بين الامبراطورية الرومانية الغربية [1] والشرقية . واستمر الصراع بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية وعلى رأسها الامبراطور البيزنطي [2] وحققت الكنيسة الغربية في النهاية السيادة على العالم المسيحي بانضمام القوط الغربيين (Visigoths) الى الصورة اللاتينية . وتكررت العروض على الكنيسة الشرقية من اجل وحدتها مع روما دون جدوى وانفجر العداء بين الطرفين بشكل عنيف خلال الحملة الصليبية الرابعة [3] .وظلت مشاعر العداء المتبادل بين الغربيين اللاتين من ناحية ، والبيزنطيين ذوي الحضارة اليونانية من ناحية اخرى .

في ظل تلك العلاقة العدائية لا يمكن ان يكون هناك تبادل فكري مثمر فعال . ويقر بذلك بعض المنصفين من المستشرقين فيقول ستانوودكب : « وصلت معرفة الاغريق القدماء القارة الاوروبية عن طريق يكاد يكون دائرياً . ولكنها وصلت في ظروف اكثر ما تكون ملاءمة الى حد ملحوظ . فعلى النقيض من جو العداء الذي ساد علاقات روما بالقسطنطينية كان هناك جو من الود يظلل مناطق معينة من اوروبا حيث عاش المسلمون والمسيحيون جنباً الى جنب قرناً بعد قرن . وفي مثل تلك الجهات جرى فعلاً نقل العلم الاغريقي الى أوروبا » [4] . وتقول زيغريد هونكه : « ان العرب لم ينقذوا الحضارة الاغريقية من الزوال ونظموها ورتبوها ثم اهدوها الى الغرب فحسب ، انهم مؤسسوا الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع بالاضافة الى عدد لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مختلف فروع العلوم والتي سرق اغلبها ونسب لآخرين ، قدم العرب اثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهدت امام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلطه عليها اليوم» [5] .

---

(١) سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطى جـ ١ ص ٥٧ وما بعدها .

(٢) المصدر السابق ص ٦٥ ـ ٦٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٥٥ ـ ٤٥٨ .

(٤) ستانوودكب : المسلمون في تاريخ الحضارة ص ١١٦ .

(٥) زيغريد هونكه : شمس العرب ص ٤٠١ .

وخلاصة القول ان العلوم والمعارف اليونانية والرومانية تدهورت في أوروبا خلال العصور الوسطى تدهوراً كبيراً . وفي فترة السلم ترجم المسلمون كثيراً من تراث الانسانية ونهضوا بالعلوم فازدهرت الحضارة الاسلامية نتيجة لجهد علماء المسلمين الذين نشطوا ترجمة وشرحاً وتعليقاً وتصنيفاً .

تفتحت عيون الاوروبيين الغارقين في جهل وظلام العصور الوسطى على الحضارة الاسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب ايطاليا وغيرها من مراكز الالتقاء ، فبدأوا في نقل تلك الحضارة الى اللغة اللاتينية ، استهل قسطنطين الاغريقي حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وكان للطب والصيدلة [١] فيها المجال الرئيسي ومن هؤلاء الأوروبيين جربير(Gerberto) الذي اصبح فيما بعد بابا روما باسم سلفستر الثاني(Silvestre 11) [٢] على ان اعظم مترجم في هذه الفترة كان جيرارد الكريموني(Gerard of Cremona) وكان من اهم من اسهموا في تقديم المراجع العربية الى اللغة اللاتينية وكما يقول احد المستشرقين [٣] : « بدأ الباحثون اللاتين يغوصون في مستودعات المعرفة الاغريقية القديمة ، وشرع يتدفق مجراها من العربية الى اللاتينية وبهذه اللغة الاخيرة بلغ المجرى اوروبا » كما اكد ستانوودكب اعتماد اوروبا في نهضتها على ما أسهم به علماء العرب انفسهم من جهود علمية وما توصلوا اليه من معارف جديدة من ابتكارهم ومؤلفاتهم [٤] .

وهكذا كانت النهضة الاسلامية العلمية هي الاساس الذي اعتمدت عليه [٥] النهضة الاوروبية في مطلع العصر الحديث .

ويؤكد جورج سارتون تلك الحقيقة فيقول : « ان بعض الغربيين الذين يحاولون التقليل من شأن مساهمة المسلمين الحضارية ويدعون ان العرب والمسلمين لم يزيدوا على نقل العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئاً ، فان هؤلاء في خطأ صريح ، اذ لو لم تنقل الينا كنوز الحكمة اليونانية ، ولولا اضافات العرب

---

(١) زيغريد هونكه : شمس العرب ص ٣٣٢ ، ص ٣٤٨ .
(٢) راجع نجيب العقيقي للمستشرقون . ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٨٤ .
(٣) ستانوودكب : المسلمون في تاريخ الحضارة ص ١١٦ .
(٤) المصدر السابق ص ١١٨ .
(٥) الدفاع : نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ص ٢٢٣ .

والمسلمين الهامة عليها لتوقف سير المدنية بضعة قرون . والواقع ان المسلمين انقذوا العلوم القديمة وحفظوها من الضياع وأضافوا اليها اضافات هامة وأساسية » [1] . فقد جاء بعد عصر الترجمة والاقتباس عصر ابتكار اذ اخذ علماء العرب يمحصون اراء الاقدمين ويشرحونها ويصححونها ويضيفون اليها [2] .

ويؤكد العالم ليبري(Libri) تلك الحقيقة بقوله : « احذفوا العرب من التاريخ ، يتأخر عصر التجديد في اوروبا عدة قرون » [3] .

بينما يقول سيديو : « كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة في القرون الوسطى ، وقد حرروا بربرية اوروبا [4] » .

والجدير بالذكر ان الحركة العلمية التي افادت منها الحضارة الاوروبية الحديثة كانت قد قطعت شوطاً كبيراً في عهد الواثق الذي كان له فضل تشجيعها ورعايتها والاسهام بنصيب وافر فيها .

ونلاحظ ان معظم الكتاب والباحثين الذين تناولوا الحياة العلمية في الدولة الاسلامية لا سيما حركة الترجمة صرفوا جل اهتمامهم على عهد المأمون فقط ، وسلطوا عليه الاضواء ، بل ونسبوا اليه كل جهود حركة الترجمة والنهضة الفكرية والازدهار العلمي ،واكتفوا بذلك ،ونحن نرى أن ما ذهب اليه هؤلاء الكتاب فيه شيء من المبالغة ، أو انهم اقتصروا في كتاباتهم على نقطة البداية دون ملاحقة الحركة العلمية في العصور التالية مما جعلهم ينسبون الى عهد المأمون كل جهود الحركة العلمية . وقد يكون للباحثين عذرهم في ذلك ، فأول ازدهار لحركة الترجمة تم في عهد المأمون ، ولكنه تم خلال فترة محدودة من خلافته ، فقد تميز الشطر الاول من عهده بوجود العديد من المشكلات في حين ان السنوات الاخيرة من عهده اي من ٢١٥ هـ وحتى وفاته [5] قضاها المأمون في الشام على الحدود البيزنطية وعلى ذلك يكون ازدهار الحركة العلمية زمن المأمون قد تم في فترة محدودة واستغرق وقتاً قصيراً لا يتناسب مع

---

(١) الدفاع : نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ص ٢٢٦ .

(٢) حسن الباشا : دراسات في الحضارة الاسلامية ص ٩٠ .

(٣) محمد الصادق عفيفي : تطور الفكر العلمي عند المسلمين ص ٤١ .

(٤) انظر سيديو : تاريخ العرب العام ص ٢٨٦ .

(٥) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٦٥ - ٤٦٩ .

عظمتها وروعتها .

وعندما تولى الواثق الخلافة اعاد للحركة العلمية نشاطها فانتعشت وازدهرت من جديد وكان السلم الذي تحقق زمن الواثق خير معين لتلك الحركة الفكرية التي شملت الترجمة والتأليف والتصنيف ، ويمكننا القول بأن السلم الذي حققه الواثق اعطى لتلك الحركة الدفعة القوية فانطلقت على اثرها تحقق المنجزات العلمية الواحدة تلو الأخرى .

ويؤكد وجهة نظرنا ما اورده الاستاذ عمر فروخ في حديثه عن حنين بن اسحاق أبرز اعلام حركة الترجمة والذي ذكر معظم الباحثين انه كان رئيس بيت الحكمة في عهد المأمون . يقول عمر فروخ : « ولا يعقل ان يكون حنين بن اسحق قد تولى رئاسة بيت الحكمة لنقل الكتب في أيام المأمون (ت٢١٨هـ) كما يقال ، وكانت وفاة حنين عام ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م) »[1] .

استنكر عمر فروخ ان يكون حنين بن اسحق من اعلام عهد المأمون، ووقف عند هذا الحد . ونضيف على ذلك ان حنين بن اسحق كان من اكبر اعلام الحركة الفكرية في عهد الواثق بالله ، وقد ذكر المسعودي ان حنين كان ممن يحضر مجالس الواثق العلمية[2] . واكد مكانة حنين العلمية عند الواثق خلال المناقشات التي كانت تدور في مجالس الواثق ، فذكر ان الواثق سأل حنيناً عن رأيه في بعض المسائل العلمية ليقف على وجهه نظره الخاصة، بعد ما سمع آراء الحاضرين[3] ، كما ان الواثق طلب من حنين ان يؤلف كتباً في موضوعات حددها له[4] .

فالمؤكد والمعقول في نفس الوقت ان فترة نضج حنين بن اسحق وانتاجه العلمي كانت زمن الواثق وليست زمن المأمون كما يذهب كثير من الباحثين ، فحنين ولد عام ١٩٤ هـ والمأمون تولى الخلافة عام ١٩٨ هـ وتوفي حنين في ٢٦٠ هـ[5] . ويمكن ان يقاس على ذلك أسماء أخرى من اعلام الحركة العلمية ممن نسب الى عهد المأمون مما يؤكد ان الحركة العلمية وجدت فرصتها الكبرى في خلافة الواثق بالله .

---

(١) عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ١١٧ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٧٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٠ .
(٤) المصدر السابق ص ٨١ .
(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٤٠٩ .

ثانياً : النتائج الاقتصادية

نمو التجارة الاسلامية وازدهارها

التجارة في العصر العباسي :

كان الامويون لا ينظرون للتاجر بعين التقدير فقد كانوا جيلاً من المحاربين الفرسان وامراء القطائع حتى اننا لانجد لطبقة التجار شأناً في تاريخ الامويين [1] . وإن كانت هذه النظرة ستتغير تدريجياً بعد ذلك .

وفي العصر العباسي الاول خاصة بعد ان استقرت الامور واستتب الأمن وبعد جهود المنصور في القضاء على المناوئين وكبح جماح الثورات ، كان لهدوء الاحوال الداخلية أثره العميق على التجارة الداخلية خاصة والخارجية بصفة عامة . وقد اوضح الدكتور حسن محمود وقوف العباسيين في وجه التقدم الصيني المتحالف مع الاتراك الشرقيين في آسيا الوسطى ، واكد تشديد العباسيين قبضتهم على الطريق الدولي للتجارة المارة ببحر قزوين وشرق أوروبا او المتجهة الى خراسان والعراق والبحر المتوسط ، وكيف تخلت الصين عن سياسة العدوان ولجأت الى التعاون والتفاهم ، واستؤنفت العلاقات التجارية عن طريق البر والبحر على أساس سيادة العباسيين التي تأكدت في ارضهم وداخل حدودهم [2] .

كما ان الاهتمام بالزراعة في العصر العباسي الاول والجهود التي وجهت [3] لرفع المستوى الزراعي أدى الى زيادة المحاصيل وتنوعها يشهد بذلك قائمة الخراج التي اوردها الجهشياري [4] . فالنهضة الزراعية التي بلغت الذروة في عهد الرشيد والتي قامت على أساس فلاح غير مستبعد لا تثقل الدولة كاهله بالضرائب وتمده بحاجته من الماء ترتب عليها توسع في زراعة جميع المحاصيل دون استثناء بالصورة التي ذكرها الرحالة والجغرافيون مثل المقدسي [5] والاصطخرى وابن حوقل [6]

---

(١) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري جـ ٢ ص ٣٧٠ .

(٢) حسن محمود : العالم الاسلامي ص ٢٠٤ .

(٣) ابو يوسف : الخراج ص ٢٢ وما بعدها .

(٤) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص ٢٢٧ ـ ٢٣٥ .

(٥) المقدسي : احسن التقاسيم ص ١٨٠ ، ٢٣٠ ، ٤٠٨ ، ٤٦٩ .

(٦) حسن محمود : العالم الاسلامي ص ١٩٥ .

فضلاً عن التقدم الصناعي [1] في العصر العباسي الاول كل ذلك أدى الى رواج التجارة .

والراجح ان التجارة الخارجية نشطت بصورة واضحة في عهد الرشيد الذي يعتبر قمة الرخاء الاقتصادي في الدولة العباسية ، خاصة بعد توحيد النظم المالية واصدار العملة الموثوق [2] بعيارها في الاسواق الداخلية والخارجية .

التجارة في عهد الواثق

فلما كان عهد الواثق اتسع نشاط التجارة الداخلية والخارجية على السواء . وقد كان لجهود الواثق الفضل في ذلك . فاهتم بالتجارة وأدرك اهمية رواجها وأثره على النهوض باقتصاد الدولة الاسلامية ، فنجده قد وزع الاموال على بعض التجار [3] . ويبدو انه كان هناك بعض كبار التجار الذين لا تتوفر لهم رؤ وس الاموال ، فوفر لهم بذلك فرصة العمل في هذا الميدان وما ذلك الا تشجيعاً للتجارة . وفي ذلك يقول اليعقوبي : « وفرق على قوم من التجار اموالا جمة » [4] .

قد يكون هؤلاء التجار الذين قدم الواثق لهم الاموال ممن يعملون بالتجارة الداخلية ونرجح أنهم ممن يقوم بعمليات التصدير والاستيراد أي بالتجارة الخارجية التي تحتاج الى رؤ وس الاموال الكبيرة . وقد يكون هؤلاء التجار من الفريقين معاً .

وسواء كان هؤلاء التجار يعملون بالتجارة الداخلية ام بالخارجية فان اهتمام الواثق بتوفير رؤ وس الاموال لهم من شأنه ان يؤدي قطعاً الى رواج التجارة وازدهارها . كما يدل على اهتمام الواثق بميدان التجارة اهتماماً بعيداً ووعيه باهميتها . ويؤكد الدكتور حسن محمود تلك الحقيقة قائلاً [5] : « اعتقد ان التجارة الدولية نشطت كأقوى ما تكون في عهد الرشيد ، وتألقت في عصر المعتصم والواثق » .

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٨ .

(٢) ضياء الدين الريس : الخراج ص ٣٦٤ .

(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٣ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) حسن محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٢٠٤ .

واهتم الواثق بالاسواق في سامراء . يتحدث اليعقوبي عن سامراء وعن اهتمام المعتصم حين بناها باقامة الأسواق فيها وكانت تلك الاسواق منظمة كل تجارة منفردة وأهل كل مهنة لا يختلطون بغيرهم ثم تحدث عن دور الواثق في سامراء وكيف أنه زاد في عدد الاسواق [1] .

وخطا الواثق خطوة ثانية لا تقل عن الخطوة السابقة حماسة واقداماً في سبيل تشجيع التجارة وزيادة نشاطها خاصة التجارة الخارجية . فقد ألغى الواثق ضريبة العشور أي عشور التجارة [2] . والعشور رسوم تأخذها الدولة من التجار الـذين يدخلون ارضها بتجاراتهم أي انها تشبه الضرائب الجمركية في عصرنـا الحـالي . ويصفها الدكتور ضياء الدين الريس بانها الرسوم التي تؤخذ على اموال وعروض تجارة اهل الحرب وأهل الذمة المارين بها على ثغور الاسلام [3] .

وكانت الدولة الاسلامية تاخذ العشور من عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فقد ذكر حدير الاسدي ان عمر بن الخطاب بعثه على عشور العراق والشام وامره ان يأخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن اهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر [4] . وكل ما اخذ من المسلمين من العشر سبيله سبيل الصدقة ، وسبيل ما يؤخذ من اهل الذمة جميعاً وأهل الحرب سبيل الخراج [5] واقل نصـاب تؤخذ عليه العشور هو مائتي درهم أو عشرين مثقالاً [6] .

وظلت الدولة الاسلامية تأخذ العشور من التجار في العصر الاموي والعصر العباسي ، ويبدو ان بعض عمال العشور الذين كانوا يقومون بتحصيلهـا ، كانـوا يأخذون نسباً اكثر من النسب المقررة . كما يبدو أنه لم تكن هناك رقابة كافية على هؤلاء العمال مما ترتب عليه وقوع التجار تحت طائلة هؤلاء العمال وتعرض البعض منهم لمظالم كبيرة مما كان يشكل عقبة امام التجارة ويحد من نشاطها . ولذلك نجد

---

(١) اليعقوبي : كتاب البلدان ص ٢٥٨ ـ ٢٦٥ .
(٢) الطبري : الأمم والملوك احداث ٢٣١ هـ . ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٧ .
(٣) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية ص ١٢٧ .
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٢٧٠ .
(٥) المصدر السابق ص ٢٧٤ .
(٦) ابو يوسف : الخراج ص ٢٧٢ .

ابا يوسف يوصي الرشيد بأن يوجه اهتمامه لعمال العشور ويولي هذا العمل لأهل الدين والصلاح ، وأن يامرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به ولا يظلموهم ولا يأخذوا منهم اكثر مما يجب عليهم ، كما يوصيه بأن يتفقد اعمالهم ويكونون دائماً تحت رقابته فان وجد منهم من يخالف ذلك ويظلم التجار يعاقب ويعزل من عمله »[1] .

ورغم توصيات أبي يوسف للرشيد يبدو انه ظلت هناك بعض المظالم التي تقع على كاهل التجار مما يحد من نشاط الحركة التجارية ورواجها . فبعد عهد الرشيد اختل الجهاز الاداري في الدولة بعد الفتنة بين الامين والمأمون ثم ان المعتصم كان مشغولاً لحد بعيد باتراكه وحروبه مما ساعد على فساد الجهاز الاداري في الدولة .

والواقع ان تلك العشور كانت تحقق للدولة دخلاً كبيراً جداً . فكان التجار القادمون من الهند والصين يدفعون العشر . وكانت نسب تلك العشور تختلف من بلد لأخر . ففي جدة كان يؤخذ عن كل حمل من الحنطة نصف دينار وعلى سفط الثياب ثلاثين ديناراً وعلى حمل الصوف ديناران . وكانت العشور في عدن اكثر ارتفاعاً ، فقد كانت الدولة تجبى ثلث اموال التجار بسبب الارباح الطائلة التي كانوا يحصلون عليها . وفي العراق اقيمت المراصد في البر والبحر والنهر[2] وفي البصرة كان يجري تفتيش دقيق حتى لقد كان يؤخذ على السلعة البسيطة اربعة دراهم[3] ، وفي حي اليهودية وهو القسم التجاري من اصفهان كان يؤخذ على كل حمل يدخلها ثلاثين درهماً . وفي ما وراء النهر كان يفرض على الحمل ستة دراهم اذا دخل او خرج وعلى الرقيق اثنا عشر كما كانت الدولة تفرض عشوراً على الصادرات .

فلما جاء عهد الواثق رأى في عشور التجارة والعمال القائمين بجمعها وما يمارسونه من ارهاق للتجار وظلمهم ، رأى في كل ذلك عائقاً للتجارة . لذلك يصدر الواثق قراره الواعي الخطير بالغاء عشور التجارة في انحاء الدولة الاسلامية . يتحدث ابن الاثير عن الواثق قائلاً : « أطلق في خلافته أعشار سفن البحر وكان مالاً عظيما »[4] .

---

(١) ابو يوسف : الخراج ص ٢٧١ .

(٢) حسن محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٢١١ .

(٣) المقدسي : احسن التقاسيم ص ٢٦٣ .

(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ٥ ص ٢٧٧ .

بينما يقول اليعقوبي : « واسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصين من العشر »[1] ويعلق الدكتور ضياء الدين الريس على ذلك قائلاً : « ان الواثق امر بترك جباية اعشار سفن البحر ولا شك ان هذا اجراء كان يقصد به تيسير امر التجارة والتموين »[2] .

كان امراً طبيعياً ان يقبل الكثيرون على العمل في ميدان التجارة بعد ان خفت اعباء العشور عن التجار مما يتيح لهم الحصول على ارباح وفيرة . واقبل على العمل بالتجارة الدولية اي التصدير والاستيراد كثير من المسلمين خاصة بعد أن قدم الواثق لهم الاموال وفرقها عليهم .

ومن الجدير بالذكر ان صاحب كتاب الاموال اورد عدة احاديث نبوية مؤداها تحريم اخذ عشور التجارة من المسلمين ، وتلك الاحاديث من رواية الامام احمد وابو داود[3] كما اكد أن عمر بن الخطاب لم يأخذ عشور التجارة من المسلمين وانما اخذها فقط من اهل الحرب[4] .

هكذا اسفرت سياسة الواثق عن رواج التجارة وانتعاشها بل يمكننا القول انها اسفرت عن تطور بالغ الاهمية في التجارة الداخلية والدولية معاً

والواقع ان السلم الذي حققه الواثق جاء عوناً للنشاط التجاري وتشجيعاً له ، وتمكنت التجارة الاسلامية الدولية من النمو السريع في ظل السلم ونشطت خطوط التجارة حتى مع البيزنطيين انفسهم[5] كما ان تحقيق الامن في الداخل وما قام به الواثق من قضاء على كل الحركات الثورية في مختلف انحاء الدولة ساعد على رواج التجارة .

ويمكن القول ان كل تلك العوامل السابقة من تحقيق السلم مع البيزنطيين الى استقرار الاحوال الداخلية واستتباب الأمن الى جهود الواثق واهتمامه بأمر التجارة كل

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٣ .

(٢) ضياء الدين الريس : الخراج ص ٤٦٠ .

(٣) ابو عبيد القاسم بن سلام : الاموال ص ٦٣١ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ص ٦٣٢ .

(٥) فتحي عثمان : الحدود الاسلامية البيزنطية جـ ١ ص ١٦ .

ذلك كان من شأنه ان يحدث نمواً سريعاً وتطوراً عظيماً في التجارة في الداخل والخارج .

نشطت الطرق التجارية نشاطاً عظيماً وارتادها التجار المسلمون وكانت طرقاً واضحة المعالم منها الطريق الى الشرق من بغداد الى الصين [1] شرقاً والذي يمر على همدان والري ونيسابور وطوس وهراة حتى بخارى وسمرقند وبلاد الصين . وتحدث الدكتور حسن محمود عن الطريق البحري الى الصين قائلاً : « أشرنا الى الاهتمام العباسي بالطريق البحري المار ببلاد الهند المنتهي الى الصين والى ازدياد اهميته في النصف الاول من القرن التاسع الميلادى » [2] والقرن التاسع الميلادي هو القرن الثالث الهجري اي انها نفس المرحلة التي نتحدث عنها .

ومن اهم الطرق التجارية التي ارتادتها التجارة الاسلامية في ذلك الوقت الطريق من العراق او الشام الى مصر ثم شمال افريقيا حتى أقصى الغرب ثم يعبر المضيق شمالاً الى بلاد الاندلس فأوروبا . ومن الجدير بالذكر انه قد عثر في اسكنديناوه وفي السويد خاصة على الكثير من النقود الاسلامية مما يدل على ان ميدان المعاملات التجارية وصل الى تلك الافاق البعيدة [3] .

كما نشطت العلاقات بين العالم الاسلامي وشرق افريقيا وزاد اهتمام الدولة بالبحر الاحمر وموانيه وكانت السفن تسير بحذاء الساحل الافريقي الى الزنج طلباً للذهب والرقيق والعاج والعنبر . وقد احتكر العمانيون التجارة مع بلاد الزنج وشرق افريقيا ويؤكد الدكتور حسن محمود أن المسعودي نفسه ركب البحر الى شرق افريقيا من عمان وقد وصف الرحلة وأهوالها وأورد نص المسعودي [4] .

ومن اهم الطرق التي ارتادتها التجارة الاسلامية في تلك المرحلة الطريق الشمالي من بغداد [5] الى الموصل وسنجار ونصيبين والرقة ثم يعرج على مصر، وهناك

---

(١) ابو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٥١ .

(٢) ابو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٥١ . حسن محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٢٠١ .

(٣) حسن محمود : العالم الاسلامي ص ٢٠٧ .

(٤) مصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

طريق بري بحري من سواحل الشام الى شرق افريقيا وجزيرة مدغشقر ماراً ببحر القلزم (١) .

وبطبيعة الحال كان على تلك الطرق والخطوط التجارية مدن وموانيء تجارية هامة ذائعة الصيت في عالم التجارة بها الجاليات الاجنبية والمؤسسات المصرفية مثل الاسكندرية على الطريق بين اوروبا والشرق وكذلك القلزم التي تنتهي اليها تجارة جنوب شرق اسيا والمتجهة الى البحر المتوسط وأوروبا ثم عيذاب ، كما اشتهرت عدن في جنوب البحر الاحمر وفي الخليج الفارسي ظهرت سيراف كمركز للتجارة مع الشرق الاقصى ومعها البصرة والابلة .

تلك المعاملات التجارية الدولية الضخمة استدعت بالضرورة وسائل مأمونة ومضمونة للدفع . وفي تلك المرحلة ـ خلافة الواثق وما بعدها ـ ارتقت النظم المصرفية وعرفت المعاملات بالصك والسفتجة (٢) . واكد آدم ميتز انه في القرن الثالث كان احد العمال يكتب الصكوك لجهبذه .

ذلك التبادل التجاري العالمي الواسع النطاق استمر في التقدم حتى بعد وفاة الواثق وسوف يترتب على تلك النهضة التجارية الدولية نتائج هامة في مجال التجارة . فسفن المسلمين وقوافلهم التي اصبحت تجوب كل البحار والبلاد ، وعلو شأن التجارة الاسلامية ونموها ، أدى الى اخراج التجار الاجانب من البحار (٣) ومن اهم الطرق التجارية المعروفة آنذاك ، وبدأت التجارة الاسلامية تأخذ مكانها في ميدان التجارة الدولية .

وكان التجار اليهود الذين يأتون من مقاطعة بروفانس بفرنسا يسمون عند المسلمين باسم تجرد هو « تجار البحر » وكانوا يحملون التجارة بين الشرق والغرب . كانوا يحملون من بلاد الفرنجة الخدم والغلمان والجواري والديبلج والخز الفائق والفراء (٤) ويمرون عبر القلزم ثم يتجهون الى السند والهند والصين . ومن هناك

---

(١) أبو زيد شلبي : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٥١ .
(٢) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع جـ ٢ ص ٣٨٠ .
حسن محمود : العالم الاسلامي ص ٢١٠ .
(٣) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٧٢ .
(٤) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٧١ .

يحملون المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك ثم يعودون الى القلزم ثم يتحولون الى الغرما . وقد يتجهون الى القسطنطينية حيث يبيعون ما معهم الى الروم . وقد يتجهون الى بلاد الفرنجة [1] فيبيعونها هناك .

وقد اكد ابن خرداذبه ان هؤلاء التجار اليهود كانوا يتقنون العربية [2] . كما كانوا يتكلمون الافرنجية والفارسية والرومية ، وهم الذين يطلق عليهم الرهدانية او الراذانية [3] .

هؤلاء التجار اليهود تقهقروا تدريجياً امام نمو التجارة الاسلامية وظهور شأنها ، فيقول آدم ميتز معلقاً على ذلك « احداث القرن الثالث في هذا الباب انقلاباً كبيراً » [4] ويقول في موضع آخر : « ظهور شأن التجارة الاسلامية ونماءها اخرج التجار الاجانب من البحار » [5] .

والنتيجة الثانية التي ترتبت على رواج التجارة أيضاً هي فتح الطريق التجاري الى بلاد الروس في الشمال . وقد وصف ابن خرداذبه مسلك تجار الروس من بلادهم الى بلاد الاسلام بقوله : « اما مسلك تجار الروس وهم جنس من الصقالبة ، فانهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من اقصى صقلبة الى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم ، وان ساروا في تنيس ، نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر ، فيعشرهم صاحبها ، ثم يسيرون الى بحر جرجان ، فيخرجون من أي سواحله أحبوا وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل الى بغداد » [6] أي انه في البداية كان التجار الروس هم الذين يرتادون ذلك الطريق ، فلما نمت التجارة الاسلامية وظهر شأنها قام التجار المسلمون بارتياد الطريق التجاري الى بلاد الروس .

ومن اهم النتائج التي ترتبت على نمو التجارة الاسلامية وازدهارها ان برع

---

(١) المصدر السابق .
(٢) حسن محمود : العالم الاسلامي ص ٢٠٦ .
(٣) ادم ميتز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٧٢ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٧٠ .
(٥) المصدر السابق ص ٣٧٢ .
(٦) آدم ميتز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣٧٢ .

فريق من التجار المسلمين خاصة الموالي [1] وتملكوا الثروات الطائلة والاموال الوفيرة مما سيكون له أثره على الحياة الاجتماعية في المجتمع الاسلامي .

وهكذا ارتقت التجارة في الدولة واخذت التجارة الاسلامية مكانتها الدولية بفضل جهود الواثق وساعد السلم الذي ساد وتحقق على نمو التجارة التي اخذت في الازدهار لتبلغ قمتها في القرن الرابع الهجري حيث كانت مظهراً من مظاهر أبهة الاسلام .

---

(١) حسن محمود : العالم الاسلامي في العصر العباسي ص ٢٢١ .

نظرة عامة وتقييم لعهد الواثق

نظرة عام وتقييم لعهد الواثق :

كانت فترة خلافة الواثق مليئة بالمشاكل الداخلية التي استغرقت عهده فلم تمكنه من الاستمرار في الجهاد ضد البيزنطيين . وقد استعرضنا سنوات خلافته عاماً بعام منذ توليه الخلافة وحتى وفاته . فالواثق لم يغفل عن الحدود البيزنطية ولم يهمل ذلك الجانب بل كان يشغل ذهنه وتفكيره موضوع العلاقات الاسلامية البيزنطية ولكن ظروف الخلافة جعلته عاجزاً عن الجهاد ، فكان يتريث دون ان يجرؤ على اتخاذ قرار بالحرب مع البيزنطيين في مثل تلك الظروف . فليس المهم هو الحرب في حد ذاتها وانما في النتائج التي تسفر عنها . وكان الواثق بعيد النظر حين ترك حرب البيزنطيين في تلك الظروف فقد كان من الممكن ان تتعرض الدولة الاسلامية وحدودها للهزائم أو يتحرك خط الحدود لصالح البيزنطيين .

هل كانت الظروف الاقتصادية هي العقبة في سبيل شن الحرب ضد البيزنطيين ؟ ربما كان ذلك ، خاصة ان للواثق جهود لتحسين الاوضاع الاقتصادية في الدولة [1] خاصة في ميدان التجارة . حتى انه لم يبخل بخوان له من ذهب مؤلف من اربع قطع يحمل كل قطعة عشرون رجلاً وكل ما على الخوان من آنية من ذهب ، فأمر ان يكسر كل ذلك ويضرب عملة و يحمل الى بيت المال [2] .

ربما لم يجد الواثق قوة يعتمد عليها في الحرب ، فالعرب قائمة بالثورات في اماكن مختلفة منذ اخرج المعتصم العرب من الديوان . والترك سلطانهم ونفوذهم زاد وطغى في الوقت الذي ترغب الخلافة في الحد من هذا النفوذ ، والصراع قائم بين العرب والترك وقد رأى الواثق كيف كان التآمر بين صفوف الجيش ضد المعتصم في

---

(١) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٣ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٣ .

غزوة عمورية [1] وكان من الممكن ان يحدث ما لا تحمد عقباه لولا ان انكشف امر المدبرين لتلك الحركة التي انتهت بقبض المعتصم على المتآمرين وقتل البعض منهم وعلى رأسهم العباس بن المأمون .

والراجح ان الواثق كان قد فقد الثقة في الاتراك وفي مدى ولائهم للدولة لذلك فهو لا يريد ان يفتح جبهة حرب ويضع نفسه ومصير الأمة في أيديهم . أولعله أراد توجيه اهتمامات الاتراك الى نواحي ادارية وابعادهم عن الجانب العسكري مما يضعف قوتهم العسكرية تدريجياً ، واذا فقد الاتراك ميزتهم العسكرية فقد فقدوا المصدر الحقيقي لقوتهم .

وشجع الواثق على عدم الحرب مع البيزنطيين إدراكه ان امبراطوريتهم تعاني من مشاكل وهزائم بصقلية [2] تشغلها عن العدوان على الحدود العباسية . فكأنما كان مطمئناً لسلامة الجبهة لا يخشى أي خطر على الحدود الاسلامية من جانب البيزنطيين .

آثر الواثق ان يحل مشكلات الدولة الداخلية اولاً قبل ان يدخل في حرب مع البيزنطيين ورأى ان تكون تلك الفترة ، فترة بناء للجبهة الداخلية وحل لمعظم مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية كما آثر أن يقضي على كل حركة عصيان في الداخل اولاً حتى يتمكن من احكام قبضة الخلافة على جميع نواحيها ، في ظل جو يسوده الأمن والاستقرار آثر ان يجمع شمل الأمة بحيث يكون ابناؤ ها صفاً واحداً من وراء الخلافة في الحرب مع البيزنطيين ضماناً لاحراز النصر . لذلك وجدناه يعمل على استرضاء الجماهير [3] والتقرب اليهم .

وهناك سؤال يطرح نفسه : ما هو الغرض الأساسي من الحرب مع البيزنطيين اذا كنا استبعدنا فكرة التوسع وضم اراضي جديدة ؟ ان استراتيجية العباسيين قامت على أساس الدفاع لا الهجوم كما ذكرنا بالتفصيل في الفصل الأول ، ولم نجد للبيزنطيين هجوم على الدولة الاسلامية في عهد الواثق حتى يتحتم عليه الدفاع والحرب .

---

(١) مجهول . العيون والحدائق جـ ٣ ص ٣٩٧ . للمسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٦٠ .
(٢) الباز العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٩٩ .
(٣) تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٤٨٣ .

ربما تكون شخصية الشاعر والموسيقى قد غلبت على الواثق فآثر السلم ومال اليه . فقد اجمع المؤرخون على ان الواثق كان شاعراً [1] كما كان موسيقياً بارعاً يجيد الغناء حاذقاً في العزف على بعض الالات الموسيقية [2] وتلك شخصية تختلف عن شخصية المعتصم الذي كان عسكرياً بطبعه وميله وهواه . فلعل الشاعر والموسيقى آثر السلم ، وبدلاً من الحرب كانت النهضة الفكرية والاهتمامات الثقافية من ترجمة وتصنيف وتأليف .

يبدو ان الواثق رأى ان يحارب البيزنطيين حرباً اقتصادية ويوجه لهم ضربة قوية في ميدان التجارة وهذا ما حدث فعلاً فقد وجه الواثق اهتمامه الى ميدان التجارة الخارجية واخذت التجارة الاسلامية مكانتها الدولية في البحر المتوسط خاصة بعد فقدان الدولة البيزنطية لقواعدها في كريت وصقلية . فقد أدرك الواثق أهمية طرق التجارة وحاول السيطرة عليها .

والواقع ان عهد الواثق وان كان تميز بشيء من الضعف سياسياً الا انه كان عهد ابتكار وتقدم حضاري ورواج تجاري .

تم بحمد الله

---

(١) المسعودي : مروج الذهب جـ ٤ ص ٨٤ . ابن العمراني : الابناء في تاريخ الخلفاء ص ١١١ . ابن طباطبا : الفخري ص ٢٣٦ .
ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٣١٠ . السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٢ . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب جـ ١ ص ٧٥ .

(٢) ابن العمراني : الابناء في تاريخ الخلفاء ص ١١١ . السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣٤٣ .

الملاحق

ملحق (١)

رسالة ملك الروم إلى أهل ملطية

استغل ملك الروم فرصة الصراع بين الأمويين والعباسيين وانشغال الأخيرين بتوطيد الخلافة فهاجم سنة ١٣٣ هـ ملطية وحاصرها ثم أرسل إلى أهلها يقول :

إني لم آتكم إلا على علم بأمركم وتشاغل سلطانكم عنكم ، انزلوا على الأمان واخلوا المدينة أخربها وامضي عنكم[1] .

ولقد رفض أهل ملطية ذلك فحاربهم وكسرهم فاضطروا لقبول شروطه فرحلوا عنها وأخربها .

فتوح البلدان للبلاذري ص ٥١٣

ملحق (٢)

رسالة نقفور ملك الروم الى الرشيد

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب . أما بعد : فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافه لها ، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن . فإذا قرأت كتابي هذا أردد ما حصل لك من اموالها ، وإلا فالسيف بيننا وبينك .

ملحق (٣)

جواب الرشيد لنقفور عن الرسالة السابقة

أثارت الرسالة السابقة غضب هارون الرشيد فكتب إلى نقفور بخط يده الى نفس رسالته ما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، وقد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه .

تاريخ ابن الوردي جـ ١ ـ ٢١٢

ملحق (٤)

رسالة ثانية من نقفور الى الرشيد أرسلها له بعد أن هاجم الرشيد هرقلية واحتلها وسبى أهلها

وموضوع الرسالة رجاء من نقفور إلى الرشيد أن يعيد له جارية أخذها من هرقلية هي خطيبة ابنه :

لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم . السلام عليكم . أما بعد أيها الملك : إن لي إليك حاجة لا تضرك في دينك ولا دنياك هينة يسيرة ، أن تهب لابني جارية من بنات أهل هرقلية كنت قد خطبتها على ابني ، فإن رأيت أن تسعفني بحاجتي فعلت ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

وقد لبى الرشيد طلبه وأرسل له الجارية هدية مع هدايا أخرى .

تاريخ الأمم والملوك للطبري جـ ٦ ـ ١٠ هـ

ملحق (٥)

رسالة هارون الرشيد الى قسطنطين ملك الروم يدعوه فيها الى الاسلام ويشرح له مبادئه ويجادله بالتي هي احسن وهي من انشاء أبي الربيع محمد بن الليث

من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى قسطنطين عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى ، فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ، ولا ولد له ، ولا إله غيره ، الذي تعالى عن شبه المحدودين بعظمته ، واحتجب دون المخلوقين بعزته ، فليست الأبصار بمدركة له ، ولا الأوهام بواقعة عليه ، انفراداً عن الأشياء أن يشبهها ، وتعالياً أن يشبهه شيء منها وهو الواحد القهار الذي ارتفع عن مبالغ صفات القائلين

ومذاهب لغات العالمين وفكر الملائكة المقربين . فليس كمثله شيء وله كل شيء وهو على كل شيء قدير .

أما بعد : فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه قال لنبيه ﷺ فيما أنزل من آيات الوحي اليه : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين . فرأى أمير المؤمنين من أحسن قوله وأفضل فعله أن يكون إلى سبيل ربه داعياً ، وبرسوله ﷺ متاسياً ، ولقوله : ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين ، موافقاً . وكنت من كتب الله المنزلة وآياته المفسرة وخلقه الكثير بحيث رجا أمير المؤمنين اسماعك لوعظته وانتفاعك بمجادلته انتفاعٌ بشر كثير وخلق عظيم قد بؤتَ بأوزارهم مع وزرك ، واحتملت من آثامهم إلى إثمك ، فأحب أن يدعوك ومن رجا أن ينتفع بدعوته معك إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فإن توليتم عن ذلك رغبة عنه ، أو تركتموه زهادة فيه ، فاشهدوا بأنا مسلمون . واسمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم ومحتج به إن شاء الله عليكم ، بقلوب شاهدة وآذان واعية ، ثم اتبعوا أحسن ما تستمعون ، ولا قوة إلا بالله .

فإن الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه واقتص على عباده : فبشر عبادِ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله واولئك هم أولو الألباب [1] . إن الله تبارك اسمه وتعالى جده وصف فيما أنزل آياته وشرح من بيناته ، الأمم الماضية والقرون الخالية والملل المتفرقة ، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها ولا حجة لهم فيها ، فقال : قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ، لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون [2] .

قالت العرب الذين يعبدون الملائكة وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث

---

(١) سورة الزمر ، الآية ١٨ .

(٢) سورة النساء ، الآيتان ١٧١ - ١٧٢ .

ثلاثــة : بأيها آية ، يا محمد ، تزعم أن الله إله واحد ، فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول وتؤمن بها القلوب وتعرفها الألباب فلا تستطيع لها رداً ، ولا نطيق لها جحداً ، ذكر فيها اتصال خلقه واتفاق صنعه ليوقن الجاهلون من العرب ، والضالون من أهل الكتاب ، إن إله السماء والأرض وما بينهما من الهواء والخلق ، واحد لا شريك له خالق لا شيء معه فقال : إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس (١) . فتفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل وما أوضح فيها من بيان الخلق ، فإنه ما من مفكر ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض مثل ما رأى في تدبيره نفسه ، وعرف من اتصال خلقه ، فيما بين ذوائب شؤون رأسه إلى أطراف أنامل قدمه ، وفي ذلك أوضح آية وأبين دلالة على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه ، ولا من شيء ابتدعه ولا على مثال صنعه . قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم إن الله عز وجل خلق للأنام الأرض وجعلها موصولة بالخلق ، فليس يدحوها إلا لهم ، ولا يدعها إلا معهم ، وجعل ذلك الخلق متصلاً بالنبت لا يقوم إلا به ولا يصلح إلا عليه ؛ وجعل ذلك النبت الذي جعله متاعاً لكم ومعاشاً لأنعامكم متصلاً بالماء الذي ينزل من السماء بقدر معلوم لمعاش مقسوم ، فليس ينجم النبت إلا به ولا يحيا إلا عنه ، وجعل السحاب الذي يبسطه كيف يشاء متصلاً بالريح المسخرة في جو السماء تثيره من حيث لا تعلمون ، وتسوقه وأنتم تنظرون . كما قال عز وجل : والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور (٢) . ووصل الرياح التي يصرفها في جو السماء بما يؤثر في خلق الهواء من الأزمنة التي لا تثبت الهواجر إلا بثباتها ، ولا يزول عنه برد إلا بزوالها ، ولولا ذلك لظل راكداً بالحر المميت أو ماثلاً بالبرد القاتل ، ووصل الأزمنة التي جعلها متصرفة متلونة بمسير الشمس والقمر الدائبين لكم المختلفين بالليل والنهار عليكم ، وجعل مسيرهما الذين لا تعرفون عدد السنين إلا به ، ولا مواقع الحساب إلا من قبله ، متصلاً بدوران الفلك الذي فيه يسبحان وبه يأفلان ، ووصل مسير الفلك بالسماء للناظرين سواء . فهذا خلق الله عز وجل ، ما فيه تباين ولا تزايل ولا تفاوت كما قال سبحانه وتعالى : ما ترى في

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٦٤ .

(٢) سورة فاطر ، الآية ٩ .

خلق الرحمن من تفاوت [1] ولو كان لله شريك أو معه ظهير عليه ، يمسك منه ما يرسل ، ويرسل منه ما يمسك ، أو يؤخر شيئاً من ذلك عن وقت زمانه ، أو يعجله قبل مجيء أبانه ، لتفاوت الحق ولتباين الصنع ، ولفسدت السموات والأرض ولذهب كل إله بما خلق ، كما قال الله عز وجل ـ وكذّب المبطلين ـ بل آتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون [2] . والعجب كيف يصف مخلوق ربه ، أو يجعل معه إلهاً غيره ، وهو يرى فيما ذكر الله من هذه الأشياء صنعة ظاهرة وحكمة بالغة وتأليفاً متفقاً وتدبيراً متصلاً من السماء والأرض ، لا يقوم بعضه إلا ببعض ، متجلياً بين يديه ، ماثلاً نصب عينيه ، يناديه إلى صانعه ويدله على خلقه ، ويشهد له على وحدانيته ، ويهديه إلى ربوبيته ، فتعالى الله عما يشركون ، أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يُخلقون . حقاً ما كرر هؤلاء الجاهلون بربهم ، الضالون عن أنفسهم ، في خلق الله النظر ، ولا رجعوا ، كما قال الله عز وجل ، الفكر ، ولو أعملوا فكرهم وأجهدوا نظرهم فيما تسمع آذانهم وترى أبصارهم من حوادث حالات الخلق ، وعجائب طبقات الصنع ، لوجدوا في أقرب ما يرون بأعينهم ، من التأليف لتركيب خلقهم ، والأثر في التدبير بصنعهم ما يدلهم على توحيد ربهم ، ويقف بهم على انفراده بخلقهم ، فإنهم يرون في أنفسهم باعينهم ويجدون بقلوبهم إنها مخلوقة صنعة بعد صنعته ، ومحولة طبقة عن طبقة ، ومنقولة حالاً إلى حال : سلالة من طين ثم نطفة من ماء مهين ، ثم علقه ، ثم مضغة ثم عظماً ، ثم كساه الله عز وجل لحماً ونفخ فيه روحاً فإذا هو خلق آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ، الذي خلق في قرار مكين ، من ماء قليل ضعيف ذليل ، خلقاً صوره بتخطيط وقدره بتركيب ، وألفه بأجزاء متفقة ، وأعضاء متصلة ، من قدم إلى ساق إلى فخذ إلى ما فوق ذلك ومن مفاصل ما يعلن أو عجائب ما يبطن ، ليعلم الجاهلون ويوقن الجاحدون أن الذي صنع ذلك وخلقه ودبره وقدره وهيأ ظاهره وباطنه إله واحد لا شريك معه ، فلا يذهبن ذكر هذا صفحاً عنكم ، ولا تسقط حكمته جهلاً به عليكم ، وفكروا في آيات الرسل وبينات النذر ، فإن في ذلك فكراً للمبصرين

(١) سورة الملك ، الآية ٣ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٩١ .

وبصراً للمعتبرين وذكرى للعابدين ، والحمد لله رب العالمين .

وامـير المؤمنـين واصف لكم ومقتص من ذلك إن شاء الله عليكم ما فيه شهادات واضحات وعلامات بينات ، ومبتدىء بذكر آيات نبيناﷺ فيما أنزل الله منها في الوحي عليه ، فإنه ما أحد يقرع بآيات النبوة قلبه ويحصن ببينات الهدى عقله ، إلا قادته حتى يؤمن بنبوة محمدﷺ ، لا يجد إلى إنكار ما جاء به من الحق سبيلاً ، فأردتُ أن تكونوا على علم ومعرفة ويقين وثقة من أمر محمدﷺ وحقه ، وما أنزل إليه من ربه عز وجل ، فاحضر كتاب أمير المؤمنين فهمك ، والق إلى ما هو واصف ان شاء الله سمعك ، إن الله عز وجل اصطفى الاسلام لنفسه واختار له رسلاً من خلقه وابتعث كل رسول بلسان قومه ليبين لهم ما يتبعـون ويعلمهـم ما يجهلون : من توحيد الرب وشرائع الحق : لئلا يكون للناس على الله حجـة بعـد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً . فلم تزل رسل الله قائمة بأمره متوالية على حقه في مواضي الدهور وخوالي القرون وطبقات الزمـان ، يصـدق آخرهـم بنبـوة أولهـم ويصدق أولهم قول آخرهـم ، ومفاتح دعوتهم واحدة لا تختلف ، ومجامـع ملتهـم ملتئمة لا تفترق ، حتى تناهت الولاية والوراثة التي بني عيسى عليه السلام عليها وبشر بها ، إلى النبي الأمي الذي انتخبه الله لوحيه واختاره بعلمه ، فلم يزل ينقله بالآباء الأخاير والأمهات الطواهر ، أمة فأمة ، وقرناً فقرناً حتى استخرجه الله في خير أوان وأفضل زمان ، من أثبت محاتد أرومات البرية أصلاً ، وأعلى ذوائب نبعات العرب فرعاً ، وأطيب منابت أعياص [1] قريش مغرساً ، وأرفع ذرى مجد بني هاشم سمكا ، محمدﷺ خيرها عند الله وخلقه نفساً ، على حين أوحشت الأرض من أهل الإسلام والأيمان ، وامتلأت الآفاق من عبدة الأصنام والأوثان ، واشتعلت البدع في الدين ، وأطبقت الظلم على الناس اجمعين ، وصار الحق رسماً عافياً وخلقاً بالياً ميتاً وسط أموات ، ما أن يحسون للهدى صوتاً يسمعونه ، ولا للدين أثراً يتبعونه ، فلم يزلﷺ قائماً بأمر الله الذي أنزل إليه ، يدعوهـم إلى توحيد الـرب عز وجـل ، ويحذرهـم عقوبـات الشرك ، ويجادلهـم بنـور البرهـان وآيات القـرآن وعلامـات الإسلام ، صابراً على الأذى ، محتملاً للمكروه ، قد ألهمه الله عز وجل أنه مظهر دينه ومعز تمكينه وعاصمه ومستخلفه في الأرض ، فليس يثنيه ريب ، ولا يلـويه

---

(١) أعياص قريش هم اولاد امية بن عبد شمس الاكبر وهم العاص وابو العاص والعيص وابو العيص والعويص .

هيب ، ولا يعنيه أذى ، حتى إذا قهرت البيناتُ البابهم وبهرت الآيات أبصارهم ، وخصم نور الحق حجتهم ، فلم تمتنع القلوب من المعرفة بدون صدقه ، ولم تجد العقول سبيلاً إلى دفع حقه ، وهم على ذلك مكذبون بأفواههم ، وجاحدون باقوالهم ، كما قال الله عز وجل العليم بما يسرون ، الخابر بما يعلنون : فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون[1] . بغياً وعداوة وحسداً ولجاجة ، افترض الله عليه قتالهم ، وأمره ان يجرد السيف لهم ، وهم في عصابة يسيرة وعدة قليلة مستضعفين مستذلين يخافون أن يتخطفهم العرب ، وتداعى عليهم الأمم . وتستحملهم الحروب [2] فآواهم في كنفه وأيدهم بنصره . وأنذرهم بمقدمة من الرعب ومشغلة من الحق وجنود من الملائكة ، حتى هزم كثيراً من المشركين بقلتهم ، وغلب قوة الجنود بضعفهم ، إنجازاً لوعده وتصديقاً لقوله : وأن جندنا لهم الغالبون [3] . فأحسن النظر وقلب الفكر في حالات النبيﷺ من الوحي قائماً لله ، لتجد لمذاهب فكرك وتصاريف نظرك مضطرباً واسعاً ومعتمداً واسعاً وشعوباً جمة كلها خير يدعوك إلى نفسه ، وبيان ينكشف لك عن محضه . وأخبر أمير المؤمنين ما كنت قائلاً لو لم البعثة للنبيﷺ بلغتك ، ولم تكن الأنباء بأموره تقررت قِبلَك ! ثم قامت الحجة بالاجتماع عندك ، وقالت الجماعة المختلفة لك : أنه نجم بين ظهراني مثل هذه الضلالات المستأصلة والجماعات المستأسدة التي ذكر أمير المؤمنين من قبائل العرب وجماهير الأمم وصناديد الملوك ناجم قد نصب لها وغَرِيَ بها ، يجهل أحلامها ويكفر أسلافها ويفرق ألافها ويلعن آباءها ، ويضلل أديانها ، وينادي بشهاب الحق بينها ، ويجهر بكلمة الإخلاص الى من تراخى عنها ، حتى حميت العرب وأنفت العجم وغضبت الملوك ، وهو على حال ندائه بالحق ودعائه اليه ، وحيداً فريداً لا يحفل بهم غضباً ولا يرهب عنتاً . يقول الله عز وجل : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس [4] .

أكنت تقول فيما تجري الأقاويل به وتقع الآراء عليه إلا أنه أحد رجلين : إما كاذب يجهل ما يفعل ويعمى عما يقول ، وقد دعا الحتف إلى نفسه ، وأذن الله لقومه

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٣٣ .

(٢) تلقي عليهم حملها وعبأها وثقلها .

(٣) سورة الصافات ، الآية ١٧٣ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

في قتله ، فليست الأيام بمادة ولا الحال بثابتة له إلا ريثما تستلحمه [1] أسبابهم وينهض به حلفاؤهم غضباً لربهم وانفة لدينهم ، وحمية لأصنامهم ، وحسداً من عند أنفسهم ، وإما صادق بصير بموقع قدمه ومرمى نبله ، قد تكفل الله عز وجل بحفظه ، وصحبه بعزه ، وجعله في حرزه ، وعصمه من الخلق ، فليست الوحشة بواصلة مع صحبة الله إليه ، ولا الهيبة بداخلة مع عصمة الله عليه ، ولا سيوف الأعداء بمأذون لها فيه . ثم أن آتيكم يا أهل الكتاب لو قيل لكم : ان الرجل الذي يدعي العصمة وينتحل المنعة ، قد نجمت الأمور به على ما قال ، وسلمت الحال له فيما ادعى ، حتى نصب لعمارات [2] العرب وجماعات الأمم يقاتل بمن طاوعه من خالفه ، وبمن تابعه من عانده ، جاداً مشمراً ، محتسباً واثقاً بموعود الله ونصره لا تأخذه لومة لائم في ربه ، ولا يوجد لديه غميزة في دينه ، ولا يلفته خذلان خاذل عن حقه ، حتى أعز الله دينه ، وأظهر تمكينه ، وانقادت الأهواء له ، واجتمعت الفرق عليه . ألم يكن ذلك يزيد حقه يقيناً عندكم ، ودعوته ثبوتاً فيكم ، حتى تقول الجماعة من حلفائكم وأهل الحنكة من ذوي آرائكم : ما كان الرجل ، إذ كان وحيداً فريداً قليلاً ضعيفاً ذليلاً معروفاً بالعقل منسوباً إلى الفضل ، ليجترىء أن يقول : ان الله عز وجل أوحى اليه فيما أنزل من الكتاب عليه إنه يعصمه من العرب جميعاً ويمنعه من الأمم طراً ، حتى يبلغ رسالات ربه ويظهره على الدين كله ، ويدخل الناس أفواجاً في دينه ، إلا وهو على ثقة من أمره ويقين من حاله .

فسبحان الله يا أهل الكتاب ! ما أبين حق النبي ﷺ لمن طلبه ، وأسهله لمن قصد له ، واستعملوا في طلبه ألبابكم وارفعوا . . . [3] أبصاركم ، تنظروا بعون الله إليه ، وتقفوا إن شاء الله عليه ، فإنها علامات نبوّته وآيات رسالته ظاهرة لا تخفى على من طلبها ، جمة لا يحصى عددها ، منها خواص تعرفها العرب ، وعوام لا تدفعها الأمم . فأما الخواص المعروفة لدينا ، المعلومة عندنا التي أخذتها الأبناء عن الآباء ، وقبلها الاتباع عن الاسلاف ، فأمور قد كثرت البينات فيها ، وتداولت الشهادات عليها ، وثبتت الحجج بها ، وتراخت الأيام ببعضها ، حتى رأيناه عياناً ، وقبلناه إيقاناً ، فهي أظهر فينا من الشمس ، وأبين لدينا من النهار . ولكن غيبت

---

(١) تستلحمه ، تعلق به وتنشب .

(٢) عمارات العرب : أحياؤها العظيمة .

(٣) بياض بالأصل .

الأزمان عنكم أمرها ولم ينقل الأباء إليكم علمها . وما لا يدرك إلا بالسمع موضوع الحجة عن العقل . فليس أمير المؤمنين بمحاج لكم ولا قاصد إليكم من قبلها . وأما الآيات العوام والدلالات الظاهرة في آفاق الأرضين القاطعة لحجج المبطلين التي لا تنكر عقول الأمم وجوب حقها ، ولا تدفع ألباب الأعداء صحة أمرها ، فسيولجها أمير المؤمنين مسالك أسماعكم ، ويعيد بها حجة الله في أعناقكم ، من وجوه جمة وأبواب كثيرة إن شاء الله ، منها أنه لم تزل الشياطين ، فيما خلا من فترات الرسل وندرات النذر ، تصعد الى سماء الدنيا ،وتنصت للملأ الأعلى فتسترق السمع وتحفظ العلم وتنزل به الى كل أفاك أثيم ، يبنون أكاذيبهم على واضح صدقه ، وينفقون باطلهم بحسب حقه ، خلطاً للباطل فيه وسوبها [1] . للعباد عليه . فلما بعث الله محمداً ﷺ وأنزل آيات القرآن إليه ، حرست السماء بالنجوم ، ورميت الشياطين بالشهب وانقطعت الأباطيل واضمحلت الأكاذيب وخلص الوحي فبطلت الكهان وضلت السحار وكذبت الأحلام ، وتحيرت الشياطين ، فكانت آية بينة وعلامة واضحة وحجة بالغة تبهر قرائح العقول وتخرق حجب الغيوب ، فلا يقوم مع ضيائها ظلمة ، ولا يثبت عند محكمها شبهة ، ولا يقيم معها في محمد ﷺ شك ، لا من أصحابه خاصة ، ولا ممن جاء بعده عامة ، إنما جعلها الله عز وجل آية باقية في الغابرين ، وحراسة ثابتة من الشياطين لأن الله جل وعلا جعل نبينا ﷺ آخر النبيين ، فليس باعثاً بعده نبياً يكذب أقاويل الكهنة ويقطع أخابير الجينة . وستقول ، فيما يذهب إليه الظن ويقع عليه الرأي ، أنت ومن عقل من أمتك وأهل ملتك ، هذه آية حاسمة وحجة قاطعة بينة قائمة ، مستعلية لأمرها . مستغنية بنفسها لا تحتاج إلى ما قبلها ، ولا تتكل على ما بعدها ، إن أقرت العقول بما تقول أو قامت البينة على ما تدعي . بلى . ثم تقول : وأنىٌ لك بالبينة ولسنا نقر بكتابك ولا نؤمن برسولك ولا نقبل قولك فيما قد سبقنا وإياك زمانه وحجبت الغيوب عنا وعنك علمه . فأرجع إليكم إن قلتم ذلك ، فإن وجدان القضاة قبل طلب البينات .

وليس يجعل أمير المؤمنين فيما ينازعك ويحاجك فيه حاكماً غير عقلك ولا قاضياً سوى نفسك ، ولكنه يذكرك الله الذي إليه معادك وعليه حسابك ، لما جعلت التفهم لمسألته من بالك وركبت حدودها في جوابك ، عادلاً بالقسط قاضياً بالحق

---

(١) كذا بالأصل ولعلها لموبها .

قائلاً بالصدق ولو على نفسك ، ناظراً بالأثرة لدينك ، فلقد وفق الله لك آية ، واهدى اليك بينة ، لا تستطيع دفعها لحجبها عن عقلك ، ولا حجاباً لنورها دون بصرك ، فلا تدفع الآية بقولك ، والبينة بلسانك ، جحداً بقطع وصول الحجج إليك ، ويد تغلق أبواب الفهم عنك ، فإن اللسان لك مداول حيث شئت ، ومنقاد تصرفه فيما هويت ، ولكن انصب نفسك للفهم وانت شهيد ، وأرد الحق وقبوله فيما تريد . فاذا تصورت البينات مجسدة في قلبك وتبينت الحجج ممثلة لنظرك ، قد أضاء صوابها لك وقرع حقها قلبك ، فاجعل القول بها شعاراً للسان متصلاً ، وافهم المسألة فهّمك الله الحق ، وجنبك الجحد ، ما تقول انت ومن قبلك في رجل كان يتيماً ضعيفاً اجيراً ساهياً لاهياً عائلا خاملاً ، لم يتل كتاباً ولم يتعلم خطاً ، ولم يك في محلة علم ولا إرث ملك ولا معدن أدب ، ولا بيت نبوة ، فترافت الأيام به واتصلت الحال بأمره حتى خرج الى العرب عامة والقبائل كافة وحيداً طريداً شريداً مخذولاً مجهولاً مجفواً بالعقوق لآلهتهم ، مقذوفاً بالكذب على أصنامهم ، منسوباً الى الهجر لأديانهم ، وهم مجمعون على دعوة العصبية وحمية الجاهلية متعادون متباغضون مختلفة اهواؤهم ، متفرقة أملاؤهم ، يتسافكون الدماء ويتناوحون النساء ويستحقون الجرم ، لا تمنعهم ألفة ولا تعصمهم دعوة [ولا] يحجزهم بر ، فألف قلوبها وجمع شتتها حتى تناصرت القلوب وتواصلت النفوس وترافدت الأيدي . ثم توحدت الكلمة واتفقت الافئدة حتى صار غاية لملقى رحالهم ، ونهاية لمتجمع أسفارهم وصاروا له حزباً مثقفين وجنداً مطيعين ، بلا دنيا بسطها لهم ، ولا أموال أفاضها بينهم ولا سلطان له عليهم ولا ملك سلف لآبائه فيهم ، ولا نباهة كانت له بين ظهرانيهم أتقول إنه [ما] قال ذلك كله إلا بوحي عظيم وتنزيل كريم وحكمة بالغة ، فان قلت ذلك فقد اقررت ان محمداً ﷺ رسول ، وتركت ما كنت تقول إنه لم يدركه ولم يبلغه إلا بعقل سديد ونظر بعيد ورفق لطيف ورأي دقيق ، استبى به عقول الرجال واستمال اليه أفئدة العوام . فإن قلتم ذلك ، فأنا سائلكم بالحكم الذي تعبدون ودينكم الذي تنتحلون ، لما صدقتم أنفسكم وتجنبتم الهوى عنكم ، أتؤمن قلوبكم وتقر عقولكم ويحتمل نظركم أن محمداً ﷺ الذي وصفتموه بكمال العقل وبيان الفضل ورفق التدبير كان يقول لرجالات العرب وجماعات الأمم [و] دهاة قريش : إن من آيات نبوّتي ودلالات رسالتي وعلامات زماني أن الشياطين ترمى بنجوم السماء . ولم تك ترمى بها فيما خلا ، ثم يجعل ذلك

كتاباً يقرأ ، وقرآناً يتلى ، وهو كاذب فيما تلا ، ومبطل فيما أدعى ، إبطالاً تدركه عيون الناظرين ، وكذباً يظهر لجميع العالمين ! سبحان الله ! ارأيتم أن لو كان فيما قال من الكاذبين ، وعلى ما ادعى من الآثمين ، ثم حاول إبعاد القلوب وإنغال الصدور وإنفار النفوس وتفريق الجموع ، أكان يزيد على ذلك ؟

فيا أهل الكتاب : لا يحملنكم الألف لدينكم على اللعب بتوحيدكم ، فلعمر الآ لئن تداركتم أنفسكم وناصحتم نظركم لتعلمن أن محمداً ﷺ لو حاول الكذب أو رام الإفك لما كان يترك جميع الأرض ، وما يغيب عن بعض الخلق ويظهر لبعض ، ويقصد للسماء المتصلة بالبصر ، البارزة للنظر ، التي لا تخفى على بشر ، ولا تغيب عن احد فيدعي فيها كذباً ظاهراً وإفكاً بارزاً مكشوفاً ، لا يبقى صغير ولا كبير ولا ذكر ولا انثى إلا عرف أنه إفك وزور وكذب وغرور ، ولا سيما إذا كان يلقي ذلك إلى أقوام أكثرهم أعراب ، ليس بينهم وبين السماء حجاب ، إنما يراعون الكواكب ويتفقدون الغيوم . فأبعدُ عهد آخرهم بها تفقده لها ونظره إليها ، ساعة أو ساعتين ، أو ليلة او ليلتين . لعمر الله لو عثرت العرب من أمر النبي ﷺ على كذب لكان أولى من يواثبه به ويجادله فيه أعداؤه من قريش عامة ، وحساده من جيرته خاصة ، ونظراؤه من أهل بيته دِنْيَةً ، الذين كانوا يستعيرونه لكل طريق ، ويقعدون له على كل سبيل ويتساءلون من أمره عن كل ذي حادث فيتعلقون بالحروف المشكلة والآيات المشتبهة جدلاً وخصومة بها ، وطعناً وإلحاداً ومنازعة فيها ، حتى لقد وصفهم الله بفعلهم وأخبر عن ذلك من أمرهم فقال عز وجل : بل هم قوم خصمون [1] . وما كان الله عز وجل ليقول ذلك ولا لأحد أن يقوله على الله في أمرهم إلا عن خصومة شديدة ومنازعة بليغة ومجادلة معروفة ، فأحسن النظر لنفسك ولا تهلكن شفقة على ملكك . فأيم الله لئن قلت إن النجوم شيء كانت العرب تراه بعيونها وتعرفه بقلوبها ، فيما كان محمد ﷺ ، وهو عارف بها غير جاهل لها ، ليقول فيها إلا حقاً ، وينتحل فيها إلا صدقاً ، لقد ثبتت فروع كلامك فيها على أسسه ، ووصلت آخر قولك له بأوله ، ثبوتاً على ما ذكرت من عُقَدِه ، ولزوماً لما فرطت من نظره ، ولكنك لا تجد مع الإقرار بذلك بدأ من التصديق برسالته ولا مذهباً عن الإيمان بنبوته .

---

(1) سورة الزخرف ، الآية ٥٨ .

ولئن زعمت أنه أدعى أمر النجوم كذباً وانتحلها باطلاً ، عارفاً كان بها أم جاهلاً ، لقد نسبته من الخطأ الذي لا يعمي عن بصره إلى ما يخطىء فيه بشر ، فأكذبت نفسك وتركت قولك : إنه لم يكن التأليف لقلوب العرب والجمع لشتيت القبائل ، إلا برأي سديد وعقل أصيل ورفق بالغ ، إلى أحد أمرين لا تجد لكلامك وجهاً تذهب إليه غيرهما ، ولا محملاً تضعه عليه سواهما . إما أن تقول : إنه ألف قلوب العرب وفرق جموع الأمم بتنزيل الوحي فتؤمن إنه نبي ، وإما أن تقول فعل ذلك بجهل ، وهذا قول لا يقبل . كيف يصنعه أحد من الجاحدين به المكذبين له بغباوة ، أو يرمونه بجهالة وهم يجوزون به حدود الأنبياء ويرفعونه فوق أمور العلماء ، ويتخطون به مراتب الحكماء ومنازل الناس تكثيراً لعلمه وتسديداً لعقله وتثبيتاً لفضله ، فيما لا يقدر الخلق عليه ولا تهتدي الألسن إليه ، حتى لقد نحلوه فعل الرب الذي لا يقدر عليه الخلق في وجوه كثيرة وأنحاء جمة . من ذلك أنه إذا قالت البقايا من أمتنا : كان محمدﷺ يخبرنا بالغيوب قبل ظهورها ويصف الأمور قبل حلولها ، ويتجاوز [ما يكون] في زمانه من ذلك إلى ما يكون في زماننا غيباً أطلعه الله عز وجل عليه ، أضافوا ذلك علماً إليه ، فقالوا : كان أعلم الناس بمواقع النجوم وأبصرهم بمنازل البروج وانظرهم بدقائق الحساب . كيف ولم يكن الحجاز دار نجوم ولا محل حساب ولا معدن أدب ، بل كيف والمنجم يقيس ويخطىء ويشك فيما يدعي ، وهو أخو صواب لا شك فيه ، وفارس صدق لا قياس معه .

ومن ذلك إذا قالت العلماء من المسلمين : كان نبيناﷺ [علماً] بباطن أخبار النبيين وخفي قصص القرون الأولين ، قالوا : كان أحيا الناس قلباً وأوسعهم سرباً وأسرعهم أخذاً ، يتتبع ذلك ويحبه وقد رواه وعُلِّمَه . سبحان الله ! أو لا يعلمون أن المتعلم معروف المعلم ، متفاوت الحالات ، متنقل الطلبات وإنه ما أحد يؤدب صغيراً أو يطلب العلم كبيراً إلا وله درجات في علمه وتارات في أخذه ومنازل في تعلمه ، تارة تلميذ وتارة مقارب وأخرى حاذق ، وبكل ذلك موصوف من أهله ، معروف عند قومه ، ظاهر لجيرانه ، مستفيض في عشيرته ، لا يجهل أمره ولا يخفي ذكره ، ولا ينسى عند مواضع الحاجة إليه وتارات الاحتجاج به عليه ؛ ولو كان ذلك معروفاً فيهم أو موجوداً لديهم أو ظاهراً عندهم لما أمره الله عز وجل أن يحتج عليهم ويقول في ذلك لهم : لقد ثبت فيكم عمراً من قبله لا أتلو قرآناً ولا أدعي وحياً أفلا تعقلون ؟ .

وأيم الله ، لو كانوا يعقلون أو ينظرون لعلموا أن معلمه على غير الملة التي يعرفون ، لأنه لهم من المخالفين وعليهم من الطاعنين ، يذكر فضائح قولهم ومعايب أمرهم ومخازي اسلافهم وعوائر أديانهم ، وإنه لو كان معلمه نصرانياً لدعاه إلى النصرانية ، أو يهودياً لدعاه إلى اليهودية أو مجوسياً لدعاه إلى المجوسيه ، ولو لم يكن له معلم لما وقع على الحقيقة هداية من تلقاء نفسه ومعرفة بقوة عقله . ولو كان معلمه الشيطان لما دعاه إلى عبادة الرحمن ، ولا أمره بهجر الأوثان وكسر الأصنام وصلة الأرحام والإصلاح في الأرض ، كيف [و] كان الشيطان يصد الناس عن سبيله ، أو يزهدهم في دينه وينهاهم عن طاعته ويخرجهم من عبادته ، ويدخلهم في مساخطه ويحملهم على معاصيه ؟ انه إذاً لرحيم بهم ناظرهم شفيق عليهم كأنه هو المبعوث اليهم ! كلا ، ما كان لينقذهم من حبائله ويخلصهم من مصايده ويخرجهم من ولايته وطاعته وسلطانه وخدعه وفتنته وحزبه ، إلى غير ذلك من أمره ، وما كان لينهي العرب أن يقتلوا أنفسهم ويتناوحوا حرمهم ويؤذوا ذريتهم ، ولا ليقول لهم : لم تعبدون نحيت الحجارة التي جعلها الله لكم عاراً ، وتذرون عبادة الرب الذي خلقكم أطواراً ، هيهات ! لقد ذهبتهم بالشيطان الرجيم إلى صراط العزيز الحكيم فقلتم قولاً تنكره العقول وتدفعه القلوب وتستوحش منه النفوس . ألا تستمعون إلى قول الله عز وجل : فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا ارحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم [١] . فما كان الشيطان ليرضى للعرب باللعنة والبكم والعمى والصمم ، فاتق الله ولا تكن من الجاحدين .

ومنها أنه إذا قالت الفقهاء والحكماء : أتانا محمد ﷺ بكلام لم تسمع الآذان بمثله ، ولم تقع القلوب على لغته ، له رونق كحباب الماء ، وزبرج يعلو ولا يعلى ، وعجائب لا تبلى وتفنى ، وجدة لا تتغير (قالوا) : كان محمد ﷺ أبلغهم قولاً وأحسنهم وصفاً . فيا سبحان الله ! ألا يعلمون إن لو كان القرآن كلاماً للعباد لما أقرت الأعداء من [٢] . . . بفضله ، ولا عجزت القبائل طراً عن مثله ، وهو يناديهم في الكتاب ويتحداهم في الوحي ، بصوت رفيع ونداء سميع فيقول : هاتوا سورة

---

(١) سورة محمد : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) بياض بالاصل قدر كلمة .

من مثله إن كنتم صادقين . وهم فرسان الكلام وإخوان البلاغة وأبناء الخطب ، وأهل عدواة له وبغي عليه ، فستحسر الأبصار وتثقل الأسماع وتنعقد الألسن وتخرس الخطباء وتعجز البلغاء وتحار الشعراء وتستسلم الكهان . ثم لقد قايست البصراء بالكلام والعلماء بالمنطق ؛ بين ما بين أيدينا من كلام النبي ـ ﷺ ـ وما جاء به من كلام الوحي ، فإذا بينهما بون بعيد وتفاوت شديد ، ليس بشبه له ولا مدانٍ ولا قريب . وكذلك ينبغي لكلام الرب عز وجل أن يعلو كلام الخلق ، وألا يشبه قول العباد في تأليفه وأحاديثه ومعانيه وجميع ما فيه ، لأن الله عز وجل لا يشبهه شيء من ذلك . إنه إذا قال المسلمون : كان محمد ﷺ يُرى ماضي أسلافنا وصلّح آبائنا من العجائب العظام والآيات الكبار ما هو جديد عندنا ، بُين قبلنا فلم يعف أثره ولم يدرس خبره ولم يتقادم عهده ، من شجرة ناداها فأقبلت ثم أمرها فرجعت ، ومن نحو بعير تظلم وذئب تكلم وأشباه لذلك كثيرة ونظائر له عجيبة ، قالوا : كان محمد ـ ﷺ ـ كاهناً حاذقاً وساحراً ماهراً ، يشبِّه بالخيال ويأخذ بالأبصار ، كيف والجموع الكثيرة تصدر عن الأطعمة اليسيرة والمياه القليلة شباعاً رواءً أيكون ذلك والسحر سواءاً ، والأخذ بالعيون لا يجري في البطون ، ولو كانوا ينظرون لدينهم وينصفون من أنفسهم لعلموا أن أمر الساحر يدور على إفك وغرور ، وأن لمحمد ـ ﷺ ـ آثاراً قائمة ومنافع دائمة . ثم لو كانت الكهانة والسحر يبلغان مثل هذا من الأمر ، لبطلت آيات الكتب وعلامات الرسل ولعلت الشبهة وسقطت الحجة وكذبت النبوة ، ولبطل ما كان (يفعله) عيسى عليه السلام : من إبرائه الأكمه والأبرص وإحيائه الموتى ، فلا يكون التقليد للرجال مبلغ علمك ، ولا القبول لدعواهم بلا بينة .

ومن ذلك (أنه) إذا قالت البصراء من أمتنا والعلماء بملتنا : كان النبي ـ ﷺ ـ أمياً لا يحسن الكتاب وحافظاً لا ينسى القرآن ، وقلما يجتمع العقل السديد والحفظ السريع والنسيان البطيء . قالوا : كان أخط الناس يداً ، وأذكاهم حفظاً ، كان يكتب بالنهار ويدرس بالليل .

ولعمر الله أن لو كانت الحال كما يقولون والأمر كما يصفون ، لما خفيت الصحف له ، ولما اكْتُتِمَتْ الدراسة عليه ، ولما كان يطيق سترها عن أهله ولا حجابها دون قومه . وكيف تؤمن القلوب وتقر العقول أن رجلاً كبيراً حمل علماً كثيراً وحكماً

جماً : من آيات متشابهة وسور متوالية وهو صاحب أسفار مترامية وأخو حرب دائمة لا يبطىء لفظه ولا يسقط حفظه لولا أن الله عز وجل كفاه أن يحرك به لسانه ، وضمن له جمعه وقرآنه ، فقال عز وجل : سنقرئك فلا تنسى [1] . فلم يكن يسقط واواً ولا ألفاً ، ولا ينسى كلمة ولا حرفاً ، وما أبين هذا وأعجبه ، وأعجب منه المنكر اه .

وأما قولهم في الخط وأكثارهم في الكتاب ، فإن الله عز وجل جعله أمياً ليثبت حجته ويصدق مقالته ولئلا يشك المبطلون في أمره ويقولون : تعلمه من غيره ، فإنه قد قال ذلك بطائن من منافقة العرب وطوائف من كفرة العجم ، فنطقت به الأعداء من جيرته والحسدة من عشيرته ، الذين بلغوا ما بلغوا من مجادلة حقه ومخاصمة ربه ، كفاة لمن قرُب ، ووكلاء لمن بعد ، فيما لم يكن العرب واقعة عليه ولا الأمم مهتدية اليه ، لأنهم قد أحاطوا من علم خبره وخفي أثره ، بما كان عن غيرهم محتجباً ومن سواهم مكتتماً . وقالوا : لو كان محمد ﷺ يتعلم من بشر أو يختلف إلى أحد لما خفي عنا ولسقط علينا . وحقاً لو كان محمد ﷺ يختلف إلى أحد صغيراً ، أو يتعلم من بشر كبيراً ، لعرف ذلك أترابه المختلفون معه ورفقاؤه والمقتدون ، ولما جهل ذلك من حوله من جيرته نصرة ، ولا من معه من أهل بيته دنية ، الذين عليهم يورد ، ومن قبلهم يصدر ، ولكان شائعاً عند حشم معلمه ، وجيرة موضعه الذين كان يختلف إليهم ، ويتأدب بين ظهرانيهم ، ولو كانوا بذلك عالمين ، أو فيه من أمره شاكين ، ثم بلغهم وتقرر قبلهم إنه يقول : إن الله عز وجل أوحى اليه ، فيما أنزل من الكتاب اليه : وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون [2] . لخاصمه منهم من كفر ولكفر به من آمن ثم يدعي ذلك قرآناً وينتحله وحياً ؛ إما كان يرهب أن ينتشر في الأقربين ، ويخرج إلى الأبعدين ، فتبطل حجته وتنتقض دعوته وتسقط نبوته وينفر أصحابه الذين لم يعبّروا معه في المجاهدة أنفسهم ، ويبذلوا عند الشدائد مهجهم ، وينفقوا فيه على الحاجة أموالهم ، مناصبين لأهل الشرق والغرب والعجم وكل الأمم ، وهم قليلون مستضعفون عائلون جائعون ، لا طلباً لدنيا ولا طمعاً في مال ، إلا لما تعقبوا من قوله ، وعرفوا من صدقه ، ولولا إنه أخبرهم ووعدهم أن يغلب كسرى وقيصرهم فصدقوا قوله

(١) سورة الأعلى : الآية ٦ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٤٨ .

وآمنوا بوعده ، حتى قويت البصائر وصرمت العزائم وقويت النيات فنشطت النفوس وشجعت القلوب وحملت الأبدان ، لما وقع لهم طمع فيه ، ولا ذهب لهم وهل إليه . فكن من ذلك على يقين لا يخلجه شك ، ومعرفة لا يخلطها ريب إن شاء الله .

ومن ذلك أنه إذا قال المسلمون : ما من فعال محمود ولا مقال معروف ولا خلق كريم ولا أدب فاضل ، إلا وقد أدب الله عز وجل به محمداً ﷺ ، وأنزله في الكتاب إليه ، فكان يأمر بالمكارم ويحض على المحامد ويعمل التي ليس فيها مدخل لشبهة طاعن ، ولا معلق لحجة قائل ، ولا مغمز لبصيرة عائب ، ولا موضع لخصومة بشر ، وفي وعد أو عهد أو حل أو عقد أو مقال أو فعال ، أو غير ذلك من الأمور . قالوا ، أمور حمل عليها نفسه ، ودعاه إليها عقله وصبر عليها ، لما أمل ورجا فيها ، سبحان الله ! وما أمَّل بها وارتجى منها ؟ أن قالوا : الدنيا ، فلقد اكذبهم إدباره عنها ، حيث أمكنته القدرة منها وأعثرته الحال عليها . وان قالوا : حب الأثرة ، فقد جعل نفسه للمسلمين أسوة في سهامهم وقصاصهم وحدودهم وحقوقهم وغير ذلك من أمورهم . وإن قالوا : الملك ، فقد كان أشد الناس لربه تواضعاً ، وأعظمهم في جنبه تصاغراً ، ما أن أكل متكئاً قط إلا مرة ، ثم قعد كهيئة الفزع لها النادم عليها فقال : اللهم إني عبدك ورسولك . وإن قالوا النعيم ؛ فمن كان أيبس منه معاشاً ، وأخشن رياشاً وأغلظ مأكلاً ، وكيف يذوق العيش أو يجد لذة النعيم من حرم السكر والخمر ونهى عن الديباج والقز ، وكان أكثر دهره صائماً وأطول ليله قائماً ، فإن قالوا : طلب الصوت [1] ورغب في الدين ، فذلك ما لم يطلبه أحد في حب الصوت والتماس الحمد لما جرَّ مغاضب قومه وملاوم أهله ، وشتائم العرب وتوعد العجم ، واستهزاء قريش يرمونه بالعفوق ويقذفونه بالجنون ويبهتونه بالسحر ، وليس يدري ما يهجم به الأمر [2] .

أم يقولون طلب تأثيل الملك لقومه وأراد توطئة الولاية لأقاربه ، فكيف يطلب لقومه ما قد زهد فيه لنفسه ؟ أم كيف يطلب لهم عز الملك وقد أوطأهم الذل ثم القتل ! لعمر الله أن لو أراد الملك لأقاربه ، وأراد طلب السلطان لذوي رحمه ،

---

(١) الصوت : مثل الصيت الذكر الحسن .

(٢) العبارة من الاصل مضطربة غير مفهومة .

لوكد لهم عقداً لا يحل ، ولأبرم لهم امـراً لا ينقضي ، ولأثل لهم في عنفوان أمره ملكاً لا يخرج من أيديهم ، ولا يبرح ابداً فيهم ، امتثالاً لصنيعكم واحتذاء على مثالكم ، مع أقاويل جمة ونظائر كثيرة ، لا يستقيم لهم معها أن يقولوا أن محمـداً ﷺ غلـب العرب وقهر العجم ، أو قال في أمر السلطان والنجوم بكذب .

فإن قلتم : إن محمداً ﷺ كان في قوة عقله وبيان فضله ، على ما قلنا وقلتم وصدقنا به نحن وأنتم ، ولكن هَفت العلماء وزلت الحكماء واخطأت القلوب . فقد يعلم أمير المؤمنين ـ وأنتم بذلك من العالمين ـ أن خطأ قلوب العلماء ، كخطأ دائرة الرحا ، وليست العلماء بمخطئة إلا المرة أو الثنتين ، كما لا تخطيء الرحا إلا الحبـة والحبتين ، ومثل الذي نسبتم إلى النبي ﷺ من الخطأ عندكم والجهل في أنفسكم ، كثير لا يحصيه أحد ، ولا يبلغه عدد ، وأمير المؤمنين واصف بعضه لكم ، ومورد ما حضر كتابه إن شاء الله لكم . وأيم الله على ذلك لو قالت العلماء من المسلمين : هبوا محمداً ﷺ كان في أمر النجوم من المخطئين ، فكيف اخطأت العرب وهفت الأمم في ترك مجادلته ورفض منازعته وكيف لم تقـل العلماء من إفنانـه [1] ، والحـكماء من حكمائهم ، توبيخاً منهم له ، وتعييراً لمن آمن معه : هذا أمر من أوضح الأكاذيب وأبطل الأباطيل ، فلا يثبت مع قولهم إيمان ، ولا يقيم على شرحهم إنسـان . فإن قلت : فلعل ذلك قد كان ، ولكنه درج على طول الازمان ، فكيف إذا صدقـت العرب بنبوته ولم تكفر القبائل برسالته ، وهم يسمعون كذباً لا ينفع معه صدق كان قبله ، وباطلاً لا يعصـم معـه حق حدث بعـده . وإن قلتـم : أدخلهـم بالقهـر وضبطهم بالقتل وأكرههم بالسيف ، فما بال القليل من المسلمـين الـذين قهرهـم الكثير من المشركين ، ما بالهم آمنوا وصدقوا وصبروا وصابروا ، وجدوا وجاهدوا كيف لم تتكسـر عزائمهم وتهن بصائرهم ، ويرجعوا إلى دينهـم ويهربـوا من توحيدهم ؟ كلا . لو كان الأمر على ما تقول لا رفض القوم عن الرسول ، ولكان ﷺ أول مقتول أو مخذول . فأحسـن النظـر فيما تذهـب الأهـواء برأيك إليه من آيات النبـي ﷺ ، وإن جمحـت الدعـوى بكم ، فقائل : قـد مالـت به الأهـواء في الباطل ، فقال : انه لا يكن الأنبياء ذكرت النجوم في صحفها بنيت الحكماء منها ذكراً في كتبها ، فجعلت المنقض من الكواكب بين الأعوام ، دليلاً على أمر يحدث تلك الأيام ، ولا ما هذا

---

(١) كذا في الأصل .

الاختلاق يلط به الجاهل للفساق [1] . وما أن وضعت الحكماء ذلك في الكتب إلا ليالي ملئت السماء من الشهب ، وبالله لو ادعيتم غير ذلك فكان حقاً ، وكانت القالة منكم صدقاً ، لما كانت الدعوى بناقضة لآية النجوم حجة ، ولا من خلة على أحد فيها شبهة ، لأن رمياً يقع فرط السنين من الكواكب لا يبطل رجماً قد ملأ السماء من كل جانب . ثم لو لم تكن النجوم آية دافعة وحجة بالغة ودلالة قاهرة وعلامة باهرة وامارة ظاهرة وشهادة قاطعة وبينة عادلة وداعية قائمة تبطل أظانين المشركين وتردع أقاويل المنافقين لما كان النبي ﷺ ليعظم أمرها ، ولا ليكرر في آي القرآن ذكرها ، رهبة لمناهضة أحياء العرب ، ومعرفة بمجادلة إخوان الكتب ، الذين لو وجدوا فيما كتب إليك أمير المؤمنين من أمر النجوم واحتج به [عليك] من ذكر الرجوم ، موقعاً لظن أو معلماً لطعن أو مغمزا لقول ، لناصبوه إذاً بالمجادلة ، وكاشفوه بالمنازعة ، وجاهروه بالقول الذي لا يستطيع له رداً . ولا يطيق له جحداً ، ولكنها آية ملأت الأقطار كثرة ، وحسرت الأبصار قوة ، قد وجلت العقول وولهت القلوب وملأت النفوس جزعاً ووجعاً وفزعاً شغلهم عن الأولاد وأذهلهم عن البلاد ، حتى بلغ أمير المؤمنين وتقرر عند فقهاء المسلمين أن الله عز وجل ، لما ملأ السماء حرساً وأحدث لها رصداً وخلق فيها شهباً ، ذكرت العقلاء من العرب ، وقعات الله عز وجل في الكتب بقوم نوح وعاد وثمود وأشباههم من مؤلفي تلك الجنود ، الذين كانوا أشد بطشاً وأكثر جمعاً ، فانفرجت أيديهم عن كرائم أموالهم ، وراسلت أنفسهم متائن عقدهم ، وإن أهل الطائف لما فعلوا ذلك بأموالهم وأجمعوا فيه الخروج الى فقرائهم قام فيهم رجل ذو سن وعقل فقال : يا معشر العرب ، لا تهلكوا أنفسكم قبل أن تهلكوا ولا تخرجوا من أموالكم قبل أن تخرجوا ، تفقدوا مواقع نجوم السماء ، وكواكب بدور الدجى فإن كانت النجوم التي حدث الرمي بها والنجوم التي أخليتم الأموال لها ، هي بروج الشمس والقمر ومساب [2] الحيوان والشجر ، فهي حوائج الاستئصال ، المتلفة الانفس والأموال ، وان كانت النجوم التي حدث القذف بها إنما هي نجوم خلت اليوم فليست المعرفة بواقعة على مبتداها ، ولا الأبصار بلاحقة منتهاها ، فأمسكوا العقد عليكم والأموال ، فإنه أمر يحدث في إحدى هذه الليال .

(١) كذا في الاصل .

(٢) كذا في الاصل .

فإن قلت : وكيف وقعت الأمور في هذا الرجل كالعيان ، وصارت المقالة منه كوعي الآذان ، أنبأك أمير المؤمنين أن أوعية الفقه من المسلمين الذين حملواالينا سنن الدين ، هم أدوا ذلك الينا ، وأبقوه فخراً . . . [1] علينا ، فما أن ينفك منهم مفتخر يقول : أبونا الذي حبس على العرب الأموال والعقد ، فما أن يدفع القول في ذلك منا أحد . هيهات ! ما كانت العرب لتقر عند الفخار ، إلا بطَـوْلٍ هو أبين فيها من ضوء النهار ، فافهم ما كتب به أمير المؤمنين في هذا إليك ، ولا يكن التملل فيها بالشبهات أوثق ما لديك ، فإنه قل حجة إلا وإلى جنبها شبهة تخيل للعقول ، وتعرض للقلوب ، وتجلجل في الصدور ، فلا يثبت مع تخيلها ولا يقيم لتعرضها بشر إلا من وزن الحق والباطل بميزان عادل ، لا يميل الى تفريط ، ولا ينحط في تقصير ، وقد جعل الله عز العقول موازيين للأمور ، فزنوا ما سمعتم من حجج كلام الرب عز وجل بما تنفون به الشبهة عن الحق ، ولا تميلوا اللسان فتخسروا الميزان . وسيعلل أمير المؤمنين إن شاء الله بما جاء عن ذكر ما كتب به إليكم من أمر النجوم والرجوم والشهب في القرآن والرواية والكتب ، فألطفوا النظر في صحة معانيه ونحوا الهدى عن شبهة ما وقعت فيه . قال : الله عز وجل : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين [2] . وقال : ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم [3] . وقال : إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد [4] . وإن شطب عن الحق شاطب ، أو ذهب الى الباطل ذاهب لا يعرف مذاهب كلام العرب ولا وجوه معاني الكتب ولا تفسير آي القرآن ، فقال : إنما جعلت الكواكب والمصابيح حفظاً من الله عز وجل للسماء ورجوماً للشياطين من قبل أن يبعث الله محمداً ﷺ بالدين ، فإن في آيات القرآن ما فيه بيان مما يبطل دعواه التي لا بينة عليها ، ويكذب مقالته التي لا شهود لها . فقالت الجن ـ فجعل الله تبارك وتعالى قولها وحياً ـ وبه منها صدقاً : وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً [5] . ألا ترون انها كانت الجن

---

(١) بياض بالاصل .

(٢) سورة الملك : الاية ٥ .

(٣) سورة الحجر : الاية ١٦ .

(٤) سورة الصافات : الاية ٦ .

(٥) سورة الجن ، الاية ٨ .

لمست السماء فلم تجدها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وقعدت الشياطين منها مقاعد للسمع فلم تجد شهباً ولا رصداً ، أولا يسمعون الى ما يحقق ذلك ويسدده ويصدقه ويشهد له من قول الله تعالى : هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون [1] . مع قول الجن أيام حرست السماء ورميت الشياطين : وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً [2] فإذا أعملتم في ذلك فكركم وقلبتم فيه نظركم فكنتم على برهان يقين ونور مستبين ، من استطاعة الجن للاستماع ، وقدرة الشياطين على الاستراق ، وإمكان السماء للقعود في تلك الحال الأولى ، ففكروا في الحال الأخرى حيث حرست الآيات أن تعارض باطلاً بحق ، ومُنعت الشياطين أن تنزل بصدق ، وامتنعت السماء أن يصعد إليها شيطان ، فقال الله عز وجل : وما تنزلت به الشياطين وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون [3] . قالت الجن : وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً [4] . ان في قولهم الآن لأعظم نور وبيان ، وأبين من ذلك لكم وأصح لمن عقل إن شاء الله منكم ، أخبارُ الله عز وجل حين جُعلت الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد إنهم : لا يسمعون الى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب [5] . مع اخباره في الحال الأولى إنهم يسمعون ويقعدون وينزلون ويستطيعون ويتلون على ملك سليمان . فكن لهذا من الحافظين وفيه من المفكرين .

ومن آيات النبي ﷺ أنه لما نفرت القبائل من أعلام الشرك بجموعها ، وتداعت القادة من صناديد الكفر بأتباعها حذراً على عير لها أقبلت من الشام بصنوف رغائب أموال عظام ، فكانت العير والنفير طائفتين : طائفة ذات عدة كثيرة وشوكة شديدة ، وطائفة ذات أموال رغيبة ورجال قليلة وفرصة ممكنة . أخرج الله عز وجل نبيه ﷺ ووعده ومن معه من المسلمين إحداهما ، فكره المؤمنون جموع المشركين ، وأراد الله أن يقطع دابر الكافرين ويشيد بذلك أركان الدين ، فلما تراءت الفئتان

---

(1) سورة الشعراء ، الآيتان ٢٢١ _ ٢٢٢ .
(2) سورة الجن ، الآية ١٠ .
(3) سورة الشعراء ، الآية ١١٠ .
(4) سورة الجن ، الآية ٩ .
(5) سورة الصافات ، الآية ٨ .

وتناوشت الفرسان وتلاقى الناس ، وقبل ذلك ما قال الله عز وجل : سيهزم الجمع ويولون الدبر (١) ، قبض النبيﷺ قبضة [من تراب] حثاها في وجوههم فلم يتناه دون مناخرهم وعيونهم ، فانصرفوا منهزمين بلا كثير قتال من المسلمين . يا أهل الكتاب : فأيما آية أعظم حجة وأوضح بينة وأقهر غلبة من هذه التي لو صدرت الأمور بلا تحقيق لها ، لانفضت الجموع من المسلمين كفاراً بها ، أبشارة الله المسلمين بإمداد الملائكة المقربين ، وهزيمة نفير المشركين التي نجمت الأمور عليها ، وتناهت الحال بهم إليها ، أم قبضة من تراب يسير ، ملأ المناخر من عدد كثير .

فإن قلتم : إن هذه آيات بينات وعلامات واضحات ولكنا [لا] نقر لكم بها ولا نؤمن بقولكم فيها . أفتؤمنون أن محمداًﷺ ، مع ما نسبتموه من الفضل إليه ، كان يختلقها كذباً من تلقاء نفسه ، ثم يدعيها وحياً من عند ربه ، وهو لا يدري لعل الأمور [تقع] بخلاف ما يقول ، فيظهر كذبه ويرفض تبعه ، وإن تزعم ان أصحابه كانوا كثيراً أقوياء ، نشاطاً جلداء ، فكان على معرفة بقوتهم ويقين من غلبتهم ، فقد قال الله عز وجل : وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (٢) . ولم يكن الرسول ولا غيره ليخبر اصحابه من أمورهم بما يجهلون من أنفسهم ، ثم يدعي ذلك تنزيلاً من ربهم ، هذا لا تقبله الآراء ، ولا تقر به الحكماء ، ولا يحده النظر .

أم تقولون : إنما اراد محمدﷺ ببشارته لهم وإخباره بما أخبرهم به من هزيمة الله عدوهم ان يشجع جبنهم ويقوي ضعفهم ، فكيف إذا لم يبق (٣) لما كان يرى من كثرة المشركين وقوتهم وضعف المسلمين وقلقهم ، بظهور الأنباء على خلاف قوله ،وأن يحتال (٣) الخبر على غير ظنه ، فيقع ظفر يكذب نبوته ويقطع حجته ويكون له ما بعده ! وكيف إذا لم ينسب الأمر إلى نفسه وينحى الخبر عن ربه ليكون الخطر أصغر والشأن أيسر ، إن جرت الأقدار بما يحذر ، أو وقعت الأمور على ما يكره ، ولكنه أثبته في كتاب مسطور ورق منشور . فعل لعمر الله يدل على النبوة التي كان بها واثقاً ويهدي إلى الوحي الذي كان إليه ساكناً .

---

(١) سورة القمر الاية ٤٠ .

(٢) سورة الانفال ، الاية ٥ ، وما بعدها .

(٣) هكذا في الاصل .

وإن عرض لنظرك ، أو وقع في خلدك أن الله عز وجل عود محمداً ﷺ الغلبة واجراه على المنعة ، فكان يجري على عادة قد عرفها ويسلك جادة قد خبرها ، فلقد كانت الهزيمة في أول وقعة أوقعها الله ، ثم لقد دالت الحرب فيما بعد سجالاً فيما بينه وبينهم ؛ تارة عليه لهم ، وأخرى لهم عليه . فناصحوا الله عز وجل في نظركم وقلبوا فيما يقول أمير المؤمنين فكركم . فلعمر الله ما كان النبي ﷺ ليقول للملوك المشركين : إن الله هزمكم برمية من تراب وهو يعلم أنه عنده من الكاذبين . فأحضر كتابي هذا فهمك واصبر له وإن خاصمك ، فإن هذه آية عظيمة وحجة بليغة وبينة عجيبة في غلبة العرب .

وأعجب من هذا وألطف ، وأكثر منها وأعظم ، الآية في غلبة العجم ، واستمع : أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للمؤمنين ـ وكانوا كما قال الله عز وجل قليلاً مستضعفين ـ : إن قبائل العرب ستحزب عليكم وإن الله سيهزمهم لكم ، وحياً أنزله في الكتاب فقال : جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب [1] . فكان أصحاب رسول الله ﷺ بعدما نزل هذا القول عليه بدهور طويلة وسنين كثيرة ، محبوسين محصورين في حومة الموت وعسكر الموت وعسكر الخوف وخندق القهر وذل الحصر ، سوادهم الأعم وجلهم الأعظم حفاة عراة عالة ، إخوان دبر وأصحاب وبر ، لا قوة بهم ، ولا منعة لهم ولا أسلحة عندهم ولا عدة معهم ، قد أحدقت العرب بعسكرهم وأحاطت القبائل بخندقهم ، وسالت الأحزاب تصديقاً لحتم الله عليهم ، تريد أن تزلزل أقدامهم وتريق دماءهم ، فكان المؤمنون ، كما وصف الله عز وجل ، من سوء الحال وضيق المآل وشدة الكظاظ ، فإن الله قد وصف لهم حالهم وأذكرهم فعلهم . ولم يكن النبي ﷺ ليصف لهم عن الله ما يجهلون ، ولا ليذكرهم من أمره ما لا يعرفون ، حذاراً أن تنكسر عزائمهم وتتغير بصائرهم ، فتنهزم أفئدتهم وتموت نجدتهم وتختلف كلمتهم . فقال الله عز وجل : إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً [2] . حتى قالت طائفة منهم لأهل المدينة : يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا [3] . وقالت طائفة أخرى : يا

---

(1) سورة ص : الاية ١١ .

(2) سورة الاحزاب ، الاية ١١ .

(3) سورة الاحزاب ، الاية ١٣ .

رسول الله إن بيوتنا عورة فأذن لنا . يقول الله تعالى : وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً [1] . فبيناهم على تلك الحال قد أجمعت العرب بتفريقهم في الجبال وتقسيمهم بالقداح ، وأخذهم بالأيدي ، إذ قال لهم الرسول ﷺ فيما ينبئهم به من علم الغيوب ويبشرهم به من أمر الفتوح : أن الله سينصركم على جميع الروم ، وسيغلب لكم جنود فارس فيهزم لكم جنودهم ويورثكم قصورهم ويستخلفكم في الأرض من بعدهم ، ويبدلكم من بعد خوفكم أمناً . وعداً صدقه الكتاب ، وبشارة نطق بها الوحي فقال : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً [2] . فقال أقوام وأناس ارتابوا حين تضايقت الحال وزلزلت الأقدام وطارت القلوب ودارت العيون وأشرف الموت : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . أيعدنا هزيمة جموع الأحزاب وفتح قصور الشام وغلبة جنود كسرى ، وقد سالت القبائل علينا من كل جانب ، وأحدق الموت بنا من كل مكان ، فبقينا في مسبغة من الجوع ومجهدة من الخوف ، وضنك من الحال مقهورين مقموعين . وقالت الخاصة من المؤمنين حين عاينوا الجموع من المشركين وذكروا ما خبرهم الله من تحزبهم عليهم ومسيرهم إليهم · هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً [3] . فبينا أصحاب النبي ﷺ في مضايق تلك الحال وشدة ذلك الخصال [النضال] وعموم تلك البلايا الباهظة والأمور الفادحة التي قد أخذ بأنفاسهم غمها ، وبلغ مجهودهم كربها ، رافعين إلى الله عز وجل أيديهم ، يقلبون في السماء أعينهم ، إذ أرسل الله على تلك الجنود الكثيفة والجموع العظيمة والأحزاب المقتدرة ريحاً من الأرض وجنوداً من السماء فقطعت الأبنية وطيرت الأمتعة وسفت التراب في العيون وقذفت الرعب في القلوب فولوا مدبرين وخرجوا منهزمين ، لا يلوي والد على ولد ، ولا مولود على أحد ، أمر صدق الله فيه قوله ، وأنجز به وعده وهزم الأحزاب وحده ، وذكر المؤمنين نعمته فيهم وعرفهم منته عليهم فقال : اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءوكم من فوقكم

---

(1) سورة الاحزاب ، الاية ١٣ .

(2) سورة النور ، الاية ٥٥ .

(3) سورة الاحزاب ، الاية ٢٢ .

ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا [1] ، وقال الله عز وجل : ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً [2] . ما كان الله عز وجل ليقتص على المسلمين في أنفسهم إلا ما قد رأوه بأعينهم .

لولا ان هذا ما لا ينكره عقلك ولا يدفعه نظرك لما جادلتك بالكتاب ولا نازعتك بالتنزيل ، وإني لأترك من آيات النبي ﷺ وعلامات الوحي ما هو أعظم من هذا وأبين وأجل وأوضح . ولكن ليس لي أن أحاجك من آيات القرآن إلا بما عليه شاهد من برهان ومخبر من بيان لا يستطيع عقلك رداً له ، ولا قلبك جحداً له . وكيف ينبسط لسانك أو يجترىء قلبك أن يقول : إن محمداً ﷺ أخبر أصحابه بالكذب وهم يعلمون ، فاقتص عليهم من أمورهم ما لا يعرفون لا ، ما يسوغ لك ولا يجمل بك ، ولا يقبل منك أن محمداً ﷺ بقوله من تلقاء نفسه ، كيف ! أما كان يخاف أن يكذبه أصحابه وتنتقل أحواله وتنتقض أموره ؟ لعمر الله لو وصفت بهذا من لا يعرف بفضل ولا ينسب إلى عقل لما كان سائغاً لك ولا جائزاً منك ، فكيف تصف به من يرفع عن الناس قدره ، ويفضل عليهم عقله ، وتقر أنك لم تر في الدنيا احداً صنع (ما صنع) وبلغ ما بلغ . فأيما آية فيما اقتص عليك امير المؤمنين أعظم أو بينة أعجب ؟ أما كان يتلى على المؤمنين في الكتاب من اجتماع قبائل الأحزاب بجنود عظيمة قبل اجتماعهم بسنين كثيرة ، أم ما كان ينادي به القرآن من الهزيمة لهم وينطق به الوحي من الفتح عليهم ، أم قول النبي ﷺ لأصحابه : إن الله عز وجل يؤمّن خوفكم ويعز نصركم على الأمم ، وهو على تلك الحال ثم نجمت الأمور على ما قال ، أم عسكران مطابقان وجيشان متقابلان ، باتت الريح تحوس [3] أحدهما حتى انهزموا ، وبات الأخرون منها في عافية وغفلة حتى أصبحوا ؟ فأحسن النظر في أمرك والتثبت في دينك إن شاء الله .

واعلم أن من أعظم الآيات وأبين الدلالات على نبوة محمد ﷺ وحقه وأن ليس يتقول شيئاً من تلقاء نفسه أنه قال في عنفوان أمره : إن الله عز وجل سيظهر ديني على الدين كله . وجاء مع ذلك بأثرة عن ربه في كتاب مخطوط وتنزيل محفوظ ، فأي أمريه

---

(١) سورة الاحزاب ، الاية ١٠ .

(٢) سورة الاحزاب ، الاية ٢٥ .

(٣) تحوس : تغشى .

لك أدل أو أيهما عندك أعجب ، إن كنت بنبوته مصدقاً ولرسالته محققا ؛ الخبر الذي أخبره أم الفعل الذي صدقه ؛ لئن نظرت بعقلك وقلت في نفسك ، كيف ترقت إلى هذا نيته وارتفعت نحوه همته ، أم كيف امتدت إليه فطنته وقويت عليه رويته ، بل كيف دعته إليه نفسه وشجعه عليه قلبه ودخل فيه مطعمه وطاوعه فيه لسانه وهو يذكر جنود كسرى وجموع الروم وملوك الترك وملوك الشرك ، وقيول اليمن وصناديد الأمم ؟ إن هذا لعجب ولا سيما إذا لم يكن في إرث ملك قاهر ولا كنف عز غالب ولا معدن علم سالف .

ولئن أعدت النظر وكررت فقلت : كيف وافق خبره أثره ، وكيف صدق فعله قوله حتى غلب الشرق والغرب ؟ إن هذا لعجب ! وأعجب من هذا أمر يدلك أمير المؤمنين عليه ويهديك إن شاء الله إليه : لو قلتُ لأهل مملكتك ومن قبلك من أمتك : هل بلغكم أو تقرر قبلكم أنه كان في الدهر الأول والعصر الخالي أحد مثل محمد ـ ﷺ ـ بدأت الأمور به مثل حاله من الوحدة والضعف والذلة والقلة وصدرت الحال به كفعاله في الغلبة والمنعة والقهر والظهور وغير ذلك ؟ لقالوا : لا .

ثم أنت لا تؤمن بمقالته ولا تقر برسالته ، إلفاً لدينك وضناً بملكك وطمعاً في قليل من الدنيا قد نعاه الله إليك ، ورغبة في صبابة عيش غير باقية في يديك ، فهذا عجب ، وأعجب من هذا أمر يقصه أمير المؤمنين على نور حقه ويوضح لك إن شاء الله بيان أمره : أصبحت العرب طراً والأمم جميعاً في محمد ﷺ ثلاثة لا رابع لهم ولا مخرج للحق من بينهم : رجل مصدق به من المؤمنين ، ورجل مكذب به من الكافرين ، ورجل شاك فيه من المنافقين .

فأما الشاك فلما قيل له : أخرجت نفسك من الحق وأبرأتها من الصواب وأقررت عليها بالخطأ ، لقولك : لا بد أن يكون الحق في التصديق أو التكذيب ، ولست على واحد منهما ، اعتزل عنها .

وأما المكذب فلما قيل له : أنت منكر ، والمنكر ليس بمدع ، ومن لم يدع لم يلزمه بينة ولا يسأل عن حجة ، اتبع صاحبه . وأيم الله على ذلك ، لو سئل هذا المدعي عن بنيته وكشفت حجته فقيل له : من أين عرف قلبك وأيقنت نفسك إيقاناً لا يخالجه شك ، ومعرفة لا يشوبها ريب ولا ينازعها شبهة ، إن محمداً ﷺ ليس برسول ، لما دري ما يقول ، لأنه لا يستطيع أن يتقول على الرسل ، ولا أن يتكذب

على الكتب فيقول : قد أخبر الله فيها إنه لا يبعث نبياً ولا ينزل وحياً في كتاب مسطور بعد التوراة والانجيل والزبور . بل قد يجد أهل الكتاب في أقاويل رسلهم وأخابير كتبهم أن الله تبارك وتعالى ينزل كتاباً جديداً أو كلاماً حديثاً بعد خراب بيت المقدس في آخر الزمان ، ولم ينزل بعد ذلك كتاباً إلا القرآن .

وأما الرجل المصدق بمحمد ﷺ فقيل له : أما أنت فقد ادعيت ، والمدعي يسأل عن الحجة ويقبل منه البينة فما بينتك ومن يشهد لك ؟ فقال : ألم تقولوا : إن الحق لا يخرج من بيننا ، ولا بد أن يكون مع بعضنا ؟ فالوا : بلى ؟ قال : فأية بينة أحق وأعدل وأي شهود أزكى وأفضل من شهادتكم بسقوط صاحبيّ وثبوت الحق من بعدهما في يديّ ؟ قالوا : إن الأمر لكما تقول ، ولكن البينة أشفى للصدور ، فأقام بينة من الكتاب وشهوداً من الوحي وآيات سوى ذلك عظاماً وبينات عوامّ من كلام لا يقدر عليه الخلق ، وصدق لا يكون إلا من قبل الرب ، شبيهاً بما أورده أمير المؤمنين عليكم وكتب به في صدر كتابه هذا إليكم ، مما قد تشهد له قلوب الأمم ويزكيه فعال العرب .

فلما أقام بينته ، وثبتت حجته ووجب حقه وقضى له به ، وقيل له : وكيف توسعت الأمور عليك وضاقت المقالة لك أن تقول : ان الله لا يبعث نبياً بعد محمد ـ ﷺ ـ ولا وحياً ينزل غير القرآن ، ولم يجز للنصارى أن تقول : لا نبي بعد عيسى عليه السلام ، ولا كتاب خلف الإنجيل ، وعن ذلك من أخبار الكتب ما قلنا كل متنبىء بعد نبينا كذاب ، فشاعت وجازت الحجة ووضح العذر . وأما النصارى فيجدون في أواخر كتبهم وأقاويل رسلهم أن الله عز وجل يبعث نبياً حديثاً وينزل كتاباً جديداً ، فليس لهم أن يكذبوا نبينا ـ ﷺ ـ ولا أن يردوا كتابنا .

فهؤلاء الثلاثة : أما الشاك فسقط وأما المنكر فبطل ، وأما المصدق فثبت ثبوتاً ليس فيه مدخل شبهة ولا موضع لحجة ، ولا معلق لمنازعة . وذلك أن المنكر لوجوب حقه ، والشاك في ثبوت صدقه لا يجد بداً من أن ينحي الصدق عن الخلق ، ويخلي الدنيا من الحق ، وهذا قول المكذبين بربهم ، الشاكين في بعثهم ، فأحسن النظر في معانيه ينكشف لك عما فيه إن شاء الله .

ومن أبين آياته وأدل علاماته ـ ﷺ ، ووسع له فيما صدر إليه ، أنه لما أخبرت اليهود والنصارى أنهم لم يجدوا محمداً ـ ﷺ ، في التوراة والأنجيل موصوفاً

مكتوباً ، تجمعت العلماء منهم وتدارست الكتب فيما بينهم ، فلما نظروا الى اسمه وعاينوه بنعته ، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويستفتحون بذكره على من سواهم (كفرت) طائفة حسداً من عند أنفسها وجحداً من بعدما تبين لها ، وآمنت طائفة تصديقاً بكتابها ، وخوفاً من ربها .

فلعمر الله لو (لا) أن الذين آمنوا بحقه وصدقوا بأمره رأوا صفته عياناً وقبلوا نعته ايقاناً لما فارقوا أديانهم ولا جادلوا إخوانهم حتى وقفوهم على اسمه ونسبه وصفته وعلامته وهم علماء بني إسرائيل وحملة الإنجيل : من أهل الكتاب الذين احتج الله عز وجل بهم على العرب فقال عز وجل : أَوَلم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل [1] . ولعمر الله إنها لآية عظيمة وحجة بليغة ذكرها الله في كتابه وجعلها على العرب من بيناته فقال لهم : قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً [2] .

يقولون : وعدنا أن يرسل رسولاً أرسله وحقق قوله وصدق وعده ، واحتج النبي ﷺ بذلك وذكره ، ولم يكن النبي ﷺ ليجادل ويحتج في أمرهم بكذب وباطل ، ولم يكن ليقول للنصارى واليهود فيما ذكر الله من صدق الموعود : أنه في التوراة والأنجيل مكتوب موجود ، الا وهو من ذلك على حق يقين ونور مستبين . وكيف كان يستشهد من التوراة والأنجيل بكذب ويتقول عليهم الباطل ، مع حرصه على تصديق أهل الكتاب ليستدعي به إيمان أحياء العرب . أما كان يعلم أنه إذا قال لهم : إنه موجود في مثاني كتبهم وسمي على أفواه رسلهم ، فلم يجدوا خبره يقيناً ولا وصفه مستبيناً إنهم سيدبرون عنه إدباراً تزداد به العرب نفاراً ، إلا أن يقولوا خطأ من علمه ، وهواه من خبره ، فكيف لم يخط إذاً في كتبهم حرفاً لغيره ، ولم يخالف منها شيئاً سواه . سبحان الله ! لقد أكثر المؤمنون العجب من ذهاب الأساقفة بكم . فأنتم ، أن تنكر ما يقولون لكم ، مما ليس لذي لب أن يأذن له أن يؤمن به ولا أن ينبذ اليه سمعه . يقولون : إن أنبياء الله ورسله المبعوثين بالرحمة إلى خلقه ، لطفت النبوة منهم ، ووقعت الأخبار المنزلة عليهم على صغائر الأمور وغوامض الخطوب ،

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٣ .

(٢) سورة الاسراء ، الآية ١٠٧ .

فسار الناس عليها وأشاروا لهم إلى طلبها ، فهي مكرمة في مثاني كتبهم ويطون صحفهم وأقاويل رسلهم ، وتركوا من كلام الله النبأ العظيم والأمر الكبير والذكر الحكيم الذي ملك آفاق الأرضين واستفاض على جميع العالمين . لم يذكروه بخير يأتمرون به ولا بشر ينتهون عنه . كلا ؟ ما ترك الله على هذا خلقه ، ولا بهذا وصف تبارك وتعالى نفسه . إنه لأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين .

ولئن رجعت الى قلبك لتقولن في نفسك : لعمر الله لو كان هذا الأمر الذي طلع طلوع الشمس وامتد امتداد النهار فبلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وسهول الآفاق وحزونتها ، حقاً وصدقاً وعدلاً ، لبشرت الكتب به وتنبأت الرسل عليه ، ودعت النذر إليه ، تزييناً له وترغيباً فيه ، وأمراً به ، ولو كان ضلالة وجهالة وعماية لتقدموا في التحذير منه والتزهيد فيه والتثبيط عنه ، فيدعو ذلك إلى أن تنظروا إلى كتب الأنبياء وأقاويل الرسل . فأيم الله لئن طلبت لتجدن ، ولئن اجتهدت لتوفقن ، وما الصواب بممنوع ولا الخير بمحظور . ولقد كانت العلماء بالكتب والبصراء بالتأويل تجده ، ولكنها كانت تكتمه بتحريف كلام الكتب عن مواضعه ، وصرف تأويل الحكم إلى أشباهه ، حسداً من عند أنفسهم وبغياً بعد ما تبين لهم . ثم لقد اقتديتم بهم وجريتم معهم وأخذتم عنهم بلا حجة لكم ولا قوة معكم إلا الاقتداء بالآباء والإتباع للآثار . فاتق الله في نفسك واتهم الرجال على دينك ، ولا تجعل النظر إلى غيرك من ذوي الشك في القلوب والفسخ في [1] . . . والتهم في التعطيل الذين لعلهم يعرض لآرائهم ويقع في أوهامهم أن يقولوا : فلعل ما يتلو عليكم أمير المؤمنين من آيات القرآن ويفرع لكم من حجج الوحي شيء زيد في المصاحف بعد النبي ﷺ ، وهذا ما لا يحتمله عقل صحيح ولا نظر قوي ، وذاك الشاك في شهادات الرجال ، متفقة من بلدان وأمصار مختلفة وشعوب وقبائل متفرقة ، ليس يدعوهم إلى ما شهدوا دين ، ولا يحملهم على ما اتفقوا عليه دنيا ، لا يستقيم له أن يؤمن بما لم تدركه جوارحه وتحيط به حواسه لإسقاطه حجة الإجماع وإبطاله شهادة العوام . واتفاق المختلفين دلالة واضحة ، فهو سائلكم عن الحجة في الإنجيل والبينة على التوراة شكاً في الرب وتكذيباً للرسل ، فما كنت قائله له أو مجيبه في كتابكم ، فأجبه بمثله في كتابنا وإن كانت الأحوال منها غير معتدلة ولا

---

(١) كذا في الاصل .

مؤتلفة ولا مرتفعة ولا واحدة تعتدل حالاهما ويتفق أمرهما من كتابكم ما لم تنزل به الملائكة وحياً كالقرآن ولم يشافه المسيح به أصحابه باللسان ، إنما كان فعلاً أثبت من بعده ، ولم يكن الفعال موضوعاً بعده . وليس يكتب أمير المؤمنين بهذا إليكم شكاً فيه ولا يورده عليكم مرية به .

ولقد علم أمير المؤمنين أن كتب الله عز وجل محفوظة ، وأن حججه مخزونة ، لا يزاد فيها على تقادم عهد ، ولا ينتقص منها على تقارب دهر ، وان ذلك ثبت في الإنجيل من بعد عيسى عليه السلام ، وأنه قال لمن اجتمع إليه من الحواريين : بالوحي اكلمكم ، والأمثال أضرب لكم . فأمثاله المضروبة كلام وكلامه الرائع وحي . ولكن ما بال الشك ينفي عن كتابكم بحجة الاجتماع عليه عندكم ، وهوعلى ما وصف أمير المؤمنين لكم ، وسيان في تنزيل كتابنا ، وقد أدرك شهادة دينه ، أما ما قربا من عهده ومعانيه وحيه واجتماع على حفظه وهذا حكم مختلف .

فقل للذين يشكون فيه ويرتابون به : أوقعوا أوهامكم على حالات الأوقات التي تعرفون وموبها [1] بطبقات الرجال الذين يتهمون .

فإن قالوا : أما طبقات الرجال التابعين وحالات زمان أمير المؤمنين ، فذلك ما لا يسوغ الأقاويل فيه ، ولا تدخل الشبهة عليه ، لانتشار القرآن وامتداد الزمان وكثرة الحملة لآياته فيهم ، والحفظة للسانه منهم ، ولكن الدين الذي نزل به القرآن ، وقبض النبي ﷺ بين أظهرهم ، وكيف بوقوع تهمة أو دخول شبهة على أقوام [لبث] النبي ﷺ عشرين حجة فيهم يتلو كتاب الله عز وجل في كل عام عليهم حتى حملوه في صدورهم وحفظوه في قلوبهم ، وكرر في آذانهم مسموعاً ، وأمرّ على أبصارهم مكتوباً وجرى على ألسنتهم متلواً ، وجمعه كثير منهم محفوظاً . ثم توارثوه فيهم وتداولوه فيما بينهم حتى أدوه الينا وأوفوا به عندنا ، من مواضع متفاوتة وأصناف وأجناس متباينة على كلمة واحدة .

فإن قالوا : اتفقت الرجال على الزيادة فيه ، وأمكنت الحالُ من الحمل عليه ، فليعلموا أن المؤمنين المخلصين ليسوا في الزيادة متهمين ، وأن المنافقين الملحدين ليسوا على ذلك بقادرين ، وكيف يقدر القليل من المنافقين على مخالفة الجمع من

(١) كذا بالاصل .

المؤمنين ، بعدما حفظته قلوبهم ووعته أسماعهم ، ثم تكتتم القدرة لهم وتستتر الزيادة منهم ! هذا ما لا يقدر عليه منافق ولا يطيقه مشرك ولا فاسق . وايم الله أن لو قدرت اليهود على الزيادة في الإنجيل لأفسدوا كتابكم وغيروا دينكم ولو جعل الله المنافقين على الزيادة في كتابه قادرين لبدلوا ديننا وغيروا حالنا ، ولو كانوا لذلك مقرنين وعلى ذلك مقتدرين لكان الذي كتب به أمير المؤمنين إليكم وأورده من حجج الله عليكم ، أولى ما تلقون ورأس ما تقترفون ، فلا تلقين إلى ما قاله [المضل] سمعك ، ولا تُنصت الدهر إليه ذهنك ، فإنه اتخذ الشك في كتابنا ذريعة إلى الإخلال بكتابك ، وسلماً إلى الشك في دينك وعلة في الطعن على ملتك . ولكن قل يا ولي الشيطان : إني وقع لك إيمان بأنك من ولد فلان ؟ أتقول : شهدت الجيرة واجتمعت العشيرة واتفق المختلفون ، فذهب الشك وزال الريب ووقع الإيقان من غير العيان ؟ صدقت . فما بال الشك فيما اجتمعت العامة على القول به واتفقت الجماعة في الشهادة عليه من آيات الكتب وبينات الرسل ! وإن ذهب بهذا عن أمره ، وباعده عن شبهة ، فتؤمن أنه من نطفة خلق ومن رحم خرج ، فإن جحد وأبى ألا يؤمن بما يرى ، فقل : أرأيت لو كنت سميعاً أعمى ، أكنت تؤمن بشيء مما في الدنيا : من سماء أو هواء أو بحر أو سبع أو أرض أو جبل أو شبه ذلك مما لم يدركه العيان ولم يقبله إلا عن الناس ؟ فإن قال نعم فقل : فهل لك إلا بالاجتماع الكفر بالرب ، وما لدائه دواء غير الصلب . فاتق الله إذ كنت إماماً وقائداً لأهل ملكك لا تقدهم إلى النار فتحمل أوزارهم مع وزرك .

فإن من أبين آيات الوحي وأدل علامات النبيﷺ أنه لا يبتدع في الدين أمراً من تلقاء نفسه ، ولا يتقدم في الأمور بين يدي ربه . والله أظهر فيما أنزل من الكتاب أموراً كان يحسبهاﷺ مستورة فقال تأديباً له وإخباراً لمن آمن من بعده : وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وانعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (1) . وقال : عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ۞كلا

(1) سورة الأحزاب ، الآية ٣٧ .

إنها تذكرة [1] . وقال تعالى : ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات ثم لا تجد لك علينا نصيراً [2] . وقال له حين صرف قلبه عن بيت المقدس إلى البلد الحرام حين سكنت القلوب إليها وانست النفوس بها : ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير [3] . وكانت القبلة التي صرفه الله إليها وأمره بها عظيمة على المنافقين واقعة بخلاف الكافرين ، كبيرة إلا على الذين هدى الله من المؤمنين ، فإنهم قالوا : إذا اختلفت القبلتان وافترقت الجهتان ، كانت الطاعة فيهما واحدة لا اختلاف فيها ولا افتراق عليها ، وكيف تختلف الطاعة من رجل بنى بأمر الله ثم هدم بوحي الله ؟ ! فإن قلت : إن الله حوله عن أفضل القبلتين وأقوم الجهتين ، فلا سواء في الفضل أبين والخير أيسر : قبلة سلط الله عليها الكافرين ولم يمنعها من الظالمين ، وقبلة منعها بجنود من عنده وعصمها بغير ما حول من خلقه ولا حرمة يذعيها أحد ممن فيها ، فأرسل طيراً أبابيل ترمي الأعداء بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول : فإن تقل : هذا خبر ننكره وقول لا نعرفه ، فبأي حديث بعد هذا تؤمن وتشهد لله عز وجل إنه من قبله ؟ وأنتم تعلمون إنه أنزل الله عز وجل سورة الفيل على قوم أدركه منهم بشر كثير .

فإن قلت : إن محمداً ﷺ خبرهم بما عاينوه وأدركوا خلافه فقل : إنه أراد أن يفرقهم عنه ويوحشهم منه وأحب أن يرموه بالكذب ويقذفوه بالحمق ويصموه بالجنون ويظنون به الظنون . كلا ! ما كان نبي ولا غير نبي ليجاهد أقواماً بخلاف ما رأت أبصارهم وشاهدت آباؤهم فيخبرهم بخلاف ما شهدوا وتكذيب ما عاينوا ، فلا تكونن في هذا من الممترين ، ولا بأمر الفيل من المكذبين .

فلعمر الله لو كان من أمر النبي ﷺ ما تلحد أنت وقومك إليه لما قام معه رجلان ولا اختلف فيه سيفان ، وإن فيما صنع الله عز وجل بالفيل وأتباعه دلالة على قبله الله وأنبيائه . فاتق الله فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي ﷺ وكشف على قبله الله وأنبيائه . فاتق الله فقد شرح أمير المؤمنين علامات النبي ﷺ وكشف الأغطية لك من

(1) سورة عبس ، الآية ١ وما بعدها .
(2) سورة الاسراء الاية ٧٥ .
(3) سورة البقرة الاية ١٢٠ .

النور بآيات الوحي . فإن مالت الأهواء بك وغلبت الأساقفة عليك وحضرك الرؤساء الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى بلا حجة عندهم ولا سلطان آتاهم فقل : أنبؤني عما اجتمعت عليه النصرانية وذهبت إليه بهم المعاني في تشقيق الكلام وتصريف الكتب : أحروف تتعسفونها أم لغة تعرفونها ؟ فإن قالوا : إنهم بغير لغة يتكلمون ، فهم إذاً قوم يلعبون ، وإن قالوا : إنهم يتكلمون بلغة معروفة ومعان معلومة ، فقل : أخبروني عن قولكم أب وابن أهما ما تعترف العقول من المنطق ويقع في القلوب من المعنى أم لا ؟ فإن قالوا : لا : ليس ذلك بالذي تذهب أوهام العباد إليه ولا بالذي تقع الحقائق في الآباء والأبناء عليه ، إنما هو كقول الله عز وجل في التوراة لإسرائيل : « بكري » لا يعني ولادة الرحم ، وكقول المسيح عليه السلام للحواريين : أنتم إخوتي ، لا يعني أخوة النسب ، فذلك قول لا يجدون معه بدأ من أن ينسبوا عيسى عليه السلام عبداً . وإن قالوا : بل هو ما تجري به ألسن العباد ، ويقع في قلوب الخلق من الولادة المعروفة والأبوة المعلومة ، فليخبرونا متى كان الأب والداً والابن مولوداً . أقبل الولادة أم بعدها ؟ فإن قالوا : قبلها ، رجعوا عن القول الأول بتثبيت الأبوة ، إلا أن ذلك ليس بالشيء الذي تذهب إليه الأوهام ، ولا بالمعنى الذي يقع في قلوب الأنام .

ولا بد إذا سقطت الولادة المعروفة وبطلت الأبوة الموجوده أن يقولوا : إن الأب والابن اسمان علقا على غير معنى ، ونسبان أضيفا إلى غير حق ، فيقرون أن عيسى عليه السلام خلق مثلهم وإنهم يتكلمون بغير لغة أحد منهم .

وإن قالوا : إنما كان الابن مولوداً والأب والداً بعد الولادة ، فقد أقروا بأن الابن حدث مخلوق وعبد مربوب ، لقولهم إنه لم يكن حتى ولد ، ولم يولد حتى خلق ، وقل لمن يقول الزور العظيم ويقذف بالإفك المبين . أليس الأب أباً على حياله ولم يزل ، والابن إبناً نُجل ، وروح القدس كذلك؟ فإن قالوا : نعم ، فقد أقروا بانهم ثلاثة متباينة وقعت عليهم ثلاثة أسماء متفاوتة ، وتركوا قولهم : أنهم ثلاثة أصلهم واحد .

وإن قالوا إن الأب والابن وروح القدس واحد ، ولكن بعضه أب وبعضه ابن وبعضه روح القدس ، فقد دخلوا في التحديد الذي هو عيب عندهم ، وقالوا في التبعيض بما هو كفر قبلهم . وإن قالوا : ليس مبعضاً ولا مجزءاً ولا محدوداً ولا

ثلاثة متباينين ، فإذا هم قوم يلعبون : يقولون الأب ابن والابن أب والوالد مولود والمولود والد ، والكبير صغير والصغير كبير والقليل كثير والكثير قليل وهذا من أبين المحال وأخلف المقال ، وليس من المنطق ما لا يوجد في لغة عرب ولا عجم ، ولا لسان أمة من الأمم ، وإنما أرسل الله عز وجل كل نبي بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل الله الظالمين. ولولا ذلك لما فهمت الأمم مذاهب أقاويل الرسل ولا معاني أحاديث الكتب . فلا تطع الذين يلعبون بأنفسهم ويتكلمون بغير لغتهم ، ويقولون : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، وهذا محال في مجاري المقال ومعاني الفعال .

لعمر الله ، لئن اتهمت عقول الأساقفة على دينك واهتممت بالنظر في توحيدك ، لتعلمن أن الواحد لا يكون ثلاثة ، وإن الثلاثة لا تكون واحداً ، إلا على وجه ما له ثانٍ يقول به ، ولا منه مخرج تستريح اليه ، فالق نحوه سمعك وانصت إليه فهمك ، فإن أمير المؤمنين واصفه لك ، وليس واقعاً إلا على المخلوقين ، ولا لازماً غير المحدودين ، ولا داخلاً على رب العالمين ، وهو أن يكون الشيء أصله واحد وأجزاؤه كثيرة ، من نحو الإنسان وهو أصل يجمعه اسم ، وله أجزاء تلزمها اسماء ، فليس الجزء بالأصل ولا الأصل بالجزء ، ولكن الجزء بعض الأصل فإذا أردت الجزء قلت : يد الإنسان وسمع الإنسان ، ولولا إنه محدود مخلوق مجزأ مبعض لما جاز هذا القول فيه ولا دخل هذا المثل عليه . وكذلك الشمس ، الأصل واحد ، وهي شمس ، والأجزاء كثيرة وهي عين الشمس وضوء الشمس وشعاع الشمس ودقيقها وغليظها وحرورها وأعلاها وأسفلها وأشباه ذلك .

فلئن قلت : سميت كل جزء من الأجزاء على حياله إنساناً ، وكل جزء من الشمس دون أصله شمساً ، ونسبت فعل الأصل الى بعض أجزائه ، وتركت أن تنسب الأصل فاعلاً ببعض الأجزاء ، كما تقول : بسط الإنسان بيده ، ومشى برجله ونظر بعينه ، ثم ضربت ذلك لله عز وجل مثلاً وجعلت الله له قياساً فقلت : الأصل واحد ، وهو الله عز وجل ، والاجزاء كثيرة وهي أب وابن وروح القدس ، وكل جزء منها إله على حياله ورب دون غيره لم تجد بدأ أن تلحق اليد والعين والنفس بالأب والابن وروح القدس ، فتكثر آلهتك ، وتحدد ربك وتترك قولك إن الله ليس محدوداً ولا مجزأ ولا مبعضاً ، إلا أن يكون إنما تريد مذاهب الأسماء فتقول : المعنى واحد ، وهو الله عز وجل ، والأسماء أب وابن وروح قدس . فان كنت تقول هذا

وكنت إنما تعبد أسماء ، فما تجد بداً من أن تعبد الأسماء كلها وتقول : إنها آلهة على حيالها ، حتى تقول باسمٍ : ارحمني وبثان : اغفر لي . فاتقوا الله يا أهل الكتاب فإن الله عز وجل ليس بأب ولا ابن ولا إسم ولكن له الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون .

فان أشارت الأساقفة الى بعض الإنسان باليد والرجل وأشباه ذلك وقالوا أليس إنساناً فقل : لا ولكنه للإنسان ، وقل هو إنسان بكماله ، وكذلك إن أشاروا إلى بعض الشمس فقالوا : أليس هذا الشمس طالعاً ، فقل : لا ولكنه بعضها . ولو كانت الأسماء التي تقع أبصاركم عليها وتشير أيديكم اليها من الشمس والسماء والهواء شمساً وهواء وسماء لكانت الشمس والهواء والسماء أكثر مما يبلغه الإحصاء . ولو قصدت بالإجابة لمسالك هذه الأودية لبطلت الحجج الداحضة وانقطعت الأقاويل المتناقضة . وسل من قِبَلكَ من أساقف أمتك وشحامسة أهل ملتك الذين يزعمون أن عيسى المسيح ، ويرفعونه أن يكون عبداً ، على أي شيء وقع اسم المسيح من عيسى : على الروح أم الجسد أم على كلها ؟ فإن قالوا : وقع على الروح نفسه ، لأن الروح إله دون غيره ، فقد أقروا أن إلههم يأكل ويشرب ويمشي ويركب ، لأنهم يجدون ذلك من فعل عيسى مبيناً قبلهم ، موصوفاً عندهم . فإن قالوا : وقع اسم المسيح على الجسد بعينه فكان الجسد هو المسيح اذاً دون غيره ، والمسيح إذاً مخلوق عندهم ، والإله إنسان اذاً مثلهم ، فلِم يعبدون المخلوق ويدعون من خلقه وبراه . وإن قالوا : وقع الإسم على الروح والجسد جميعاً ، فلن يجدوا مخرجاً ولا بداً ولا محيصاً ، إذا أوقعوا الإسم عليهما ، من أن يضيفوا الأعمال إليهما ، فيقولوا : إن الجسد المخلوق هو خلقهم ، وإن الروح الخالقة قد ماتت قبلهم ، وذلك لما يجدون من ذكر موت عيسى عليه السلام في الكتب عندهم وفي الإنجيل الذي قبلهم . وسل من قبلك عن الأب والإبن ، فقل أيهما أعظم وأيهما أصغر ، فإن قالوا : الأب أعظم والإبن أصغر فقد جعلوهما متباينين ، وإن قالوا : هما واحد وكلاهما عظيم ، وليس الأب بأعظم من الإبن ، ولا الإبن بأصغر من الأب ، فقد نقض عندهم جوابهم ، وأكذب المسيح عليه السلام كلامهم حيث يقول لو كنتم تحبوني لفرحتم حيث اذهب إلى إلهي فإن إلهي أعظم مني [1] . فلم يقل

---

(1) الكتاب المقدس . بيروت ، ١٨٨٢ م . اللغة العربية . انجيل يوحنا جـ ٣ ، الاصحاح ١٩ ، الاية ٢٨ ، ص ١٨٦ فلو كنتم تحبوني لكنتم تفرحون باني ماض إلى الأب لان الرب هو أعظم مني .

أعظم مني إلا وهو مقرأ أنه أصغر منه . وسلهم عن قول المسيح : أنا ذاهب إلى إلهي وإلهكم [1] ، فقل : من هذا الإله الذي ذهب عيسى اليه ﷺ ، إله في السماء متباين عنه منقطع منه ؟ فهما إذاً اثنان متباينان . أم إله كان به متصلاً وكانا جميعاً واحداً ؟ فكيف إذاً يجوز له أن يقول : إذاً أذهب اليه : إلا أن يقولوا : إن بعضه ذهب إلى بعض ، وهذا مما لا يجوز عندهم في صفة الرب عز وجل .

وسل من قبلك : أخرج المسيح من بطن أمه مريم بكماله حتى كان البطن منه فارغاً ، وكان هو منه بكماله خارجاً ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد انكسر قولهم إن الله بكل مكان ، وإن قالوا : لم يخرج المسيح ولم يخل البطن ، فقد كذبوا ، إذاً في قولهم : انه قد خرج وأقروا أنه قد ولد ، فتعالى الله عما يصفون وتنزه عما يشركون . وسلهم : لِمَ هبط عيسى الى بطن مريم وتجسد باللحم والدم ؟ فإن قالوا : ليمحق الخطايا من الأرض ويربط الشيطان عن الخلق ، فقل : كيف اذاً لم يربطه عن نفسه ، وكيف جلاباه [2] من اليهود بقلبه ، ولم سلط على أهل دينه يتبعون في كل شعب ويقتلون بكل واد .

وقل للذين يقولون : إن الخالق في كل مكان من السماء والارض وغير ذلك ، أيهما أعظم المحيط المشتمل أم المخاط المشتمل عليه كما يقولون ؟ تعالى الله عما يشركون ، فإن قالوا : إنما النجم بعضه دون بعض ، فقد حدوا وبعضوا ونقصوا وانتقصوا ، وإما قالوا فلن يجدوا بداً من أن يقولوا : إن بعض المسيح الذي جعلوه ربهم ، وهو إله عندهم ، ميت بعضه جيفة ، وإن بعضه حي طيب . لأنهم زعموا أنه التحم بجسد حي فيه روح ، فلا بد إذاً أن يدخل عليه ما يدخل على الاجسام الحية من الخوف والفزع والفرح والعطش وأشباه ذلك ، وهو عندهم كفر عظيم وأفك مبين . فاتق عقوبة الله ربك ، ولا تمش مكباً على وجهك ، ولكن اطلب والتمس وابحث ، فقد قال عيسى عليه السلام في الإنجيل : من سأل أعطي ومن طلب وجد ومن استفتح فتح له [3] .

---

(١) الكتاب المقدس ـ انجيل يوحنا جـ ٣ ، الاصحاح ٢٠ ، الاية ١٧ ص ١٩٦ : إني صاعد إلى ابي وأبيكم وإلهي وإلهكم .

(٢) كذا بالاصل .

(٣) الوارد في أنجيل متى ، اصحاح ، آية ٤٢ ، الجزء ٣ : من سألك فاعطه ، ومن أراد ان يقترض منك فلا تمنعه ، والوارد في انجيل لوقا ، اصحاح ١١ ، الاية ١٠ ، الجزء ٣ : من يسأل يعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له .

إجمع العلماء والبصراء « الذين » عندك ، والأساقفة والرهبان الذين قبلك فقل : لاي شيء نسبتم المسيح إلهاً وجعلتموه رباً ؟ ونجد الله سماه في الكتاب ابناً ، وقد تجدونه قال : إني ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم أيضاً . وهذا كلام يحتمل وجهين أحدهما أولى به ، وقول لا يحتمل إلا وجهاً وهو الربوبية . أم كيف تنظرون إلى كلامه : إني ذاهب الى أبي وأبيكم . فتفردونها في نفسه وقد قالها فيه وفي غيره . فاتق الله وكن من القائمين بالحق ، الموحدين للرب . إن أمير المؤمنين قد ضرب لك أمثالاً جمة وصرف اليك مسائل كثيرة ، وبين لك من آيات النبي ﷺ وعلامات الوحي قليلاً من كثير ، واضحاً من تفسير ، لا تمنع العقول من التصديق به ، ولا القلوب من الإقرار به .

وسيذكر لك أمير المؤمنين من علامات النبي ﷺ في التوراة والإنجيل ما يكتفي به ، إن شاء الله ، وباليسير منه ، لأن كتب الله عز وجل محفوظة ، وحججه محروسة لا يزاد فيها ولا ينقص منها ؛ وإذا وجدت فيها كلمة تدلك على حق وتهديك إلى الرشد ، فلست واجداً أخرى تصدك عنه وتشكك فيه ، إذا تلي عليك بالحق ووضع على الصدق . ولكن ضلت اليهود والنصارى بتحريف تأويل الكلام وتصريف تفسير الكتب . وأمير المؤمنين يسأل الله العصمة والتوفيق .

من ذلك ما قد شهد به عيسى عليه السلام عندكم وبينه في الإنجيل لكم إذ قال للحواريين : أنا أذهب وسيأتيكم البارقليط روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه إنما يقول كما يقال له ، وهو يشهد عليَّ وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس بالخطيئة وكل شيء أعد الله لكم يخبركم به [1] . وترجمة البارقليط أحمد . هذا ما لا شك ولا مرية فيه ، وهو الذي يخبر بما وعد الله المؤمنين وصالحي الحواريين في القرآن ولستم تجدون ذلك في التوراة ولا في الإنجيل .

ومن ذلك قول أشعيا النبي عليه السلام : قيل لي أقم بطاراً ما ترى بخبري ؟ قال أرى راكبين بعيرين مقبلين أحدهما يقول لصاحبه سقطت بابل وأصنامها المنحوتة [2] . ولسنا نعلم نبياً ركب بعد موسى ﷺ بعيراً إلا محمد ﷺ كثيراً .

---

(١) انظر : انجيل يوحنا ، الاصحاح ١٤ ، الأية ٢٦ والاصحاح ١٥ ، الأية ٢٦ ، واصحاح ٢٦ ، الاية ١٢ ، الجزء ٣ ص ١٨٧ .

(٢) انظر : نبوءة اشعيا ، الاصحاح ٢١ ، الاية ٩ ، جـ ٢ ص ٣٤٨ . كذا بالاصل ولم نوفق الى تصحيحه .

ومن ذلك قول داوود عليه السلام : اللهم ابعث جاعل السنّة كي يعلم الناس أنهم بشر (١) . يقول : كي يتبين الناس أن عيسى عليه السلام إنسان . ولسنا نعلم نبياً وضع سنة تنسب اليه إلا محمداً ﷺ . أما عيسى فانه نصب سنة موسى عليه السلام .

ومن ذلك قول حبقوق المتنبيء في زمان دانيال . جاء الله من السماء والقديس من جبال فاران ، وامتلأت من تحميد أحمد وتقديسه ومسح الأرض بيمينه وملك رقاب الأمم (٢) . وقال أيضاً : تضيء لنوره الأرض وتحمل خيله في البحر (٣) . فالى من ينحو هذا القول ، وإلى أين يذهب بهذا المعنى ؟ لئن ذهب به إلى غير الذي [تحمل] خيله في البحر وبدأ من جبال فاران امره وغلب على الأرض ومسحها وملك رقاب الأمم كلها ، لقد تركتم الحق وأنتم تعلمون .

ومن ذلك قول داوود عليه السلام في الزبور : صدقوا وسبحوا الرب تسبيحاً حديثاً ، سبحوا الذي هلله الصالحون . ليفرح إسرائيل بخالقه ويتوب صهيون من أجل أن الله اصطفى له أمته وأعطاه النصر وسدد الصالحين بالكرامة ، يسبحونه على مضاجعهم ، ويكبرون الله بأصوات عالية بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، لينتقم الله من الأمم الذين لا يعبدونه ثم يقيد ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال (٤) . فايتا أمة يكبرون الله بأصوات وآذان الصلوات الدائمة وعلى كل شرف وعند كل حرب ، وايتا أمة كانت سيوفها ذات شفرتين إلا أمة محمد ﷺ .

ومن ذلك قول أشعيا : سبحوا الرب تسبيحاً حديثاً ، ويسبحه من آفاق الأرض فرح يكون في بني فيار (٥) . وبنو فيار قريش أهل فاران الذي نزل فيه القرآن وأيّتا أمة تسبح من آفاق الارض إلا أمة محمد ﷺ عمدى اكدى (٦) . ومن ذلك قول أشعيا : عبدي الذي وجب به حبي الذي بشرت به نفسي أفيض عليه روحي ،

---

(١) انظر : سفر للزامير ، الاصحاح ١ ، الاية ٢١ ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .
(٢) انظر : نبوءة حبقوق ، اصحاح ٣ ، آية ١٥ ، جـ ٢ ، ص ٧٠٩
(٣) نفس للمصدر .
(٤) انظر : سفر للزامير ، الاصحاح ١٤٩ ، الآت ١ ـ ٩ ، جـ ٢ ، ص ١٥٢ .
(٥) انظر : نبوءة لشعيا ، الاصحاح ٤٢ . الاية ١٠ ، جـ ٢ ، ص ٣٧٦ .
(٦) كذا بالاصل للكلمتين .

يوصي الأمم بالوصايا ، لا يضحك ولا يسمع صوته في الاسواق ويفتح العيون العور ويسمع الأذان الصم ويحي القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطي غيره ، أحمد يحمد الله حمداً حديثاً ، تهليله يأتي من أقصى الأرض ، يجوز الماء بشدة أمواجه ، ومصرح (١) وكورها ، سكانها يحمدون الله على كل شرف ويكبرونه على كل رابية (١) .

ومن ذلك قول داوود عليه السلام في المزمور الخامس والأربعين : يقول الله عز وجل لمحمد في الزبور : انصبت رحمتي على شفتيك من أجل ذلك باركتك الدهر ، تقلد السيف على الأمم ، أيها الجبار على الأمم بالقتل والأسر والسباء ، بهاك وحمدك أحمد معلب البر (١) منك كلمة الحق وذللت لك الأشياء سيفك بحسمه (١) ونبالك مسمومة ويسقط (٢) عند الأمم (٣) . فأي نبي كان على الأمم جباراً ولهم بإذن الله قتالاً إلا نبينا ﷺ .

ومن ذلك في آخر التوراة : جاء الله تبارك وتعالى من سيناء ، وأشرف من ساعير واستبان واستعلن من جبال فاران وجاء عن يمينه ربوات القديسين (٤) . وتفسير هذا أن الله عز وجل أنزل التوراة على موسى في طور سيناء ، وأنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام في جبل ساعير وهو جبل بالشام ، وأنزل القرآن على محمد ﷺ في جبال فاران وهي بلاد مكة . وأنتم تجدون ذلك في كتبكم مكرراً وتعرفونه جميعاً بلغتكم .

ومن ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام : سأقيم لهم من أخوتهم مثلك اجعل كلامي على فهمه ولا يتكلم إلا بما آمره به (٥) . فمن أخوة بني إسرائيل إلا بنو إسماعيل ! أما تعلم ، أن لو كان الله عز وجل يعني أحداً منهم لقال لهم : أقيم لكم نبياً منكم .

فإن قلتم : إنما قال من إخوتكم وهو يريد من أنفسكم . فهب أمير المؤمنين

---

(١) كذا بالاصل .

(٢) انظر : نبوءة اشعيا ، اصحاح ٤٢ ، آية ١ ـ ١٠ ، جـ ٢ ، ص ٣٧٦ .

(٣) انظر : سفر للزامير ، المزمور ٤٤ ، وفي بعض النسخ ٤٥ ، الأيات ٣ ـ ٨ ، جـ ٢ ص ٢٩ .

(٤) انظر : سفر تثنية الاشتراع ، الاصحاح ٣٣ ، الأية ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٥) انظر : سفر تثنية الاشتراع ، الاصحاح ١٨ ، الاية ١٥ ، جـ ١ ، ص ٣١٨ .

قبل الخُلف منكم ووسّع في هذا المجال لكم ، فكيف تصنعون بقول الله عز وجل في التوراة : مثل موسى في بني اسرائيل لا يقوم . فهل تجدون من هذا مخرجاً ، ومن الإيمان أن المعنى وقع على محمد ﷺ بدأ ؟.

الا تسمع قول الله عز وجل : ـ اجعل كلامي على فمه كي يعنى به ، أمي لا يقرأ ولا يكتب .

أوليس قد أمر عيسى عليه السلام حوارييه أن يقولوا في صلواتهم : يا أبانا الذي في السماء ، تقدس اسمك . كيف صار عيسى دونهم ابناً وصار له دونهم أباً وهم يقولون : يا أبانا . أم كيف لم يجعل سليمان بن داوود إلهاً وقد قال الله عز وجل لداوود : يولد لك غلام يسمى لي واسمى به . ولم لا يجعلون اسرائيل إلهاً وقد قال الله عز وجل له : أنت بكري . بل لمَ لا يسمون المؤمنين عامة والحواريين خاصة آلهة ، وقد قال المسيح للحواريين : أنتم اخوتي . وقد قال في الإنجيل : أعط كل من آمن بي سلطاناً يدعي له . وإن كان هؤلاء كلهم للمسيح أخوة أفلا تجعلونهم كلهم آلهة ! وكيف يقولون : إن عيسى ابن الله ، وهو يقول في مواضع جمة وأماكن كثيرة إنه ابن الإنسان . فكيف يكون إبن الانسان ابن الله ؟ ومتى كان ذلك ؟ لئن قالوا : إن عيسى لم يزل ابن الإنسان ، لقد جعلوا مع الله إنساناً قديماً وجعلوا الله إنساناً حديثاً ، وجعلوا المسيح ابن الله لم يزل ، وابن الإنسان فيما حدث . وهذه أمور متناقضة وحجج داحضة وأقاويل فاحشة .

فإن قالوا : إنما نعبد المسيح لأنه رفع إلى السماء ،فليعبدوا الملائكة فإنهم في السماء قبله ، وإدريس فقد رفعه الله وغيره . وإن كانوا يعبدون المسيح لأنه لم يخلق من ذكر ، فآدم وحواء لم يخلقا من ذكر ولا أنثى ، ولم يقعا من غم الرحم وضيق البطن وحال الصبا فيما [وقع] فيه المسيح . وإن قالوا : إنما نعبد عيسى لأنه أحيا الموتى ، فيما أحيا حز قيل أكثر ، وما كان من اليسع تلميذ الياس أعجب لأنه أحيا الموتى بعد مئين من السنين ، وإن طلبتم ذلك في سير الملوك عند قصة إليسع أصبتموه إن شاء الله . وإن كانوا إنما يعبدون المسيح من أجل الأسقام التي أبرأ والعجائب التي أرى فعجائب موسى أعجب وآياته أعظم . أين ما ذكرت لك من عجائب عيسى من عجائب موسى : من انقلاب البحر له وسلوك الجيش معه ! أم أين ذلك من حجر يضر به فيتفجر بعيون الماء ويحمله معه حيث شاء ! بل أين تلك وهذه وغير

هذه من الآيات من حبس يوشع الشمس ثلاث ساعات . وكل ما صنع موسى وعيسى وغيرهما بإذن الله وأمره وقدره وقضائه . فاتق الله وكن من القائلين بالحق ، الموحدين للرب ، ولا تقل على عيسى ما لم يقل ، فإنكم لا تجدونه قال لكم في شيء من كتبكم : أعبدوني فإني ربكم . تعالى الله عما يقول الظالمون ويذهب إليه الجاحدون .

وإن أمير المؤمنين قد أحب أن ينصح لك ، في أولى داريك بك وأهم شأنيك لك ، فدعاك إلى الإسلام وأمرك بالإيمان الذي به تدخل الجنة وتنجو من النار ، فإن قبلت فحظك أصبت ، ونفسك أحرزت ، ولك ما للمسلمين وعليك ما عليهم ، وإن رددت نصيحة أمير المؤمنين فيما فيه الحظ في آخرتك ، فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك : من أعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ويحرم بها سباءكم ويجعلها قواماً لمعاشكم وصلاحاً لبلادكم وتوفيراً لأموالكم وأمناً لجنابكم وسعة لسربكم [1] ، وبركة على فقرائكم ، وغنى لأهل الحاجة والفاقة والمسكنة منكم .

ولن يذكر أمير المؤمنين في الجزية لكم من حلول الأمن فيكم وعموم العافية إياكم ، واستقامة البركة عليكم ، وكف أيدي المسلمين عنكم ، وبسطها على الأعداء منكم ، شيئاً إلا وفي قليل ما كان من أشباه ذلك أيام تلك الفدية التي كان الله أجرى نعمتها لكم على يده وفتح بركتها عليكم من قبله ، ما يدلكم على صدق أمير المؤمنين فيما يذكر ، ويشهد له على حقه فيما يقول إن شاء الله . فقد تعلمون إن الله قد أدخل على كل طرف من أطرافكم وصنف من أصنافكم ، بتلك الفدية ، أموراً عظيمة البركة ، واسعة المنفعة في أمورٍ غير واحدة .

منها : ان قادة جنودكم وساسة حربكم كانوا بعد وقوع أمرها واستحكام عقدها فراغاً لمحاربة أعدائكم ومناصبة من ناوأكم ، بين أن يستعجموهم في بلادهم وينزلوا عليهم في ديارهم ، ولا يرهبون تعقب بشر إن ساروا في أرضهم ، ولا يتخوفون طراداً إن اجتمعوا لقتالهم أن يقيموا في خفض ودعة وأمن وسعة ، مع الأزواج والأولاد والعيال والأوطان والرباع والمحال ، وهم اليوم يترقبون الجيوش من

---

(١) السرب : الطريق .

كل شعب ويتخوفون الحتوف في كل وقت ، لا يهدأ لهم جأش ولا يسكن لهم فزع ، ولا ينام لهم ليل ، ولا يأمن فيهم حال ، قد قطعت الهموم دابرهم واضمرت المخاوف جنوبهم ، واستأصلت الجنود اموالهم .

ومنها : أن أهل الحراثة وإخوان العمارة في بلادك وأطراف أرضك ، كانوا سراعاً إلى عمارة أرضهم وإصلاح ما تحت أيديهم ، فيما لا قوام لهم ولا لمعاشهم إلا به ، ولا بقاء لدينهم إلا معه ، قد أمنوا الجيوش ومعرتها والجنود وبادرتها وانتشروا للعمارة ، وابتكروا في الزراعة ، فارقوا رؤوس الجبال واقحام الغياض ، وراحوا في أوساط أوطانهم وظلال محالهم يشققون الأنهار ويغرسون الأشجار ويفجرون العيون حتى نمت الأموال واخضرت الحال وأخصب الجناب . وأصبحوا اليوم عن الزراعة ممسكين وللحراثة تاركين ، وبغيرها مشتغلين في اصلاح آلات الحرب واحراز العيال في الحصون ورم القلاع للجلاء وتحريش الحصون للبلاء ، قد انتقلوا عن منابت البر وكرائم الأرض ومجاري المياه الى أوشال الجبال وأشجار الغياض وبطون الأودية ، فليس يبلغون من عمارة بلادهم ولزوم أوطانهم ومن تناول ثمارهم وقوام معاشهم مثل ما كانوا يبلغون ولا ينالون من خفض العيش وطيب الأمن ولذة الدعة قريباً مما كانوا ينالون .

ومنها : أن إخوان التجارات وأصحاب الأموال وأهل الظلف والحافر كانوا يتناولون ما شارفهم من بلادنا وما قاربهم من أسواقنا فينفقون تجاراتهم ويغلون بضائعهم فتعظم الأرباح وتضعف الأثمان ، وكانت الباعة من تجار المسلمين وغيرهم من الذميين يتناولونهم للبيع لهم ويتناولونهم للشراء منهم ، فعمت البركة وسهلت المنفعة حتى نالت الرعاة في جبالها وأصالها[1] ، والنساء في غزولهن وعمل أيديهن فضلاً عن غرض .

ومنها : أنك ومن قبلك من ذوي العبادة والزهادة والتأله والنسك والنيات كنتم على عافية من أيام الرضا بالحرب وسلامة من أوزار الحض على قتال الخوف وقد نجوتم من معصية المسيح في الدنيا التي نهاكم عنها ، والأمور التي أمركم بها ، من نحو قوله : من لطم خدك الأيمن فأمكنه من الأيسر ، ومن نزع قميصك فأعطه

---

(١) كذا بالاصل الكلمات والجمل ناقصة مضطربة .

كساءك ، ومن لطمك فاغفر له ، ومن شتمك فاعرض عنه .

ومنها : أن من بأقاصي بلادك ونواحي حوزتك قد ذاقوا تلك الأيام من لذة الخفض ودعة الحال وحلاوة الأمن ورفاهية العيش وسعة العافية من سباء أزواجهم وهيض أولادهم وحطم معاشهم وأسر رجالهم وغنيمة بقرهم غنمهم وافساد شجرهم وثمارهم وإجلاء عن مساكنهم وأوطانهم ، ما لم يكن لهم رأي يعرفه ، ولا ظن يبلغه ولا طمع يقاربه ، ولا أمل يذهب إليه ، وما قد عرفت الخاصة من بطارقتكم ، والعامة من أهل ملتكم به : من رأفتكم بهم ، ورحمتكم لهم ، وشفقتكم عليهم ، واثرتكم إياهم ، وبركة ولايتكم ملكهم ومنفعة سياستكم أمرهم ما قد ازدادو لكم به محبة ، وفي بقائكم رغبة ولأمركم طاعة وعلى ملككم شفقة ، وفيما نابكم نصيحة ، مع قد ازددتم بذلك من الهيبة في صدور الأعداء ، والشرف في قلوب النظراء ، والعظم في عيون الأمم حتى اقروا لكم بقوة عزائم العقول وفضل سياسة الأمور وصحة تدبير الملك وصدق النية ولطف الحيلة التي جعلوا نسبة عملكم بها ومحل رأيكم فيها ، على أنكم نظرتم لضعفائكم حتى قووا ، ولفقرائكم حتى استغنوا ، ولقرابكم حتى ندوا وحيو ومود[1] المسلمين ، من أيام الحروب وأوزار القتال ، ومعصية المسيح عليه السلام ، ولاعدائكم الأبعدين وجيرتكم الأقربين حتى كنتم من فراغكم لهم واشتغالكم من أمركم بها ما أوطأتموه لحر بحر[1] القتل وذل الأسر وغلبة القهر والأذعان والاستسلام ، وأما كفيتموهم بالصلح ، واستوثقتم منهم بالرهن .

فإذا ذكرت ما كان من هذا وأشباهه وأمثاله في الفدية . فاعلموا ان أمثاله وأضعافه مقيم معكم في الجزية فلا يكون لك رأي غيرها ولا أمر سواها ، فلقد أكثر أمير المؤمنين العجب من أمركم وأطال تقليب الفكرة في بعضكم فظن أن إخراجكم من جميع ما كنتم فيه إلى خلافه مما أصبحتم عليه من انتظار وقعات الحروب وصولات الجنود وأكل الحدود وتوقع الجلاء والسباء والقتل ، والأسر والحصل ، شيئاً اختدعكم الله عز وجل فيه عن أنفسكم ، وكيداً استدرككم به لما علم من قلوبكم .

إلا أن أعجب عذركم وافظعه كان عند أمير المؤمنين إذ بلغه جرأتكم على الله

(١) كذا بالاصل الكلمات والجمل بلغة مضطربة .

عز وجل في نقض عهده واستخفافكم بحقه في خفر ذمته ، وتهاونكم بما كان منكم ، وأنتم تعلمون أن مواثيق العهود ونذور الإيمان الذي وضعه الله عز وجل حرماً بين ظهراني خلقه ، وأماناً أفاضه في عبادة لتسكن إليه نفوسهم وتطمئن به قلوبهم وليتعاملوا فيما بينهم، ويقيموا به من دنياهم ودينهم فما من ملك من الملوك ولا أمة من الأمم تبيح حمى الله عز وجل تهاوناً به وجرأة عليه إلا أجرى الله عليهم دائرة من دول الأعداء ، وأنزل عليهم عذاباً من السماء ، وقد رجا أمير المؤمنين أن يجري الله نقمته منكم بأيدي المسلمين ، بعد إذ كان اعتقد عهدكم وأخذ ميثاقكم بالأيمان المغلظة والعهود الموكدة التي قد اعتقدها في رقابكم وحملها على ظهوركم ، فأشهدتم الله بها على انفسكم ،وتسامع بها من حولكم وحكم بها بطارقتكم وأساقفتكم ، فلا الله اتقيتم ، ولا من الناس استحييتم ، نكثاً العهد ، وبغضاً للمسلمين وختراً بالأمانة وإباحة للحمى . فتوقعوا العقوبة وانتظروا الغيب ، فلقد وثق أمير المؤمنين أن من عذاب الله ما هو حال إن شاء الله بكم .

ومن أسباب ما يريد الله من الانتقام منكم ، ما قد أزمع أمير المؤمنين وعزم عليه ، فقذف الله في قلبه : من الإرادة والنية والرغبة في إيطاء الجيوش بلادكم ، وإشباء المقاتلة أرضكم ، والتفرغ لكم من كل شغل ، والإيثار لجهادكم على كل عمل ، حتى تؤمنوا بالله وأنتم طائعون أو كارهون ، وتؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، فكونوا على عدة من الجزية ويقين من الإنتجاع الذي لا طاقة لكم إن شاء الله به ، ولا صبر لكم بإذن الله عليه ، فإن جنود أمير المؤمنين فارغة كثيراً ، وخزانته عامرة وافرة ، ونفسه سخية بالإنفاق، ويده مطلقة بالبذل ، والمسلمون نشاط إليكم منقلبون عليكم ، قد عودهم الله في لقائكم عادة يرجون إنتظار مثلها ، وأبلاهم في قتالكم بلاء من أمثالها ، إن شاء إليه .

وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدي جنوده ، ومقدمة ، إن شاء الله ، من جيوشه ، إلا أن تؤدوا الجزية عن التي دعاك أمير المؤمنين إليها ، وحداك ومن قبلك عليها ، رحمة لنضعفاء الذين لا ترحمهم ، وتوجعاً للمساكين مما لا توجع منه لهم من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم وأثره لأنفسكم ، واعتصاماً بخواصكم وإجلاء لعوامكم الضعفاء المساكين الذين لا تمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنه بحيلة ، ولا تراقبون في الرحمة لهم والتعطف عليهم أدب المسيح

إياكم وقوله في الكتاب لكم : طوبى للذين يرحمون الناس ، فإن أولئك أصفياء الله ونور بني آدم [1] .

وأيم الله لو يعلم من قبلك من المساكين والزراعين والفقراء والضعفاء والعملة بأيديهم ما لهم عند أمير المؤمنين لتحدروا عليه وأقبلوا اليه ، من ايوائهم وإنزالهم الأرض الواسعة ، وإمكانهم من مسابل المياه السائحة والعدل عليهم بما لا تبلغه انت ولا تقاربه ، رفقاً بهم ونظراً لهم وإحساناً اليهم ، مع تخليته إياهم واديانهم لا يكرههم على خلافها ولا يجبرهم على غيرها ، لاختاروا قرب أمير المؤمنين على قربك وجوارك ، ولأنقذوا أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم وعيالاتهم مما يحل بهم في كل عام ويلقون من كل غزاة . فاتق الله واقبل ما عرض عليك من الجزية ، ولا يمنعك ما فيه الحظ لك ولأهل مملكتك : ونحن على رجاء ان الله لا يؤخر ذلك منكم ويدفعه عنكم ، الا ليجعله على يد أهل بيت النبوة والرحمة ولأهل الوراثة فيهم للكتاب والحكمة ، الذين لا يدخل عليكم في الإذعان [لهم] وأداء الجزية إليهم حمية ولا نقيصة ولا عار ، والذين يفون لكم بما يعقدون ، ويتبعون فعلهم بما يقولون .

ثم أمير المؤمنين بخاصة ، لما جعل الله عليه رأيه وفيه نظره من البر والرحمة والإقساط والوفاء بالعقود والعهود والشروط نظراً لدينه وخوفاً من ربه ، ولما قذف الله في قلبه وقلوب المسلمين من المحبة والطاعة والأثرة ، ولما جعلهم الله عليه من اجتماع الكلمة واتفاق الأفئدة ، والنصائح في السر والعلانية ، وما عوده الله ممن نصب له بمجاذبة ورماه بمكايدة ، وعراه بحيلة من النصر العزيز والفتح القريب والظفر المبين . فأبذل من الجزية ما شئت وسم منها ما هويت . واعلم أن أمير المؤمنين ليس يحدوك عليها لحاجة به إليها ولا للمسلمين ، ولكن طاعة لربه وأثرة لحقه ، وليجعلها سبباً لما يريد أن يجري فيما بينه وبينكم ، وإنه إنما كان قبول المهدي ـ رحمه الله ـ الفدية منكم ، بطلبة أمير المؤمنين كانت إليه ، والحاجة كانت فيها عليه [2] ، ولم يكن من رغبة بها ولا حاجة إليها ولا استعظام لها ، ولقد كان يعطي في المجلس الواحد مراراً أمثالها ، ولكن ذلك كان برأي أمير المؤمنين يومئذ فيكم . أما اليوم إذ استبان له

---

(١) انظر : انجيل متى ، الاصحاح ، الاية ٧ ، الجزء ٣ ، الصفحة ٧ .

(٢) كذا بالاصل .

غدركم ونقضكم ونكثكم واستخفافكم بدينكم وجرأتكم على ربكم ، فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الإسلام أو الحرب المجلية إن شاء الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، عليه يتوكل وبه يثق وإياه يستعين ، والسلام على من اتبع الهدى .

عصر المأمون لفريد الرفاعي جـ ٢ ١٨٨ ـ ٢٣٦

ملحق (٦)

رسالة تيوفيل ملك الروم الى المأمون يعرض الهدنة

أرسل تيوفيل وزيره برسالة إلى المأمون وبدأ بنفسه . وكانت نسخة الكتاب :

أما بعد : فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حرياً أن تدع لحظٍ يصل إلى غيرك حظاً تحوزه إلى نفسك ، وفي علمك كافٍ عن أخبارك . وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة راغباً في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة ، فإن أبيت فلا أدب لك في الخَمرَ ، ولا أزخرف لك في القول ، فإني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها شانّ خيلها ورجالها ، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بيني وبينك علم الحجة ، والسلام .

ملحق (٧)

رسالة من المأمون الى ملك الروم تيوفيل رداً على الرسالة السابقة

أما بعد : فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعه وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال ، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة وإلا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أؤثره في معتقبه لجعلت جواب كتابك لخيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل إليهم من الإمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد هم أظمأ

إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم إحدى الحسنيين عاجل غلبة أو كريم منقلب . غير أني رأيت أن التقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى .

تاريخ الأمم والملوك للطبري جـ ٧ ـ ١٩٤

ملحق (٨)

رسالة ثانية من ملك الروم تيوفيل الى المأمون

حارب المأمون ملك الروم وهزمه فأرسل له رسالة مع أسقف وبدأ فيها بنفسه فرفض المأمون قراءتها لأنه لم يبدأ به فأرسل له تيوفيل رسالة ديباجتها :

لعبد الله غاية الناس في الشرف ملك العرب من تيوفيل بن مخائيل ملك الروم من قبل . . .

تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ـ ٤٦٥

ملحق (٩)

رسالة المعتصم الى ملك الروم جواب رسالة وردته منه فيها تهديد ووعيد

أرسل ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدده فأمر بجوابه فلما قرىء عليه الجواب لم يرضه وقال للكاتب : اكتب .

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد : فقد قرأت كتابك وسمعت خطابك ، والجواب ما ترى لا ما تسمع ، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار .

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ٣ ـ ٣٤٤

ملحق (١٠)

رسالة الأمير عبد الرحمن الثاني إلى الامبراطور تيوفيل ردا على رسالة تيوفيل التي يعرض فيها المحالفة ويطلب المساعدة ضد العباسيين

« أما بعد،فقد بلغني كتابك تذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة ، وأنه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا ، وإرسال قرطيوس رسولك إلينا لتجديد تلك المودة ، وترتيب تلك المصادقة ، وتسأل أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ونتواصل له ، ونبعث رسلاً من عندنا إليك ليعلموكبالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت إليه ، لتثبت بقدومهم عليك مودتنا ، وتتم به صداقتنا . وفهمت ما ذكرته من أمر الخليفة مروان ـ رضي الله عنه ، وصلى غليص ـ ومن وشائج قرابتنا منه ، وآسيت لما استلب من سلطانه ، واستبيح من حرمه ، واستحل من دمه ، وما كان من الفاجر أبي جعفر[1] تربه الله ، وجرأته على الله ، واغتراره به ، وانتهاكه لمحارمه ، والله قد أصى عليه ذلك فآسفه منه فهو لا محالة يجازيه جزاء سعيه .

ثم الذي ذكرته من فعل الخبيثين : ابن مراجل[2] وابن ماردة[3] أخيه بثده ، من إلحادهما في نحلتهما ، وإساءتهما لسيرتهما ، ورغبتهما في رعيتهما ، وشدة وطأتهما عليهم ، واستحلالهما دماءهم وأموالهم ، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مدة سلطانهم ، وتأذن برد دولتنا وسلطان آبائنا الذين نبأت عنهم الكتب ، ونطقت بهم الرسل، وأوجب لهم الإجماع ،وحفزه إليهم البرهان ،والذي حضضت عليه من الخروج إليهم ، وطلب الثأر منهم ، ووعدته من نصرتك لنا بما ينصر الصديق صديقه ، وما يعلم هواه فيه ومودته له ، وما عطفت عليه من أمر أبي

---

(١) هو أبو الجعفر المنصور ، ثاني الخلفاء العباسيين ، تولى الخلافة في ذي الحجة ١٣٦ (يونية ٧٥٤ م) ، وتوفي في ذي الحجة ١٥٨ هـ (أكتوبر ٧٧٥ م) ، وهو في طريقه إلى مكة المكرمة للحج ، أنظر ، السعودي : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .

(٢) المقصود بإبن مراجل : الخليفة العباسي المأمون ، لأن أمه كانت تدعى مراجل ، وهي جارية أم ولد للخليفة هارون الرشيد ، انظر السعودي : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٣) المقصود بابن ماردة : الخليفة المعتصم بالله العباسي .

حفص ، ومن معه من جالبة بلدنا ، وغلبتهم على ما غلبوا عليه من بلدك ، وخضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته ، وما سألت من أهل الإنكار لذلك ، والأنفة منه ، وحكيت من ذلك وقصصته في كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

وأما ما رغبت من مودتنا ، وأحببته من مصادقتنا ، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، مما كان عليه أو لوك لا ولينا ، فقد رغبنا منك في مثل الذي ذكرته من حرصك على مواصلتنا ، وأن نتمسك من ذلك بما كان عليه سلفنا ، وما لم يزل من مكان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعض لبعض ويشدون أيديهم به .

وأما ما ذكرت من أمر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فإن الله تعالى أحب أن يكرمه ، بما انتهك من حرمته ، ونكث بيعته ، ويسوقه إلى رحمته ، وأن يشقى بذلك من ركبه منه ويخزيه ويعذبه عليه .

وأما ما كان عليه الفاجر أبو جعفر في تعذيبه العباد ، وظلمه وجرأته على الله ، وانتهاكه لمحارمه ، فإن الله قد أخذه بذنبه ،واستدركه ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله ، إلى ما لا انقطاع له .ولا تخلص منه ، جزاء بما اجترح ، وكذلك حكم الله في أهل معصيته وأولى الاجتراء والافتراء عليه .

وأما ما ذكرت من أمر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى ما قلته وذكرته من تقالب انقطاع دولته ، ودولة أهله ، وزوال سلطانهم ، ما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزرف من حين ارتجاع سلطاننا ، فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز موعوده إيانا ، ونمتري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ض من أهل شأمنا وأندلسنا وأجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف ، أن النقمة تنزل لهم ، والدائرة تحل عليهم من أهل المغرب بنا وعلى أيدينا ، فيقطع الله دابرهم ويستأصل شأفتهم إن شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي ، ومن صار معه من أهل بلدنا في خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته ، وما سألت من النظر في أمورهم ، والإنكار لفعلهم ، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم ، وفسقتهم وآباقهم ، وليسوا في بلدنا ، ولا برتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة لمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من

ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن إخراجهم عما تطرقوه من بلدك ، وإذ ترى مكانهم به من موضعك ، وأن الله بحوله وقوته وفضله ومنته رد إلينا سلطاننا بالمشرق ، وما كان تحت أيدي آبائنا منه ، نظرنا فيذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، وإستقامة لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما دعت اليه ، وحضضت عليه « بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ولم يضع لك عندما رعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا .

وقد أدخلنا رسولك قرطيوس علينا ، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا ، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا إليك بكتابناهذا رسولين من صالحي من قبلنا ، فالكتب إلينا معهما بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا ، والذي يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك ، لننظر فيما يتصرفان به على حسب ما يأتينا من عندك إن شاء الله » .

برفنسال : الاسلام في المغرب والأندلس
ترجمة الدكتور سيد عبد العزيز سالم ، مجموعة الألف كتاب رقم ٢٨٩ ص ١١٥ ـ ١١٨ .

المصادر والمراجع
أولاً - المصادر القديمة :

القرآن الكريم .

ابن اعثم الكوفي : ٣٢٤ هـ ابي محمد احمد بن أعثم .
- كتاب الفتوح .

الاصطخري : ٣١٨ - ٣٢١ هـ = ٩٤٣ م ابو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي
- مسالك المهالك (طبعة ليدن ١٩٢٧ م) .

ابن الاثير : ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م على بن احمد بن أبي الكرم
- الكامل في التاريخ .

ابن ابي أصيبعة :
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء .

ابن كثير : ٧٧٤ هـ عماد الدين ابو الفدا اسماعيل الدمشقي
- البداية والنهاية .

ابن العمراني : ٥٨٠ هـ = ١٨٤ م محمد بن علي بن محمد المعروف بابن العمراني
- الانباء في تاريخ الخلفاء تحقيق د . قاسم السامرائي .

ابن طباطبا : ٧٠١ هـ محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي
- الفخري في الاداب السلطانية (دار بيروت للطباعة ١٩٦٦) .

ابن خلكان : ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م شمس الدين ابو العباس احمد بن ابراهيم بن أبي بكر الشافعي .
- وفيات الاعيان .

ابن خلدون : ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ ـ ١٤٠٦ م عبد الرحمن محمد
ـ مقدمة ابن خلدون (الطبعة الرابعة) .
العبر وديوان المبتدأ والخبر (طبعة ١٩٧١) .

ابن سلام : ٢٢٤ هـ الامام الحافظ ابي عبيد القم
ـ الاموال تحقيق محمد خليل هراس (الطبعة الثانية ١٩٧٥ م) .

ابن عذارى المراكشي :
ـ البيان المغرب .

ابن النديم : ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م محمد بن اسحق النديم البغدادي
ـ الفهرست .

ابن العماد الحنبلي : ١٠٨٩ هـ ابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي
ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب (طبعة المكتب التجاري بيروت) .

ابن القوطية : افتتاح الاندلس .

الكاتب : احمد بن طاهر .
ـ بغداد في ريخ الخفة العباسية (طبعة ١٩٦٨ م بغداد) .

البلاذري : ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م احمد بن يحيى بن جابر
ـ فتوح البلدان .

التنوخي : ٣٨٤ هـ ابو علي الحسن بن ابي القاسم
ـ الفرج بعد الشدة .

الجاحظ : ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م ابو عثمان عمرو بن بحر
ـ البيان والتبيين .

الجهشياري : ٢٣١ هـ أبي عبد الله محمد بن عبدوس
ـ الوزراء والكتاب (الطبعة الاولى ١٩٣٨ م ـ القاهرة) .

خليفة بن خياط :
ـ تاريخ خليفة بن خياط تحقيق اكرم ضياء العمري (الطبعة الثانية ١٩٧) .

الخطيب البغدادي : ٤٦٣ هـ ابو بكر محمد بن علي
ـ تاريخ بغداد او مدينة السلام (دار الكتاب العربي بيروت) .

الدينوري : ٢٧٢ هـ = ٨٩٥ م اب حنيفة احمد بن داوود
ـ الاخبار الطوال (الطبعة الاولى ١٩٦٠ القاهرة) .

الزركلي : الاعلام .

السيوطي : ٩١١ هـ الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر
ـ تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين الخطيب .

الشابشتي : ٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م ابو الحسن علي بن محمد
ـ الديارات (مطبعة المعارف . بغداد ١٩٥١ م) .

الطبري : ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م ابو جعفر محمد بن جرير
ـ تاريخ الأمم والملوك .

أبو الفدا : ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م اسماعيل بن علي عماد الدين
ـ المختصر في اخبار البشر (الطبعة الحسينية بالقاهرة) .

القفطي : ٦٤٦ هـ جمال الدين ابي الحسن علي بن القاضي الاشرف يوسف
ـ إخبار العلماء بأخبار الحكماء (طبعة الخانجي) .

القلقشندي : ٨٢١ هـ = ١٤١٨ م ابو العباس احمد
ـ مآثر الانافة في معالم الخلافة تحقيق عبد الستار احمد فراج (طبعة ١٩٨٠م)

الكندي : ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ابو عمر محمد بن يوسف
ـ كتاب الولاة والقضاة (بيروت ١٩٠٨م) .

مسكويه : تجارب الأمم (مطبعة التمدن بالقاهرة ١٩١٤ م) .

المسعودي : ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م ابو الحسن علي بن الحسين بن علي
ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر (الطبعة الخامسة) .
ـ التنبيه والاشراف (دار الهلال ـ بيروت ١٩٨١ م) .

المقريزي : ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م تقي الدبن احمد بن علي

- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار جـ ٢
المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
مجهول : العيول والحدائق في اخبار الحقائق (مكتبة المثنى ـ بغداد) .
مجهول : اخبار مجموعة .
المقدسي : ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م شمس الدين ابو عبد الله محمد
- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (طبعة ليدن ١٩٠٦ م) .
ياقوت : ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م شهاب الدين ابو عبد الله الحموي
- معجم البلدان .
اليعقوبي : ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح
- تاريخ اليعقوبي .
- كتاب البلدان (ليدن (١٨٩١ م) .
أبو يوسف : ١٨٢ هـ يعقوب بن ابراهيم
- الخراج تحقيق محمد ابراهيم البنا (طبعة دار الاصلاح) .

ثانياً ـ المراجع العربية الحديثة :

ابراهيم احمد العدوى : الدكتور
- الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم (الطبعة الاولى) .
أحمد أمين :
- ضحى الاسلام جـ ١ ، جـ ٣
- ظهر الاسلام جـ ١ (الطبعة الثالثة ـ مكتبة النهضة) .
احمد شلبي : الدكتور
- موسوعة التاريخ الاسلامي جـ ٣ (الطبعة الثانية ١٩٦٢ م) .
احمد مختار العبادي : الدكتور
- في تاريخ المغرب والاندلس (الطبعة الاولى) .

ابو زيد شلبي :
- تاريخ الحضارة الاسلامية (الطبعة الثالثة ١٩٦٤ م) .

السيد الباز العريني : الدكتور
- الدولة البيزنطية (طبعة ١٩٨٢ م) .

توفيق سلطان اليوزبكي :
- اهل الذمة في العراق (طبعة ١٩٨٣ م) .

جوزيف نسيم : الدكتور
- العرب والروم واللاتين (الطبعة الاولى ١٩٨٣ م) .

حسن الباشا : الدكتور
- دراسات في الحضارة الاسلامية (مطبعة دار النهضة ١٩٧٥ م)
- دراسات في تاريخ الدولة العباسية (الطبعة الاولى) .
- مدخل الى الاثار الاسلامية (الطبعة الاولى دار النهضة العربية) .

حسن ابراهيم حسن : الدكتور
- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (مكتبة النهضة)

حسام الدين السامرائي : الدكتور
- المؤسسات الادارية في الدولة العباسية (الطبعة الثانية).

حسن محمود : الدكتور
- العالم الاسلامي في العصر العباسي (طبعة ١٩٧٣ م) .
الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى (طبعة ١٩٦٨ م) .

حسن مجيب المصري :
- صلات بين العرب والفرس والترك (الطبعة الاولى) .

خير الدين الزركلي :
- الاعلام (الطبعة الثالثة) .

سعيد عاشور : الدكتور
- اوروبا العصور الوسطى (الطبعة الثانية ١٩٨١ م) .

السيد عبد العزيز سالم : الدكتور
- تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس (طبعة ١٩٨١ م)
- تاريخ العرب في عصر الجاهلية .
شاكر مصطفى : الدكتور
- دولة بني العباس (وكالة المطبوعات - الكويت) .
محمد شكيب ارسلان .
- غزوات العرب في فرنسا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط (دار الكتب العلمية بيروت) .
الشحات السيد زغلول : الدكتور
- السريان والحضارة الاسلامية (طبعة ١٩٧٥ م) .
عمر كمال توفيق : الدكتور
- تاريخ الدولة البيزنطية (طبعة ١٩٧ م) .
علي حسن الخربوطلي : الدكتور
- الرسول في المدينة (الطبعة الاولى) .
- الاسلام والخلافة (الطبعة الاولى) .
علي عبد الله الدفاع : الدكتور
- نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات (الناشر دار جون وايلي نيويورك).
عبد المنعم رسلان : الدكتور
- الحضارة الاسلامية في صقلية وجنوب ايطاليا (الطبعة الاولى ١٩٨٠ م) .
عبد الخالق النواوي : الدكتور
- العلاقات الدولية والنظم الاقتصادية في الشريعة الاسلامية . (الطبعة الاولى ١٩٧٤ م) .
عبد العزيز الدوري : الدكتور
- الجذور التاريخية للشعوبية (الطبعة الاولى) .
- العصر العباسي الاول (طبعة بغداد ١٩٤٢ م) .

عمر فروخ : الدكتور
- تاريخ العلوم عند العرب (الطبعة الثالثة ١٩٨٠ م) .

فاروق عمر : الدكتور
- العباسيون الأوائل (الطبعة الاولى) .

فتحي عثمان : الدكتور
- الحدود الاسلامية البيزنطية (مطبعة دار الكتاب العربي) .

مصطفى نجيب : حملة
- الاسلام (الطبعة الثالثة ١٩٣٢ م) .

محمد الطيب النجار : الدكتور
- الدولة الاموية في الشرق (الطبعة الثالثة ١٩٧٧ م) .

الشيخ محمد الخضري :

تاريخ الامم الاسلامية الجزء الاول الدولة العباسية (طبعة ١٩٧٠ م)
- اتمام الوفاء في تاريخ الخلفاء (الطبعة الاولى) .

محمد حلمي احمد : الدكتور
- الخلافة والدولة في العصر العباسي (مطبعة نهضة مصر ١٩٥٩ م) .

محمد ضياء الدين الريس : الدكتور
- الخراج والنظم المالية (الطبعة الرابعة ١٩٧٧ م) .

محمد كرد علي : الادارة الاسلامية في عز العرب (مطبعة مصر ١٩٣٤ م) .

محمد عبد المنعم ماجد : الدكتور
- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (طبعة ١٩٦٦ م) .
- تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى (دار الكتب العلمية بيروت) .

الشيخ محمد ابو زهرة :
- العلاقات الدولية في الاسلام (مطبعة دار الفكر العربي) .

محمد ماهر حماده : الدكتور
- الوثائق السياسية العائدة للعصر العباسي الاول(الطبعة الثانية ١٩٨١ م).

محمد مختار باشا :
- التوقيعات الالهامية في التواريخ الهجرية تحقيق الدكتور محمد عماره (الطبعة الاولى ١٩٨٠ م) .

محمد الصادق عفيفي :
- تطور الفكر العلمي عند المسلمين (مكتبة الخانجي القاهرة ٧٦ - ١٩٧٧ م).

محمد عبد المنعم خفاجي :
- صور من الفكر العربي وتاريخ الاسلام (الطبعة الاولى) .

ثالثاً - مراجع اجنبية مترجمة الى العربية

آدم ميتز :
- الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ترجمة محمد عبد الهادي ابو ريدة (الطبعة الاولى) .

خودا بخش صلاح الدين :
- الحضارة الاسلامية ترجمة وتعليق الدكتور علي حسني الخربوطلي (طبعة ١٩٦٠ م) .

زيغرد هونكه :
- شمس العرب تسطع على الغرب ترجمة عن الالمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي (الطبعة الثانية ١٩٦٩ م) .

ستانو دكب :
- المسلمون في تاريخ الحضارة ترجمة الدكتور محمد فتحي عثمان (الطبعة الاولى ٢. ١٩ م) .

سيديو :
ـ ل . أ
تاريخ العرب العام ترجمة عادل زيتر (طبعة البابي الحلبي ١٩٤٨ م) .
فان فلوتن :
ـ السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم (الطبعة الثانية مكتبة النهضة) .
فازلييف :
ـ العرب والروم ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة (دار الفكر العربي) .
مرغوليوث :
ـ دراسات عن المؤ رخين العرب ترجمة حسين نصار .
مولوى :
ـ الادارة العربية ترجمة دكتور ابراهيم العدوى .
الدكتور عزيز احمد :
ـ تاريخ صقلية الاسلامية . نقله الى العربية الدكتور امين توفيق الطيبى (الدار العربية للكتاب ١٩٨٠ م)
آرثر كريستنسن :
ـ ايران في عهد الساسانيين ترجمة الدكتور يحيى الخشاب (دار النهضة العربية)

رابعاً : مراجع أجنبية :

1- Ostrogorsky:

Hist. Of the Bysantine State.

2 - Bury:

Ahistory of the Roman Empire.

3- Stanley Lane Poole:

Hist. Of Egypt in the Middle Ages.

4- Oman,C.,

The Byzantine Empire.

5- Hussey:

The Byzantine World. London, 1976.

6- Vasiliev:

A History of the Byzantine Empire.

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**